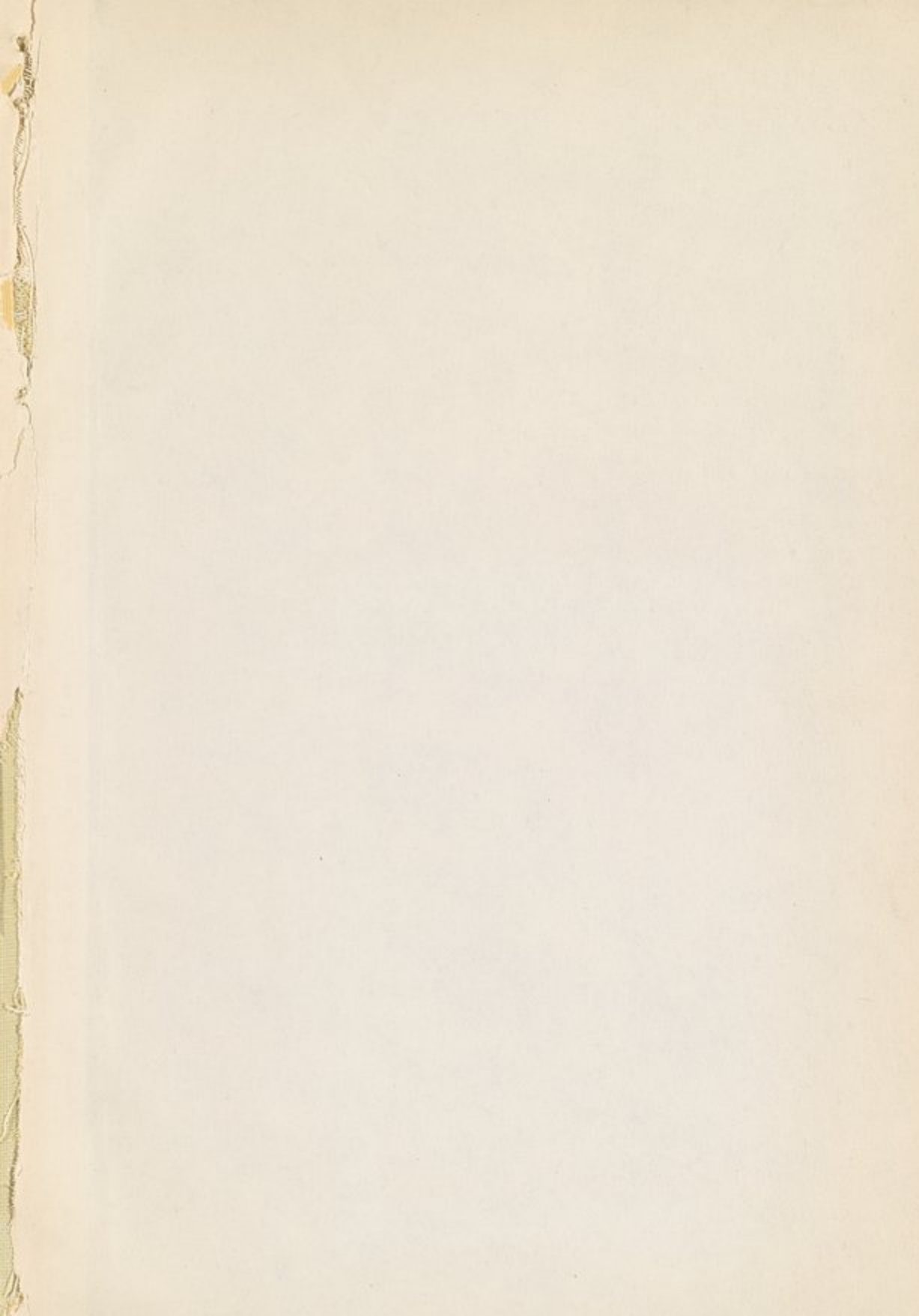




الدين والعلم

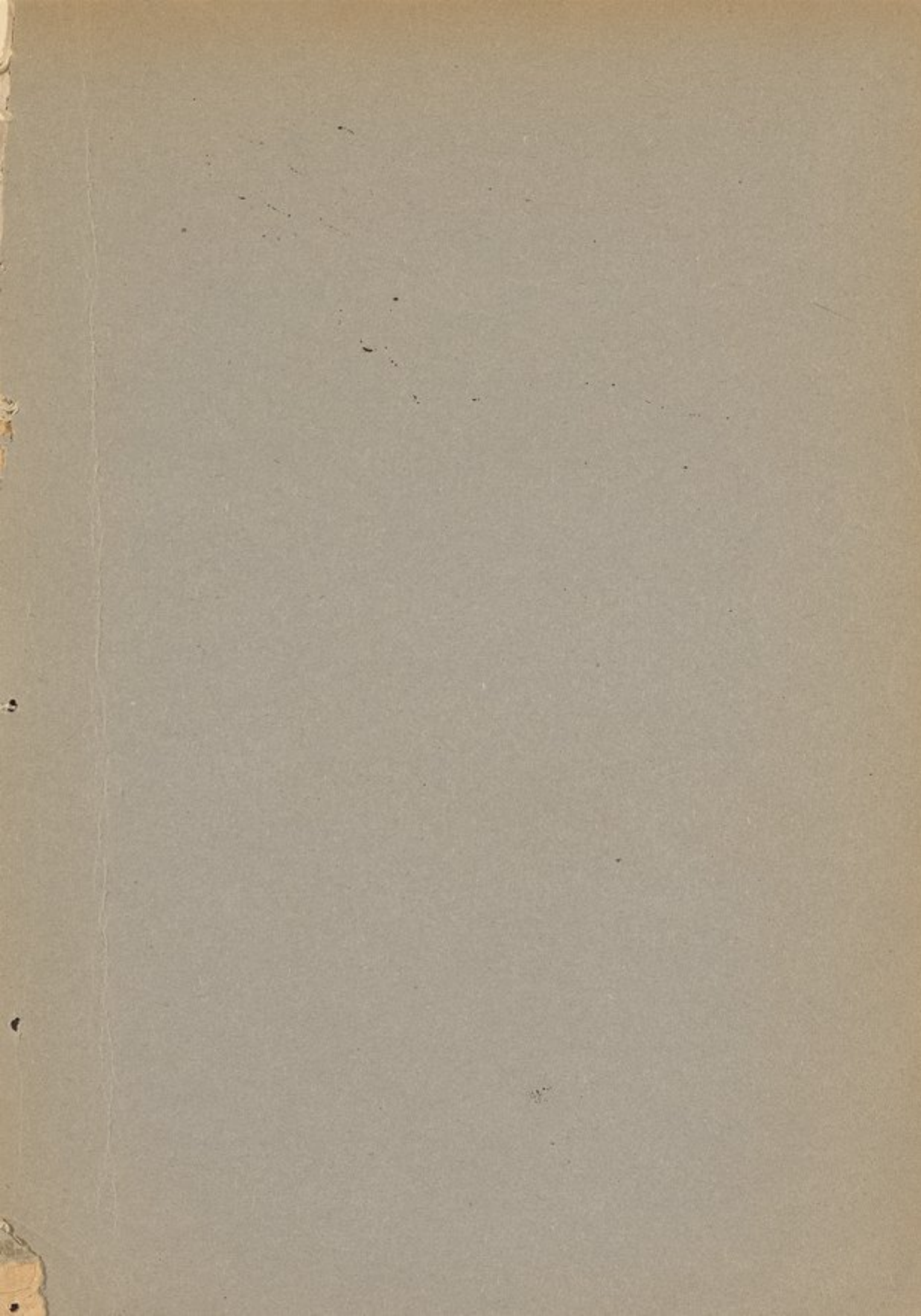
ألفه بالتركية
المشير احمد عزت باشا

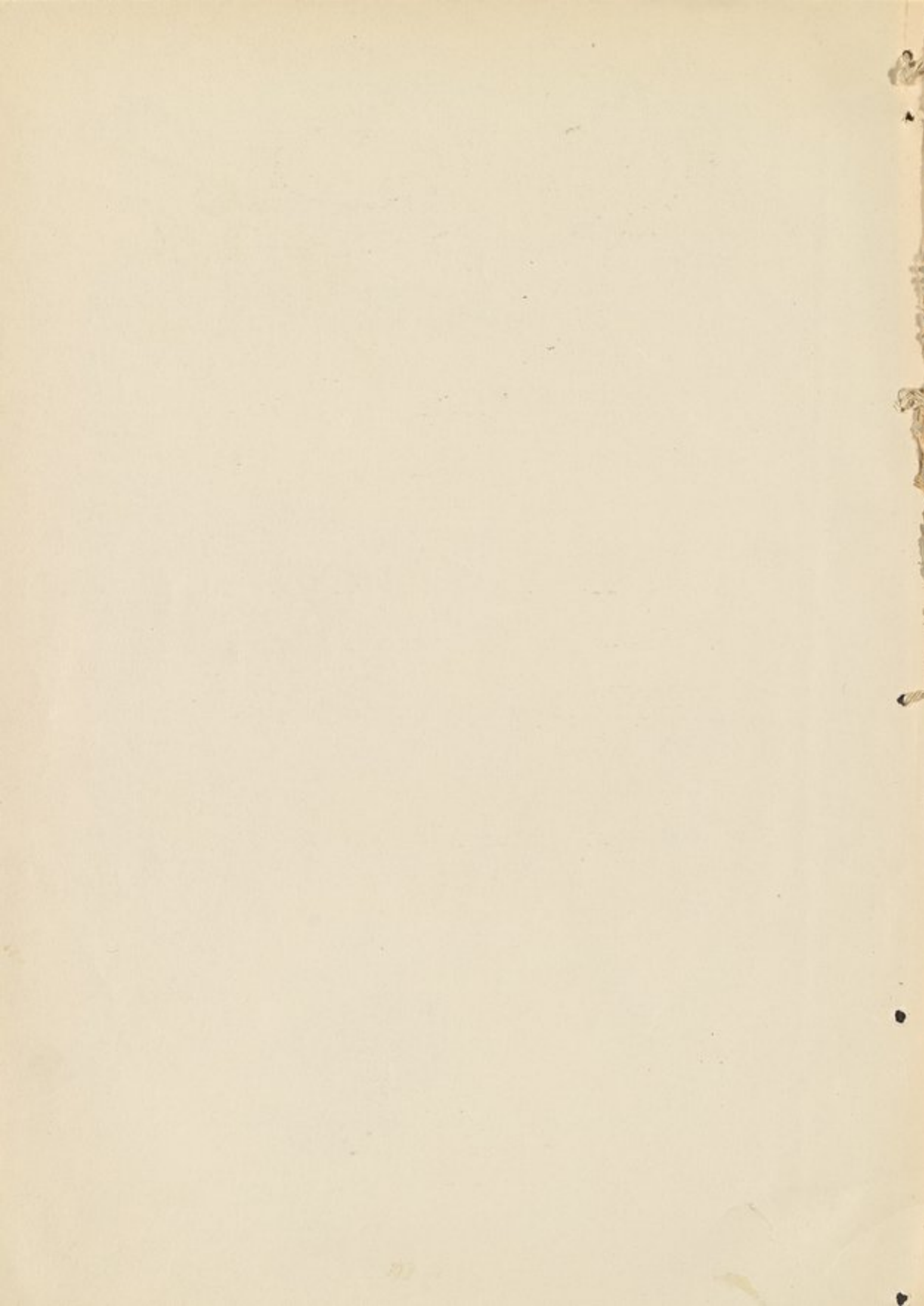
ترجم أكثره إلى العربية
حطاب
مدروس اللغة التركية
بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

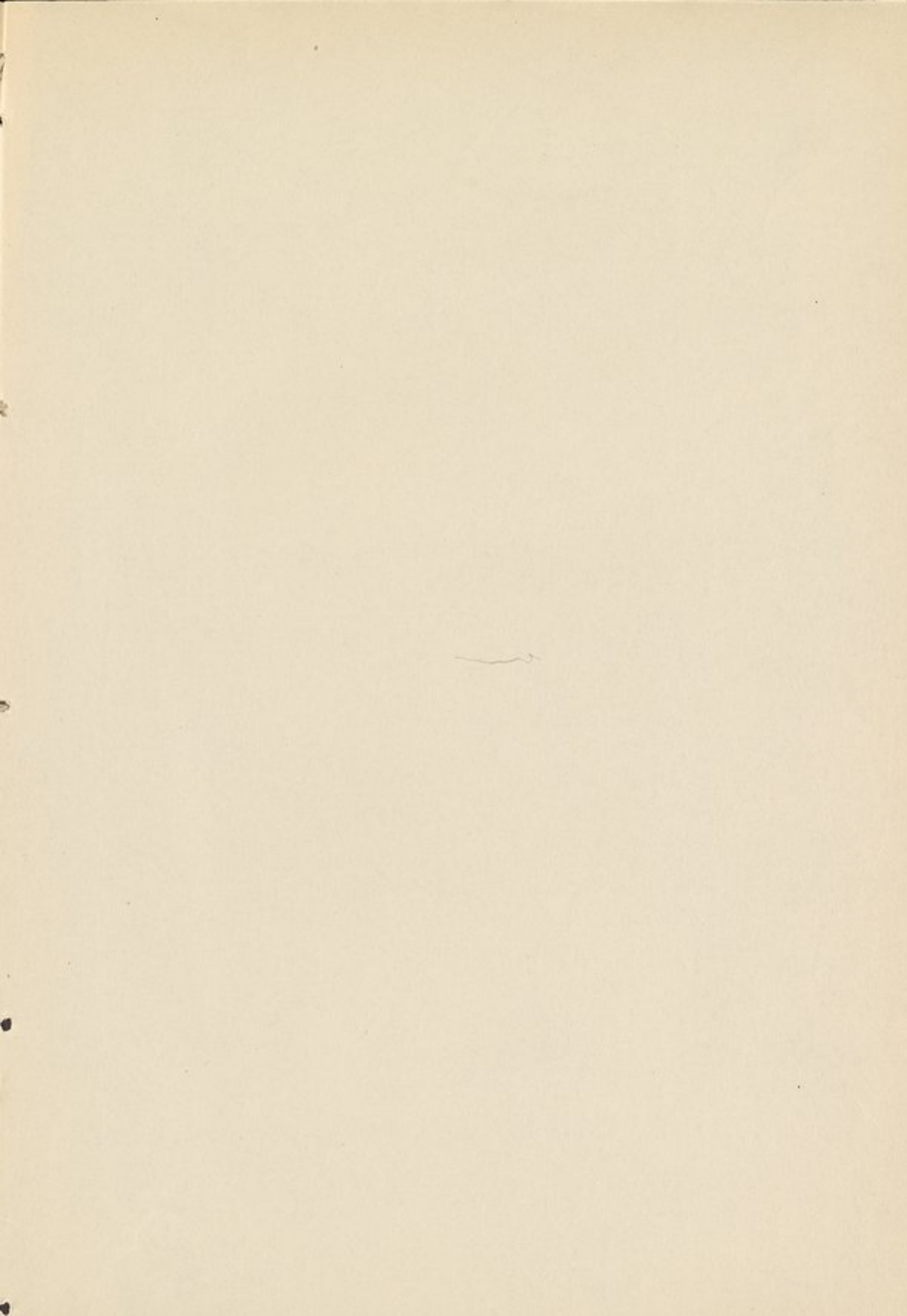
راجعته وشارك في تصحيحه الدكتور
عبد الوهاب عزام
الوزير المفوض
بالمملكة العربية السعودية

طبع على نفقة حضرة صاحب المقام الرفيع
عبد العزيز عزت باشا

القاهرة
مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر
١٣٦٧ هـ - ١٩٤٨ م







الدِّينُ وَالْعِلْمُ

al-Dīn wa-al-'ilm

ألفه بالتركية

المشیر احمد عزت باشا

Ahmed 'Aziz pasha

ترجم أ كثره إلى العربية

حطاب

مدرس اللغة التركية

بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

راجعه وشارك في تصحيحه الدكتور

عبد الوهاب عزام

الوزير المفوض

بالمملكة العربية السعودية

طبع على نفقة حضرة صاحب المقام الرفيع

عبد العزيز عزت باشا

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٦٧ - ١٩٤٨ م



صورة المؤلف



كلمة

تقدير وشكر

كنت أزور صاحب السمو السلطاني الأمير يوسف عز الدين أفندي بقصره بجاملية ، فتعرفت بالمغفور له القائد العظيم أحمد عزت باشا ، وما لبثنا أن توطدت بيننا أواصر الصداقة والمودة .

كان رحمه الله ذا عقيدة دينية سليمة أوحى إليه وضع مؤلف عن الدين الإسلامي وعقائده . غير أن زوال الخلافة الإسلامية ، حال دون نشره باللغة التركية في تركيا . فشرع في تعريبه لنشره في البلاد الناطقة بالضاد . وما إن أنتم ترجمة ثلثه حتى أحس أن المنية تدركه ؛ فأوصى السيدة حرمة بأن تبعث إليّ بالكتاب ، لأقوم من جانبي بإكمال ترجمته ونشره . فلما توفاه الله ، أرسلت إليّ السيدة حرمة الكتاب عملاً بوصيته .

وكان لهذه الوصية أثرها في نفسي . أثرا هتزت له مشاعري ، وملك عليّ وجداني ، ميلا إلى تحقيقها ، وحباً في إشاعة مبادئ الدين الإسلامي القويمة . وفكرت فيمن أتجه إليه لإكمال ترجمة الكتاب وإعداده للنشر ، فما لبثت أن اتجه تفكيرى إلى العالم الجليل الدكتور عبد الوهاب عزام بك ، فقد عرفته منذ أن كنت وزيراً مفوضاً في لندن فلمست فيه كفاية العلم والعرفان . وعرفت له مركزه المرموق بين علماء الإنجليز وغيرهم . فرجوت منه أن يقوم بإكمال ترجمة الكتاب والإشراف على تصحيحه ، وإعداده للنشر . فقام

بذلك ومعه الأستاذان الفاضلان حمزة طاهر مدرس اللغة التركية بكلية الآداب
بجامعة فؤاد الأول ، ومصطفى السقا الأستاذ المساعد بهذه الكلية ، باذلين جهداً
صادقاً صادفهم فيه التوفيق .

فلئن شكرتهم ما وفيتهم حقهم من الشكر ؛ فالله يتولى جزاءهم
الجزاء الأوفى .

والله أسأل أن يوفقنا جميعاً إلى النهوض بما تقضى به المبادئ الإسلامية ،
لنصبح خليقين بأنا مسلمون .

والله نعم المولى ونعم النصير .

عبد العزيز عرزي

زيورخ في أول مايو سنة ١٩٤٨

مقدمة النشر

هذا كتاب « الدين والعلم » ، ألّفه المشير أحمد عزت باشا أحد قواد الدولة العثمانية وصدورها العظام ، بعد أن عرّك الحوادث ، وشهد كثيرا من الغيّر والعبر ، وما رَس السياسة والإدارة والحرب زمنا طويلا .

ويبدو أن هذا الكتاب خلاصة تفكير طويل في حِقبة مديدة ، ونتيجة تجارب اجتمعت له فيما باشر من الخطوب والأسفار ، وما شهد من اضطراب في المعاش والأفكار ، وأنه عزم على نشره حينما تقوّضت الدولة العثمانية ، التي جاهد في سبيلها مخلصا ، قال :

« قد ذهبت أدراج الرياح أعمالى في السلك الذى نشأت فيه ، ولم يبق ما أذكره لمشيبي إلا أنيس وجدانى ، أى عقيدتى الدينية . ولما رأيتهما حولى تُزَلزل ، هاج قلبى ودفعتنى إلى هذا التأليف » . (التعليق رقم ٦) .

أعدّ الكتاب للنشر وقد تقطعت أطراف الدولة ، واحتل الأعداء دار الخلافة ، وأخذ كل قوم في الدولة يعملون للاستقلال ، وبالأناضول ثورة على الخليفة ؛ فلم يستطع المؤلف نشره إذ ذاك . وقد عرضه على بعض علماء إستانبول مستطلعا آراءهم فيه ، وبينما يتردّد بين الإقدام على نشر الكتاب والإحجام ، تغيّرت الحال جملة ، فأُلغيت الخلافة الإسلامية ، وعُطّلت المعاهد الدينية ، وحورب الدين وما يتصل به ، فاستحال أن ينشر المؤلف كتابه باللغة التركية .

لبث ينتظر الفرصة ، ويرتقب انفراج الأزمة ، فطال انتظاره ؛ بل زادت الأزمة شدة ولم تنفرج . فلم يجد من وسيلة إلا ترجمة الكتاب إلى اللغة العربية ، ونشره في غير تركيا ؛ فشرع يترجمه ، ولكنه لم يترجم أكثر من ثلثه ، وترك الكتاب بين أصل تركى لم يُطبع ، وترجمة عربية لم تكمل . وأرسلت السيدة

حرمه الكتاب بناء على وصيته ، إلى صديقه الحميم في القاهرة ، إلى الرجل العظيم ،
المُسْلِم الغيور ، الخَيْر البارِّ ، صاحب المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا . وكان هذا
قُبيل الحرب العالمية الأخيرة ؛ فأرسل صاحب المقام الرفيع الكتاب إلى يَرْجُو
إكمال ترجمته ، وتصحيحه ، وإعداده للنشر .

ووجدت الأصل ناقصا ، فأخبرت رفعة الباشا ، فأرسل إلى إستانبول للبحث
عن بقية الكتاب ، وقامت الحرب ، ولبننا نَرْقُب أن تضع أوزارها .

ولما عاد رفعة الباشا إلى القاهرة بعد الحرب ، سأل عن الكتاب ، وحثَّ على
نشره بأية صورة .

فأريت أنا والزميل الصديق الأستاذ حمزة طاهر مدرس اللغة التركية
في كلية الآداب من جامعة فؤاد الأول ، أن ننشر الكتاب بما بين أيدينا من
أصل وترجمة ، وقد سررنا أننا وجدنا ما نقص من الأصل التركي مترجما كله
إلى العربية .

بدأنا بتصحيح القسم المترجم ؛ ثم شغلتنى شواغل ، فوقع عبء العمل كله على
الأخ حمزة ، فاستقلَّ بترجمة ثلثي الكتاب إلى العربية .

وأما القسم الذي وجدناه مترجما ، فلم يكن عملنا فيه إلا تصحيح الترجمة
والعبارة العربية . وهو من أول الكتاب إلى الصفحة الحادية والسبعين ، وسائر
الكتاب من هذه الصفحة إلى الآخر ترجمه الأستاذ حمزة ابتداء .

وقد تفضل الأستاذ مصطفى السقا الأستاذ المساعد بكلية الآداب من جامعة
فؤاد ، فقرأ ترجمة الأستاذ حمزة ، وأشرف على طبع الكتاب وتصحيحه ، فاستحق
جزيل الثناء والشكر .

وقد قسم المؤلف كتابه إلى مقدمة وأربعة أبواب واستطارد في فصلين مستقلين ، ولم يثبت عناوين في ثنايا الأبواب والفصلين ، فقسمنا الموضوعات في كل باب ، وجعلنا لها عناوين ، تيسيرا على القراء .

وللكتاب حواش كثيرة طويلة ، دقق فيها المؤلف في شرح مسائل من العلوم . وقد آثرنا أن نضعها في آخر الكتاب ، لئلا يؤدي طول بعضها إلى الإخلال بسياق المتن ، وجعلنا لها أرقاما متتابعة من ١ إلى ٩٩ .

ولا ريب أنه كتاب جدير بعناية القراء ، ولا سيما الذين يهمهم الدفاع عن العقيدة الإسلامية ، وإقامة حججها على قواعد من العلم الحديث . وهو يُصور لنا حال الناشئة الإسلامية في تلك المدة المضطربة التي ألفت فيها الكتاب ، ويبين آراء رجل من كبار المسلمين في هذه الحال .

وبعد ، فنشر هذا الكتاب على اضطراب الأحوال ، بعد ما كثرت العوائق ، وحالت الحوائل ، هو حسنة من حسنات حضرة صاحب المقام الرفيع عبد العزيز عزت باشا ، فقد حرص على نشر الكتاب ، وبقي سنين يجمع أصوله ، ويبحث على إكمال ترجمته وطبعه ، ثم أنفق عليه ابتغاء مرضاة الله . جزاه الله عن الوفاء لصديقه ، وعن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

ربيع الأول سنة ١٣٦٧
يناير سنة ١٩٤٨

عبد الوهاب عزام

وزير مصر المفوض في المملكة العربية السعودية

ترجمة المؤلف

ولد أحمد عزت سنة ١٨٦٤ بمدينة ناسايچ التابعة لولاية مناستر بالروميلي ، من أعمال الدولة العثمانية ، في أسرة ألبانية كثيرة العدد ، لها سابقة خدمة في قصور آل عثمان . وتقلب أبوه حيدر بك في مناصب الدولة الإدارية المختلفة ، وكان آخر منصب تولاه متصرفية وان ، بالأناضول الشرقية .

وكان ذكاء أحمد عزت ومثانة خلقه يلفتان نظر أساتذته ومن يتصل بهم مذ كان تلميذا صغيرا . وقطع مراحل التحصيل بتفوق عظيم ، وأتم الدراسة الحربية ، وتخرج ضابطا برتبة ملازم . وكان من العشرة الأولين من صفوة الطلبة في تلك المدرسة ، على نظام ذلك العهد . ثم التحق بمدرسة أركان الحرب ، ومدتها ثلاث سنوات ، وتخرج منها برتبة يوز باشى أركان حرب سنة ١٨٨٧ . وأمضى سنتين يتمرّن في فرقتي المدفعية والمشاة ، وهما غير فرقته (كان في فرقة الفرسان) على السنن المتبعة في خريجي مدرسة أركان الحرب في زمانه ، ثم رقى إلى رتبة « قول آغامى » (Adjutant major)

وفي عام ١٨٩٠ بعثته الحكومة التركية إلى ألمانيا لإكمال التحصيل ، فدرس هناك أربعة أعوام ، ثم عاد إلى وطنه سنة ١٨٩٤ . وقد كان في أثناء تحصيله في ألمانيا موضع إعجاب كل من يتصل به ، من أصغر رؤسائه إلى الأباطور ويلهم الثانى . وظهر أثر إعجاب هؤلاء الأشخاص في زمن الحرب العالمية الأولى .

عاد إلى وطنه ، وعمل مدة في أركان الحرب العامة ، ورتقى إلى رتبة بكباشى ، ثم أرسل إلى بلغاريا ملحقا عسكريا .

وعُين في الحرب التركية اليونانية سنة ١٨٩٧ في أركان الحربية العليا لجيش تساليا ، وفي هذه الحرب أثبت ما كان متصفا به منذ صغره من القدرة والجلد ؛ فقد وضع هذا الضابط الشاب الذى التحق بأركان حربية الجيش بعد ابتداء الحرب ،

الخطة الحربية لموقعة دوميكة ، وأقنع هيئة أركان الحربية ، فقبلتها بالرغم من معارضا كثيرة . وقد أدت هذه الخطة إلى انتصار الدولة العثمانية في تلك الموقعة انتصارا أدهش العالم .

ولما انتهت الحرب اليونانية التركية ، عُين في أركان حربية الجيش الخامس ، الذي كان مركزه الشام ، وكلف القيام بأعمال مختلفة ، منها حركة حوران وإنشاء السكة الحديدية الحجازية ، فقام فيهما بأعمال مهمة .

وفي ٣ ديسمبر من سنة ١٩٠٤ عُين في قيادة القوات العسكرية للجيش العثماني الخامس المرابط في اليمن . وفي ٢ فبراير من تلك السنة عُين قائدا للفرقة الرابعة عشرة النظامية . ثم عُين رئيسا لهيئة أركان حرب الجيش السابع . وفي ٦ أغسطس من سنة ١٩٠٧ مُنح رتبة أمير اللواء .



بلغ أحمد عزت باشا اليمن حانقا على اليمنيين ، بما سمع من السيئات التي اتهموا بها ، ولكنه شرع يبحث في أسباب تلك الثورة ، متوسلا بكل الوسائل إلى مصالحة الإمام يحيى والزيديين ، ولبت ثلاث سنوات ونصف سنة يقابل علماء الدين وزعماء البلاد ، ويتعرف مطالبهم ، ويفاوضهم في وسائل إجابة تلك المطالب ، ثم كتب إلى مراجعه العليا بما رأى وما سمع وعرف من أحوال اليمن ، وطلب إصلاحا في شئون الإدارة والاقتصاد ، وفي أمور اجتماعية ، وكانت خدماته في اليمن وسيلة لمعرفة هذه البلاد معرفة شاملة ، وأساسا لما قام به من الخدمات الموفقة سنة ١٩١٠ .

وعُين في أغسطس سنة ١٩٠٨ ، عقب الثورة التي انتهت بتثبيت الدستور العثماني ، رئيسا لأركان الحربية العامة للدولة العثمانية . وكان الاستعداد للدفاع عن الوطن بتنظيم الجيش وتنسيقه ، أول ما فكر فيه بعد تقلده هذا المنصب الخطير .

ومن النظم الجديدة التى أدخلها فى الجيش ، خطة ذات وجوه ثلاثة : زيادة القوة النارية فى الجهة ، وسوق الجيش ، وزيادة قدرة « مناورة الطابية » ؛ فقد أبدى هذه الفكرة ونفذها بجراءة فائقة .

فقد رأى رؤية عبقرى عظيم ، أن تأليف الفرق من لواءين ، واللواء من آلايين والآلاى من خمسة طواير ، وهو المتبع فى جيوش جميع الدول فى ذلك الوقت ، نظام سقيم غير ملائم للعمل ، وأن جعل المدفعية فرقا مستقلة تابعة لأمر الجيش ، خارجة عن الفرقة يجعل قوة النار فى الجهة ضعيفة . ولم يخضع لنظم الدول الأخرى ، فيتخذها أنموذجا ينسج على منواله ، بل قدم هو أنموذجا لبلاد العالم . فهذا النظام الذى طبقه أحمد عزت باشا ، معتمدا على نفسه وعلى علمه وتجاربه الخاصة ، اتخذته بعد حين جميع الجيوش ، وفيها جيش ألمانيا ، أكبر البلاد العسكرية فى ذلك العهد ، وطبقته (لم يكن الجيش الروسى قد قبل هذا النظام وطبقه بعد فى الحرب العالمية الأولى) .

وفى ٢ فبراير سنة ١٩١٠ عُنِنَ قائدا عاما للقوات العسكرية باليمن ، على أن يظل رئيسا لأركان الحربية العامة لجيوش الدولة العثمانية . وكان ذلك لقمع الثورة التى قامت باليمن من جرّاء إغفال الحكومة لمطالبه . فلم يكد يُنقِذَ صنعاء من أيدي الثوار ، ويبلغ شهارة ، حتى شرع فى تنفيذ خطته النبيلة التى تتبعها من زمن بعيد ، وبدأ يفاوض الإمام يحيى ، وأزال ما بينه وبين الدول العثمانية من خلاف . وقد قضى هذا الاتفاق التاريخى على الخلاف وعلى الآراء الخاطئة ، التى نشأت وترعرعت فى ظل نظام الإدارة القديمة السيئة ، والتى جعلت اليمن مذبحا للإخوان المسلمين ، وأشرب النفوس ثقة ومودة وشعورا بالأخوة ، ظلت قائمة بعد سقوط الدولة العثمانية ، وتفرق عناصرها بعد الحرب العالمية الأولى . فقد استطاع أحمد عزت باشا بسعة حلمه وحبه الوفاق ، ومهارته فى المفاوضات ، دون ميل مع العواطف والأهواء ،

النفوذ إلى قلب الإمام يحيى (رحمه الله) ، حتى أعلن بعد توقيع الاتفاقية بأسبوع ، أن سب الشيخين كفر ، وأن من يجرؤ عليه يستحق القتل !

ولما بلغت الحرب البلقانية أسوأ مراحلها ، أسرع أحمد عزت باشا إلى ميدان القتال بكل وسائل المواصلات ، من خيل وجمال وزوارق وسكة حديدية ، على حسب الظروف ، حتى وصل إلى ميدان القتال ، وتولى القيادة باعتباره رئيساً لأركان الحرب العامة أولاً ، وبصفته وكيلاً للقائد العام ثانياً (١٧ يناير سنة ١٩١٢) .

ثبت الجيش الذى بلغ قصبته جناحه متقهراً مهزوماً ؛ وحارب وباء الكوليرا الذى كان يفتك بالجيش حتى غلبه ، ونسق الجيش ونظمه من جديد . ثم عرف ببصيرته وبعُد نظره ماسيحدث من الاختلاف والحرب بين جيوش الدول البلقانية المنتصرة ، ووقف فى وقار العالم ومتانتته أمام إلحاح ذوى النفوذ من رجال الدولة ، الذين كان بعضهم يريد بدافع الحزبية ، وبعضهم بعاطفة الوطنية الجاهلة ، سوق الجيش بسرعة إلى الهجوم ، وأتم بكل قواه إعداد الجيش . حتى إذا وقع ماقدّر من الخلاف بين الدول البلقانية ، انقض عليها مسرعاً ، فأنتد تراقيا الشرقية وأدرنة من أيديها ، بجيشه الذى صار أقوى جيش فى البلقان إذ ذاك ، وفاز بصلح مشرف .

وعين أحمد عزت باشا فى ٦ أبريل سنة ١٩١٣ وزيراً للحربية ، على أن يبقى وكيلاً للقائد العام . وفى أكتوبر من السنة المذكورة منح رتبة الفريق الأول . وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٩١٣ استقال من وزارة الحربية (وألغيت وكالة القيادة العامة عقب الصلح البلقانى) .

ولما أخذ الجيش الرومى يتقدم فى أواسط الحرب العالمية الأولى نحو ولايات الأناضول الشرقية ، نُصب قائداً مرة أخرى ، وقبل متواضعاً راضياً ، العمل فى قيادة جيش تحت أمر أنور باشا ، الذى كان من قبل أميرآلاى ورئيس أركان

جناح في إدارته ، فقد وضع القيام بالواجب الوطني فوق النزعات والأهواء الشخصية .

وهكذا قبل في ١٥ فبراير سنة ١٩١٥ قيادة الجيش الثاني ؛ وفي ٥ مارس من سنة ١٩١٧ قيادة فرق الجيوش التي كانت تحارب في القوقاس ، وصرّف قواته في أثناء هذه القيادة ببصيرة عظيمة وخبرة كاملة ، وصدّ هجمات الروس الشديدة وغاراتهم ، وأنقذ الأناضول من استيلائهم .

ولما بدأت الثورة الروسية فقدت قيادة الجيوش القوقاسية خطورتها ، وخرج أحمد عزت باشا من ذلك الميدان في ١٧ ديسمبر سنة ١٩١٧ .

واشترك في مؤتمر الصلح الذي انعقد في برست لتوفسكي وبخارست في سنتي ١٩١٧ و١٩١٨ مندوبا عسكريا .

وفي ١٤ أكتوبر سنة ١٩١٨ مُنح أحمد عزت باشا رتبتى المشيرية والوزارة ، ونُصب صدرا أعظم ووزيرا للحربية . ولم يلبث في الصدارة إلا خمسة وأربعين يوما ، ثم استقال لإصرار السلطان على تغيير بعض أعضاء الوزارة ، مخالفا بذلك أحكام القانون الأساسي ، وقد ذكر ذلك أحمد عزت باشا صراحة في كتاب استقالته .

مكث بعد ذلك مدة من الزمن مغضوبا عليه ، ولكنه لم يحجم عن تلبية دعوة الوطن كما دعت الحاجة ، فتقلد وزارات مختلفة ، وساعد في أثناء وزاراته تلك ، الحركة الوطنية التي قامت في الأناضول مساعدات جليلة ، متوسلا بمكانته عند المحتلين ، إلى إرسال الضباط والمهمات الحربية من إستانبول إلى الأناضول .

وكان في سنة ١٩٢٠ وزيرا للداخلية في وزارة توفيق باشا ، وبُعث إلى الأناضول في وفد فيه صالح باشا وزير البحرية ، ومنير بك مستشار الحقوق ، للاتفاق

مع مصطفى كمال باشا ، ولكنهم عجزوا عن التفاهم والاتفاق ، وأبقاهم الكاليون في أنقرة بضعة أسابيع ، محاولين أن يضمومهم إليهم ، فلم يظفروا بهم .

ولم يكن يسيرا على مثل أحمد عزت باشا ، وقد تربى على حب السلطنة والخلافة ، أن يخالف عليهما . ولهذا لم يقبل الانحياز إلى الكاليين . ثم أذن لهم في العودة ، على ألا يعاونوا حكومة إستانبول ، فاستقال المرشال أحمد عزت باشا من وزارة الداخلية ، ولبث حيناً بغير عمل . ثم طُلب إليه تقلد وزارة الخارجية ، وهي آخر وزاراته (١٢ يونيه ١٩٢١) .

لم يكن المرحوم أحمد عزت باشا واسع العلم بالعسكرية وحدها ، بل كان واسع الاطلاع في فنون شتى ، جَمَّ الأدب ، ديناً ، شديداً جداً حين تجب الشدة ، ولتينا حين يحسن اللين ، وكان على حدة مزاجه ، طاهراً ، رقيقاً ، مستقيماً ، محباً للخير ، ما أساء إلى أحد ، حتى من أساءوا إليه .

٢٩ جادى الأولى سنة ١٣٦٧

٩ أبريل سنة ١٩٤٨

مقدمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

في هذا الوقت الذي بدأت تضمحل فيه نظريات الإلحاد شيئا فشيئا في جميع أنحاء العالم المدني ، بل بدأ يقوى الاعتقاد في نفع الدين ولزومه ، ولا سيما في الأيام الأخيرة ، نرى اشتعال نيران النزاع بين الملل والنحل التي كانت تعيش في أجزاء الدولة العثمانية المتبددة . ونرى في الناشئة التي تدعى لنفسها التنوير ، اشتداد العداء نحو الدين باسم « اللادينية » ، والاستمسك بنظريات الإلحاد والإنكار^(١) . وليس ما أشرت إليه من الخلاف المذهبي إلا ثمرة مرة من ثمار تلك المنازعات الفلسفية والمنطقية التي شبت منذ القديم ، مستندة إلى بعض الألاعيب اللفظية ، وما ولدته تلك المنازعات من عدوان ؛ كما أن ما يشاهد في بلاد تركيا من ضعف الاعتقاد والميل للإلحاد ، ليس إلا ناجما من دراسة العلوم الطبيعية منذ جيل أو جيلين دراسة ضعيفة . والعجز عن تأليف هذه المعلومات العلمية بما تلقته تلك الناشئة من المعلومات الدينية الضئيلة ، وكل ما نراه من الغلظة والفظاظة والقسوة في الطرفين ، لا سبب له إلا ضعف النظر ، ووهن الفكر ، وسلوك أضعف المسالك في البحث والمناظرة ، وما ينشأ من الجهل المطبق المتسم بسمة العلم من غلط الرؤية والمكابرة .

يبد أني أخاطب كافة القلاة من أرباب المذاهب والعقائد المختلفة على الإطلاق ، قائلا : اعلموا أيها الغافلون المتعصبون ، الذين وصلوا بما بينهم من خلاف في الاجتهاد إلى إثارة الأحقاد الدينية ، أن مالدكم من العلم بعيد عن إدراك المرام الإلهي أقصى بُعد ، فلا تتمتعوا في اعتبار أنفسكم من جند الله ، واعتبار سائر

الموحدّين من الطوائف مشركة بالله ؛ فإن القرآن الكريم ، وخاتم النبيين ، يوصياننا بمعاملة اليهود والنصارى ، بصفقتهم من أهل الكتاب ، أحسن معاملة ، كما يمنعاننا عن سب الطاغوت والأصنام ، وبطلانها ظاهر للعيان . وعلماء الرسوم مكلفون بتبليغ أحكام الدين ونشره ، فمن الإثم العظيم إثارة الأحقاد نحو جماعة من أهل القبلة ، وشق عصا الوحدة ، وتوهين دعائم الجامعة الإسلامية ، وما من ظالم يرى غيره بما ليس فيه ، إلا يحيق به مكره ، ويرجع إليه كيده .

وأنتم أيها المنكرون ، الذين هم بأنفسهم مُعْجَبُونَ ! إنكم ليقصّر إدراككم ، ويقصر علمكم وفكركم ، عن الإحاطة بحقيقة الخلق ، وهذه الطبيعة بفضائها اللانهائي ، فيها ما فيها مما لا يصل إليه الفهم ، في حين تجول فيه آراء أهل الأديان جولة التفكير والادكار على الدوام ، وإنكم ليحرمكم قصر علمكم حق الكلام في هذا الميدان الفسيح . إلا أن المتبحرين في العلوم العقلية ، والراسخين في العلوم الدينية والنقلية ، يجولون في هذا الميدان جولة العليم بقدره وطوره ، متخذين الإنصاف والإخلاص والسعى والإقدام — مع معرفة أقدارهم ، والتفاني في سبيل الواجب — نبراسا للبحث بكل دقة وعزم ، لينبروا عقول الناس ، وينقذوهم من ذل الجهل والعذاب في الدنيا والآخرة . أمّا إن توهّمتم أنكم قد كشفتم الغطاء عن خفايا الحياة ، وأسرار الخليفة ، وتصديتم لإنكار كل آثار السالفين باسم التجديد ، وبما تعلمتموه من بعض الدساتير الرياضية ، وما تعلمتموه من بعض المجلات الحكيمة ، أو المقالات الأدبية ، فلن يكون توهّمكم وبهتانكم هذا إلا إذلالاً لأنفسكم وقومكم في هذه الدنيا ، فضلا عن الآخرة التي لا تؤمنون بها .

إن ما يدعوني إلى توسيع نطاق هذه الكلمة الصادرة من سويداء القلب ، إزاء ما يرى في العالم الإسلامي خلال الأزمنة الأخيرة من التفرق والضلال ، إنما يُبَتَّنِي على أملين :

أولهما : إثبات كون الدين لا ينافي العقل والحكمة ، والعلم والمعرفة ، بقدر

ما أستطيع بيان ذلك للملحدين والمنكرين . وثانيهما : بيان أنه إذا عرف الإنسان قدرة الله معرفة إجمالية ، باستقصاء آثار الخليفة ، وما تحتويه من عظمة غير محدودة ، فإن ما يقع من الاختلافات الفرعية بين أهل التوحيد ، بناء على الخطأ في الاجتهاد ، ينبغي ألا يؤدي إلى التفرقة والخصومة ، ثم إيضاح هذه الحقيقة على قدر الإمكان لأرباب النحل المختلفة ، دعوة لهم إلى طريق الوفاق والإنصاف .

إذا وفقت في هذا السعى ، وتمكنت من تنبيه عامة المسلمين ، إخواني في الدين ، لإزالة أنواع الاختلاف والتخاصم ، تحققت أكبر آمالي في الحياة ، ورأيت أيامي لم تذهب سدى . وإني لأفتح كتابي بهذا الأمل وهذه الأمنية الخالصة .

منهاج التأليف :

يرى القارئ أني أميل إلى طريقة الإثبات في بياني ، أي إلى إثبات كل قضية بالاعتماد على العقل والعلم ، في حين أني مجبول على الاعتقاد بالمعنويات . فليس سلوكي هذا المسلك إلا لإقناع من أخاطبهم ، إذ لا يمكن إقناع المنكرين بالنصوص والنقول الدينية . وأما ما أخاطب به علماء الدين ، فلا يراد به إلا التوصل إليهم ألا يجهرزوا المعارضين والمنكرين بأسلحة الهجوم . فكان من الضروري إذن الاعتماد على العقل والعلم فيما أوردته من الأمثلة والأدلة .

إننا قد استفدنا من الحقائق العلمية ، والمكتشفات الجديدة ، على وجه الاختصار ، ولم نتعهد إيضاحها وإثباتها ، لخروج ذلك عن دائرة موضوع الكتاب . بيد أن هذه الأدلة من الحقائق العلمية المقطوع بصحتها ، ولهذا كلما بحثنا عن الفرضيات والنظريات التي لم تتحقق تمام التحقق ، استعملنا من الألفاظ والجل ما يفيد الشبهة ، أو بيننا بكل صراحة أنها مشكوك في صحتها .

ومع احتجاجنا بآيات القرآن والأحاديث النبوية وأقوال الفقهاء والعلماء ، ردا لمزاعم المعارضين ، ودفعاً لأباطيل المغترين ، فقد استشهدنا كذلك بأقوال الحكماء

المحققين والمتفنيين ، من أرباب سائر الأديان ، أكثر من استشهدانا بأقوال أجلة العلماء الإسلاميين في سائر أبحاثنا ، نظرا لما هو ملحوظ من اعتداد الملحدّين بأقوال هؤلاء أكثر من غيرهم . ومع هذا ينبغي أن يُلاحظ أن ذكر قول فلسفي في مقام الاستشهاد ، لا يدل على قبول المذهب الذي ينتمى إليه . وسيُرى أننا قد استندنا إلى فرضيات ونظريات لا حظّ لها من الثبوت كنظريات التكوين ، ولكننا لم نلتزم هذا الضرب من المناظرة ، إلا لمقابلة المنكرين بالنظريات التي يعتمدون عليها كل الاعتماد .

وقد يصادف المطالع في هذا الكتاب بعض أقوال وإفادات تقارب وتشابه أقوال المتصوفين والفلاسفة . فلا يظنّ أحد أن هذه الأقوال قد اتحلناها لأنفسنا بشيء من التعديل والتحريف ، فإن ما نقول هو محصول أفكارنا وتصوراتنا الخاصة ، المبنية على البحث والدرس .

إنى لأعتقد أن ما فعله بعض الأسلاف من المضي في ظلمات الجهولات ، مستضيئين بمصباح المنطق الإيساغوجي — وما هو إلا واسطة من وسائل الاستدلال العقلي — قد سلك بهم سبل الضلال ، أوتاه بهم في مجاهل الخيال ، وكانوا بذلك سببا من أسباب التفرق ، فلم ينج منهم إلا الذين أدرّكوا بحجز البشر ، فلم يتعدوا الحد .

ولهذا فإننا التزمنا البساطة والاختصار في كافة أبحاثنا واستقصائنا واستدلالاتنا ، وتجنبنا جهد الطاقة استعمال مصطلحات الفلاسفة القديمة ومسائلها في إثبات قضايانا . ولسنا نخاطب الإخصائيين ، بل نخاطب كافة المتعلمين من أرباب العقول السليم ، فلهذا بذلنا الجهد للابتعاد عن كل ما يصعب فهمه من المصطلحات الفلسفية .

استطرد :

ومع هذا نرى من المناسب أن نورد هنا بعض المعلومات عن المذاهب الفلسفية ،

فيما يختص بالإدراك واليقين ، إيضاحا لما قدمنا عن المناظرات الفلسفية ، وتسهيلا لفهم المباحث التي نتناولها .

فُطر الإنسان على البحث عن كل شيء يراه وتفهمه ، ولم توجد الفلسفة إلا للبحث عن ماهية الأشياء وبيان ما يفهم منها ، فكان حريا أن تكون أول مسألة من مسائل الفلسفة : « هل يقدر عقل الإنسان أن يصل إلى اليقين ؟ » . وانقسمت الآراء من أول الأمر حول هذا الموضوع ، وقبِلت الفلسفة الإيقانية وجود عالم خارج عن النفس ، أى أنها تعترف بـ « أنا » و « لا أنا » ، وترى إمكان إدراك هذا العالم بالعقل ؛ وتظهر هذه الفكرة في أول الأمر موافقة لإدراك الإنسان . والمذاهب التي تسمى الحسابية أو الربنية أو اللاأدرية ، تعتقد أن العقل البشري غير قادر على إدراك حقيقة أى شيء وتيقنها ، وترى أن كل ما لدينا من الآراء عن بيناتنا ومحسوساتنا لا قيمة له بتاتا . وأما النظرية الفكرية أو المعنوية أو التصورية ، فتري أن الأشياء ليست إلا عبارة عن أفكارنا ، وليس للموجودات التي يمثلها لنا التصور حقيقة ، وما المحسوسات إلا محض تصورات . وإذا وسّعنا هذه الفكرة رأينا مثلاً أن والد الشخص المتفكر ومربيه ومن ينحو نحوه في تفكيره ، ليسوا إلا أشخاصاً مُتَخَيَّلِينَ لا حقيقة لهم ، وأن الأرض التي يعيش عليها ، والشمس التي يقتبس ضياءها ، والسماء التي تحيط به ، ليست إلا تصورات ، بل يرى البعض أن الشخص المتصور كذلك لا وجود له .

لا جرم أن العقل السليم يشمئز من ذلك كله ، ويستغربه في أول الأمر ، ولكن الذين أسسوا هذه المذاهب ، وآمنوا بمبادئها هذه ، لجئوا إلى الأدلة المنطقية الباهرة ، التي يظهر في قضاياها وأقيستها كل شيء في موضعه ، فالموضوع موضوع ، والمحمول محمول ، والصفري صفري ، والكبرى كبرى ، فتلاعب بالعقل . وجاء الشعراء فأمدوا المفكرين على هذا النحو بالكلمات الوجيزة ، والأبيات الشائقة

والطريفة، ومهدوا لهم السبيل للاستكثار من الأعوان في كل حين، واستمر الأمر على هذا النحو إلى زماننا الحاضر.

إن في كل مذهب من هذه المذاهب الثلاثة سمة من الحقيقة، إذا قصرنا كلاً منها على حالات محدودة معينة؛ إذ لا يصح أن يُقطع بأن كلاً منها على حدة يصلح أن يكون كقاعدة كلية صحيحة. ثم المناظرات والمناقشات التي وقعت بين أرباب المسالك المختلفة، وتمادت تمادياً يصعب الإحاطة به، أدت إلى ظهور فرق متطرفة في كل مذهب، فنشأ بين الإيقانيين من يقول بأن كل ما لا تدرك حقيقته بالعقل والحواس وعلم البشر، لا وجود له؛ وظهر بين المذاهب الأخرى من يحسن السفه والكسل والبطالة. والحق أن الإنسان إذا بدأ بقوله «كل ما في الكون وهم وخيال» فإنه ينتهي بقوله «لا ندع كأس الراح، فالحكم للخيار!» وكل من يعتقد بأنه غير موجود، لا يمكن أن يؤمن بالمستقبل، أو أن يحسبه حساباً. لا شك أن أمثال هذه النتائج تحول دون الرقي، وتؤدي إلى السقوط والوهن، فهي مضرّة بالإنسانية، وهي لهذا مردودة باطلة، وأن تفكير جميع البشر ينبغي أن يؤدي إلى نفع الإنسانية وتكاملها واعتلائها. وهذا لا يكون إلا بالأمل وما يتولد منه، من السعي المتواصل، والاعتماد على النفس اعتماداً معقولاً معتدلاً.

بيد أننا إذا تصدينا لمناقشة هذه المسألة مستمدين من الطبيعة، ومن معاني الحوادث الكونية، رأينا العقل البشري يصل إلى اليقين في كثير من المواضيع، وإن كان لا يستطيع أن يتخلص من الشبه في كثير من الأمور؛ لأن قابلية حواسه محدودة، ولأنه عاجز عن الوصول إلى بعض الحقائق عجزاً تاماً. فلا محل إذن لاختلاف المسالك، وما ينشأ عن اختلافها من الأخطاء والسيئات. ونوضح هذه القضية ببعض الأمثلة، كالرؤية التي تعتبر أول نبراس للعلم وأول دليل له:

إن الراصد لا يستطيع أن يميز ما هية الشبح الذي يراه بعينه على بعد ألفي متر في بادي الأمر؛ لكنه بعد أن يميز حركته، يحكم بأن هذا الشبح إما ذو روح،

وإما مادة يحركها ذوروح ، وكلما قصرت المسافة أمكن تعيين نوع هذا الشبح .
ثم أمكن بالنظر إلى ثيابه تعيين طبيقته ، وإذا ما وصل إلى قرب ثلاثين أو عشرين
مترا ، أمكن تشخيصه ، وربما عرف الراصد أنه صديق من أصدقائه . إذن يتقدم
الإنسان من الجهل إلى الشك ، ويتدرج شكه حتى يزول ، فيصل إلى اليقين^(٢) .

إن السفينة التي تتباعد من الساحل تصغر شيئا فشيئا حتى تصبح نقطة ، ثم تغيب
فلا يراها البصر . فإذا استعملنا حينئذ منظارا مقربا مكبرا قويا ، أمكننا أن نرى
السفينة مدة أخرى ، حتى تغيب كرة أخرى عن أبصارنا بجسمها وبأعمدها . فإذا
ابتعدت السفينة التي نرصدها ، حسب ارتفاعها وارتفاع مرصدا ، نحو خمسة وعشرين
أو خمسين كيلو مترا ، لا يمكننا أن نرى منها شيئا ، وإن استعملنا أقوى المناظير ،
لأن كروية الأرض تحول دون الرؤية . بيد أنه لا يشك أحد أن كثيرا من
السفن تسير وراء الأفق المرئي ، ولا يصعب على أحد أن يطمئن إلى ذلك بطريق
الاستدلال . إذن يحصل اليقين بالاستدلال فيما لا يدرك بالحواس .

إن البصر السليم لا يمكنه أن يميز واحدا من عشرة آلاف من المتر . فإذا
استعمل الإنسان الميكروسكوب أمكنه أن يميز ما هو أصغر من ذلك من الجراثيم
بأشكاله . ومهما ارتقت هذه الآلة لا يمكن تمييز المواد التي تكون أصغر من
الميكرون (وهو واحد من مليون من المتر) لأن أمواج الضوء — وهو الواسطة
الوحيدة للرؤية — هي بين $\frac{1}{4}$ و $\frac{1}{2}$ من الميكرون ، ولا يمكن الضياء أن يميز
الأشياء التي تكون أصغر من أمواجه — مع أنه من الثابت طبيا وجود أحياء أصغر
بكثير من ذلك ، لأن تأثيراتها المضرّة أو النافعة للجسم الإنساني محسوسة ، ومن
الممكن تكثير هذه الأحياء بالتناسل ، أو تقلييلها بالأصول الطبية ، دفعا لضررها . إذن
فوجود هذه الأحياء ثابت بالتحقيق من آثارها ، في حين أن رؤية أشكالها وتمييز
أجسامها من المستحيل .

ثم إن الرجل الذي يسير ليلا في مدينة مظلمة أو غابة أو صحراء ، قد يصادف

من الأشياء ما يخطئ^١ فهمه بل يخيفه . ولكن إذا حافظ هذا الرجل على رَباطة جأشه وقوة أعصابه سلم من الخوف ، وسلم من الخطأ . وإذا ما سار الإنسان بواسطة سريعة على حافة غابة ، رأى أقرب الأشجار تتحرك في اتجاه معكوس ، ورأى بعدها عنه تسير في اتجاهه .

يبد أن أمثال هذه الأغلاط الحسية لا تدل على أن كافة معلومات الإنسان ومحسوساته كاذبة غير حقيقية .

كان الاعتقاد السائد إلى عهد قريب أن الكواكب ثابتة . ولكن دلت الرصدات الدقيقة المتوالية ، والاكتشافات العلمية الجديدة المتنوعة ، على أن الكواكب تتحرك بسرعة تختلف ما بين عشرين كيلو متر في الثانية إلى مئات الكيلومترات ، بل إن بعض السحابيات تتحرك بسرعة تصل إلى ألفي كيلو متر في الثانية ، لكن بُعد المسافة يحول دون شعورنا بذلك في وقت قصير ، وقد تبين أن مجموعتنا الشمسية تقترب من نجم النسر الواقع في برج شيلياك بسرعة عشرين كيلو متر في الثانية ، أى بسرعة ٧٢ ألف كيلو متر في الساعة . لكن جميع هذه الحركات ، وكل ما يحتمل كشفه من الحادثات ، ليس إلا عبارة عن تبديل بعض الكواكب مواقعها بالنسبة لبعضها ، وليس من الممكن تمييز الحركة المطلقة أو السرعة الحقيقية لها في البعد المجرد ، لأن إدراك البشر ، أصاب أو أخطأ ، هو نتيجة نسبة وقياس . فإذا وصل الأمر إلى المطلق وقف الإدراك . وقد أخفقت جميع التجارب التي وقعت لتقدير السرعة الحقيقية للأرض في الفضاء بالاستفادة من سرعة الضوء ، بل أثبت الحكيم الرياضى الشهير آينشتين أن هذا الإخفاق نشأ من كون سرعة الضوء ، وهى الواسطة الوحيدة للمشاهدة والرصد ، أعظم سرعة في العالم ، فمن المحال رصد سرعة أعظم منها^(٣) .

ينتج من هذه الأمثلة التي أوردناها عن الرؤية والتي يمكن تطبيقها على سائر الحواس^(٤) :

أولاً — أن علم البشر يصل إلى اليقين بطريق المشاهدة والحس والفكر والاستدلال . وثانياً — أنه يمكن الوقوع في الشك في بعض الأحوال ، كما يحتمل خطأ الحسيات والمعلومات أحياناً . وثالثاً — أن من الممكن مع هذا بالبحث الدقيق ، والدرس العميق ، وبالكشف الجديد ، توسيع نطاق العلم البشرى ، وإزالة الشبهات ، وتصحيح الأخطاء . ورابعاً — أن علم البشر مع هذا وإدراكه محدودان بنطاق طبيعي^(٥) ، فلن يصلا إلى اللانهاى وإلى المطلق .

قد يُظن أن المفكرين الواقفين على العلوم الرياضية والطبيعية لا يترددون في قبول هذه الآراء والأفكار وتصديقها ولكن لم يكن الأمر على هذا النحو في المناظرات القديمة الفلسفية ، التي كانت تتناول مُثلاً متعارفة نحو «الضدان لا يجتمعان» يُبنى عليها كثير من الأقيسة المنطقية، حتى يُستنتج منها أن «الشك واليقين لا يجتمعان» . ويُوقف بذلك عند اليقين الكامل أو الشك التام . وكذلك يستدلون ببعض الأغلاط الحسية المتولدة من نسبية الحركة ، على أن جميع الأشياء عبارة عن أشكال وصور حادثة في الخيلة . وبالمجلة فإنهم يَغضُون الطرف عن الشئون والأحوال الطبيعية ، ويسترسلون في الألاعيب اللفظية ، التي تولدت منها جميع الاختلافات والمجادلات . نعم إن سقراط وأمثاله من أكابر المفكرين قد وصلوا إلى الحقيقة في المجلة ، إلا أن ذلك الأسلوب من المناظرة قد بقي بجميع نقائصه إلى يومنا هذا .

لا جرم أن الاختلافات الكلامية التي وقعت في أوائل العصر العباسى عند ترجمة الكتب اليونانية ودرسها ، كان لها أثر مفيد في إزالة كثير من الشكوك ، إلا أنها فتحت السبيل لكثير من المنازعات المذهبية ، وأدّت إلى ظهور الجبرية والمعتزلة وغيرها من أنواع الفِرَق . ولهذا تَجَنَّبَت المناظرات الفلسفية على قدر الإمكان على الرغم من اتساع المجال لها في هذا الكتاب .

قد يحمل البعض تجاسرى على البحث فى المسألة التى خصصتها قبل سطور بفحول العلماء الكاملين ، وأكابر الحكماء المتبحرين ، على عدم معرفتى قدرى ؛ فأسارع إلى الاعتراف بأننى لا أدعى الاختصاص بعلم وفن من العلوم والفنون التى تتعلق بهذا الكتاب ، ولكنى أخطب المبتلىين بالجهل المركب ، لأبين لهم أن المسائل التى يتصدون لنفيها وإنكارها بكل استخفاف ، أو يتخذونها أساسا للعن الغير وتكفيره ، هى من المسائل التى عجزت دونها الأفهام ، قاصدا إرغام أنف المنكرين والمكفرين^(٦) .

وأدعى أنى أثبت فى كتابى هذا ما لقنه دين الإسلام وعلمه ، من وجود الخالق المتعال ، الله ذى الجلال ؛ ومن وحدته ، بالبراهين الرياضية اليقينية . وأما العقائد الدينية الأخرى ، فأثبت أنها ليست بعيب ولا محال ، قياسا على دقائق الخلقة ومعجزاتها ، التى تعلق بها علم البشر ، أعنى أثبت إمكانها ، بل نفعها ولزومها .

موضوع الكتاب :

إن موضوع الكتاب فى الجملة ، بيان أن الحقيقة الدينية غير مغيرة للعقل والحكمة ، وأن بعض الاختلافات المذهبية نجم عن عدم إدراك العظمة الإلهية كما يليق بها . بيد أنى سأخصص بالذكر والبحث الدين المبين الإسلامى .

أولا — لأننى ، والحمد لله ، أدين بالإسلام ، ولأن ما يسوقنى إلى تحرير هذا الكتاب ، هو ما أشعر به من التأثير والاضطراب للتعدي على الديانة الحنيفية السمحة تعديا إلحاديا يؤدى إلى تشتيت الشمل . وثانيا — لأن الموسويين يعترفون بأن التوراة قد ضاعت مرارا^(٧) ، وأما الإنجيل فقد كتبت مئات من الكتب بدعوى أنها ذلك الكتاب المقدس ، ثم هبط عدد هذه الكتب إلى أربعة وخمسين ، ثم اختاروا منها أربعة فى الكنائس ، والحقيقة لا تتعدد ؛ فلا شك إذن أن متن هذا الكتاب مشكوك فى صحته . وأما القرآن الكريم فضبوط على النحو

الذى أنزل على نبينا عليه الصلاة والسلام وأملأه وليس في صحته أدنى شك، ولا يمكن أن يقابله أحد الخصوم بالاعتراض . وإذن فالدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى له مسند صحيح^(٨) . وثالثا — لأن الأحكام والعقائد الدينية فى الديانة الموسوية والعيسوية يلزم قبولها بدون مناقشة وتدبر، لأنها ضرورة مذهبية ، بحيث يقول المؤمن بها « أومن بهذا لأنه محال » „Credo quia absurdum“ كما أن ما يقرره القناصل (مجالس الرهبان) وآباء الدين والبابوات يعتبر من الأحكام المقدسة الواجبة الاتباع ، ثم يجتهد الرهبان لتقوية عقائدهم الدينية ، كما أن الحكماء والمتفنيين الذين نشؤوا من بينهم يسعون فى زماننا لتأييد العقائد المسيحية بالأدلة والأقضية القريبة من العقل والعلم ، ولكن بعض العقائد المسيحية لا تتحمل مناظرة علمية ، فإنها لا يمكن أن تقبل إلا كما قال سذت أوجوستن « أومن بها لأنها محال » أى بلا مناظرة ، أى بالإكراه^(٩) .

هذا فى حين أن الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة تبين « أن لا إكراه فى الدين » وأن الإيمان والاعتقاد يطلبان التعقل والتفكر ، فالبحث العقلى مقبول فى الدين الإسلامى ، والاتفاق معقود على أن الإيمان الاستدلالى، أى الذى يكون بعد اقتناع العقل ، راجح على الإيمان السماعى التقليدى ، بل إن بعض المذاهب يشترط قيام الإيمان على الاستدلال العقلى . فالدين الإسلامى هو الدين الوحيد الذى يقبل البحث والنظر العقلى .

ومع هذا فإننا نتمثل بقوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم » ، وندعو أهل الكتاب ليتحدوا معنا حول كلمة التوحيد بكل إخلاص .

تفهير

قد علقْتُ حواشى على متن الكتاب، وهى لفائدة زائدة ، فأرجو من القراء الكرام ، إن ساعدتهم الوقت ، أن يقرءوها ، وإلا فليكتفوا بمطالعة متن الكتاب ، فلن يفوتهم شئ من المقاصد الأصلية .

الباب الاول

العقائد

١ - آمَنتُ بالله

أول أركان الإيمان ، أى أوّل العقائد الأساسية الإسلامية ، الإيمان بالله تعالى خالق كل شيء . والإيمان : تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان . الإنسان منذ بداية خلقته يفكر فى أمر تكوينه وتكوين العالم ، ويتقصّى أسرارها . وإذا صرفنا النظر عن الفروع والتفاصيل ، ألفينا أنفسنا إزاء ثلاث عقائد ومذاهب نشأت من هذا التفكير :

الأولى ، أن كافة المكوّنات خلقها خالق أزلى قادر حكيم مطلق . وهذا المذهب مذهب الإلهيين والروحانيين ، كما هو رأى أكثر المتفكرين والمتفنيين . وهذا الرأى الملائم للقواعد الدينية فى مبحث التكوين ، ملائم كذلك لمشاهدات الإنسان وتأملاته ، وما ألفه من الإدراكات الوجدانية الحادثة على البحث عن مؤثر لكل أثر . الثانية ، نظرية الملحدّين أو الماديين . ويقول أصحابها إن المكوّنات منتشرة منذ الأزل فى الفضاء ، وإن للمادة والقوة أو الجوهر الأصلى الذى يجمعهما فى نفسه ، ويتعذر إدراك أصله وماهيته ، قد وصل إلى ما وصل إليه الآن بتأثير الحركة الدّفعية المتمادية ، التى تقع من أجزائه الفردية ، بما هى حاضرة له طبعاً من الخواص ، كالجذب والدفع ، وكانت النتيجة امتزاج الأجزاء الفردية وتشكلها وتطورها على النحو الذى نراه الآن . فهؤلاء ينكرون الخالق القادر العليم الحكيم . وهم بتفكيرهم على هذا النحو ، واعتقادهم أنهم وجدوا ما يعتمدون عليه لإثبات دعواهم ، يعتقدون أن عقولهم التى يفتخرون بها ، ليست إلا أثراً لامتزاج مادة غير

مدركة وتركها بقوة غير عاقلة ، أو أجزاء جوهر جامد ، امتزاجا مبنيا على الاتفاق فحسب .

بيد أن هؤلاء يعجزون عن بيان حقيقة المادة والقوة ، أو الجوهر الأصلي الذى يجمعهما ، كما يعجزون عن إيضاح ماهية السكون والحركة ، و يقيمون نظرياتهم كلها على فرضيات عندية ابتدائية ، أى أننا حينما نرى أهل الدين يؤمنون بالخالق المتعال ، ويجمعون كافة ما يشعرون به إزاء الخلقة من الخيرة فى حكمته ، نرى للماديين يهيمون فى الموهومات ، ويضربون فى مهامه المجهولات .

ويقف فى وجه هؤلاء منذ عرف التاريخ أمثال هذه الملاحظات الفلسفية ، أولئك الذين يذهبون مذهب الروحانيين ، الذين يقبلون للخلقة سببا أزليا مدركا ، وأولئك الذين يذهبون مذهب الوجوديين ، الذين سنذكرم فيما بعد ، أعنى هم الذين يعتقدون أن كافة الموجودات عبارة عن تجليات كل مطلق ، عدا ما بين هؤلاء الملحدن الماديين من أفكار مختلفة متضادة ، و فرق متعارضة ، ظهرت فى زمن واحد ، و بيئة واحدة ، وكان من أثرها أن لم يفز المذهب المادى فى أى وقت وفى أى مكان ، بثقة عامة وقبول عام ، على النحو الذى فازت به الأديان .

فنظريات الماديين فى موضوع الخلقة لا تفيد اليقين بأى وجه من الوجوه ، فإن من المعلوم أن أقرب ما وضعه البشر من اليقين فى ساحة العلوم ، علم الرياضيات ، وعلم الطبيعة والكيمياء والهيئة تدعم أكثر أحكامها بالرياضيات والتجارب الدقيقة ، والحوادث الكونية ، فهى — كما بلغت أخيرا من الرقى — تعتبر فى أكثر أحكامها من العلوم اليقينية . والفلسفة ، وإن كانت تستند فى دعاويها وأحكامها على الملاحظات المستخرجة من هذه العلوم ، تستند فى أحكامها الخاصة بمبحث الوجود والخلقة ، إلى الأقيسة والاستدلالات ، ولا تستند إلى التجارب والحسابات الصحيحة . ومع أن البحث المستمر ، والاكتشافات المتوالية ، تؤدى إلى تغيير فى الفرضيات والنظريات التى تستند إليها هذه العلوم ، فأرباب العلم متفقون غالبا ، فى حين يختلف

الفلاسفة ، ولا يزالون منقسمين بالتضاد الكلى بين الإلهيين والماديين .
 وخلق بالذكر أنه كلما اتسع نطاق العلوم ، وانكشفت دقائق الطبيعة
 وأسرارها ، فقدت فلسفة الماديين مكانتها . وهؤلاء أكابر رجال العلم الذين خدموا
 الإنسانية باكتشافاتهم العلمية أكبر الخدم ، من أمثال « نيوتن » و « باستور » وغيرهما
 من مشاهير الحكماء يعتقدون جميعا ويؤمنون بقوة خالقة مدركة متعالية عن إدراك
 البشر ، أو يعتقدون أن للخلقة سرا لا يدرك ، ويعربون عن ذلك المعنى بعينه .

وهذه الكلمة التي قالها « هرشل » من مشاهير الحكماء في القرن الثامن
 عشر لآمن تلك الكلمات التي تتأيد بمر الزمان : « إنه كلما اتسع نطاق العلوم
 تحققت وكثرت الأدلة على وجود حكمة خالقة قادرة مطلقا . وعلماء الأرضيات
 والهيئة والطبيعات والرياضيات يهبطون بمساعيهم واكتشافاتهم كل ما يلزم لإنشاء
 معبد العلوم ، إعلاء لكلمة الخالق » .

وأما أكثر من صادفت من المفكرين فقد كان إنكارهم سماعيا وتقليديا ، فهم
 يتعلمون بعض أقوال الفلاسفة ، ويتخذونها سندا لدعاويهم ، دون أن يدرسوا قواعد
 مذاهبهم ونظرياتهم ، بل دون أن يطالعوا خلاصة وافية لمؤلفاتهم . وخلاصة قولهم
 « أنهم لا يؤمنون بما لا يرون ولا يفهمون » . أو « إن نقول علماء الدين لا توافق
 العلم » . في حين أنهم لا يعرفون من الفنون شيئا ، ولا يدركون من أسرار الدين
 شيئا ، ولا يستطيعون أن يقيسوا الموضوعات العلمية والعقائد الدينية قياسا عادلا .
 بيد أنه ما دام هؤلاء الناس يعتبرون أنفسهم من جهاذة الفنون ، فإني سأعتمد في
 دفاعي على الأدلة العلمية والعقلية ، على قدر استطاعتي ، وسأستشهد بأقوال أكابر
 السلف والمعاصرين من الحكماء .

عقيدة فيلسوف اليونان في الله

من المعلوم أن سقراط وأفلاطون وأرسطو وإكسنتوفان الذين يعتبرون آباء

فلسفة الغرب ، كانوا بصرف النظر عن الفروع ، يعتقدون في إله واحد ، ذاته وحقيقته فوق الإدراك . وإني أنقل هنا من تاريخ التصوف للأستاذ محمد علي عيني بك ، بعض آراء سقراط عن تلميذه أفلاطون : « ... هذا العالم يظهر لنا على هذا النحو ، لم يُترك فيه شيء للمصادفة ، بل كل جزء من أجزائه متجه نحو غاية ، وتلك الغاية متجهه نحو غاية أعلى منها ، وهكذا يتم الوصول إلى غاية نهائية منفردة وحيدة . من أين نشأ هذا النظام الكامل في تفرعاته ، المخوف بالعظمة والجلال من كافة نواحيه ؟ ليس من الممكن أن يُحمل ذلك على المصادفة ، فلو أمكننا أن نقول إنه نشأ من تلقاء نفسه ، لصح لنا أن نقول إن ألواح « پوليكليت Polyclète » و « زونكريس » حدثت من تلقاء نفسها . وإذا ما نظرنا إلى أن العناصر التي تحتوى عليها الكائنات كثيرة إلى درجة لا يمكن أن يحددها العقل ، كان من المحال أن نحمل وجود كل ذلك على المصادفة . فلا بد إذن من وجود عقل أعلى ^(١٠) ... وهو الصانع الوحيد ، لأن الطبيعة أثر يتجلى فيه الاتحاد الدال على وحدانية الصانع ، الذي ينفذ حكمه كنفوذ الفكر في الحال بدون أى خطأ . وهو حاضر غالب (في العقائد الإسلامية : عالم قادر) ومع هذا فمن المستحيل إدراكه بالحواس ، فهو كالشمس التي تلمس جميع الأبصار ، لكنها لا تبيح لأحد أن ينظر إليها ... »

هذه الكلمات التي نطق بها سقراط ، والتي تلائم الإدراك الفطري البشري ، لها قيمة علمية منطقية ، سنوضحها فيما يلي :

طرق المعرفة

من الضروري الاعتراف بأن الأحوال والأفكار التي تتبادر للعقل والوجدان ، إما عن طريق الذوق ، أو الحس الطبيعي ، أو بواسطة القواعد الكلية المستنبطة من المشاهدات المتوالية ، هي حقائق ؛ فإن لم يُعترف بذلك لم يكن تَمَّة مجال

لوضع مبدأ يُبْتَنَى عليه البحث العقلى . فالفكر الداعى إلى البحث عن مؤثر لكل أثر ، وعن محوّل لكل حال ، وبالجملة عن علة لكل شىء ، يلزم أن يكون حقيقة . إن الأسباب القريبة المؤدية إلى حدوث المكوّنات على العموم أو على الانفراد ، تمكن رؤيتها ، ويمكن فهمها ، ولكن يدرك الذهن أيضا بطريق القياس ، أن لهذه الأسباب أسبابا أخرى . فمثلا أقرب الأسباب للطفل أبواه ، وأقرب الأسباب لحدوث النبات ونشأته البذر والتراب . بيد أن وجود هؤلاء يتطلب تسلسل الآباء والأمهات والبذور ، ويستلزم وجود التراب . فمن أين ينشأ هؤلاء ؟ ثم لا بد من وجود قوات وعوامل ومواد كثيرة ، كالهواء النسيعى للتنفس ، والطعام والشراب للتغذى ، وحرارة الشمس وضياؤها وغير ذلك ، مما يعتبر لازما وملزوما لحصول الحياة . وإذا درسنا المسألة درسا عميقا من الوجهة العلمية ، كثر عدد هذه العوامل وتسلسل ، ويبحث العقل عن مؤثر آخر لكل منها . وقد ينتهى استقصاء بعض من هذه العوامل والمؤثرات إلى الأرض والشمس . وإذا قبلنا ذلك وعلمنا أن الملايين من أمثال الشمس وتوابعها ليست أزلية أبدية ، بل حادثة آفلة فانية ، وثبت لنا ذلك ثبوتا علميا ، وجب علينا إذن البحث عن المنابع التى حدثت منها هذه العوالم . لو قُبِلَت نظرية الحكماء التى تقول إن الشمس تحدث من تكاثف السحابيات نحو مركزها ، أو من الحرارة الشديدة التى تحدث من تصادمها^(١١) ، ومن نتيجة التفاعلات الكيميائية التى تستلزمها ، فإنه لابد للبحث عن عامل يسبب تشكل هذه الأجسام الغازية ، التى نرى أمثالها العديدة فى قبة السماء من ثلاثة عناصر بسيطة ، أى من توزيع وتركيب هذه العناصر فى الفضاء داخل نسبة وكثافة معينة^(١٢) .

أما النظريات الطبيعية والكيميائية الحديثة ، فتقول إن أتومات الـ « هليوم » والـ « نيليوم » تمتاز وتتركب بأتومات الإيدروجين مثنى وثلاث فصاعدا ، وعليه يفرض أن المادة تنتهى إلى عنصر واحد . وإيجاد جميع هذه المركبات من

عنصر واحد يحتاج إلى مصوّر ولا شك . ولو قبل ما يقال موافقا لأحدث الاكتشافات العلمية ، من أن المادة تحصل من تكاثف القوة^(١٣) ، فإن العقل لا بد أن يبحث عن متصرّف في هذه القوة ، وعن محوّل لها ، لتبديل ماهيتها . فإذا وصلنا هنا ، أى إلى القوة والأثير ، تبدلت سلسلة الأسباب ، وانتقلت إلى ماهية أخرى ، أى إلى شيء لطيف معلوم بآثاره ، ومجهول بكنهه وحقيقته .

وحيث إن كل ما يصل إليه الفكر والنظر من منشأ وعلّة بين المشهورات والمحسوسات ، حادثّة ومتحوّلة ، ومحتاجة إلى علّة أخرى ، فمن الضروري أن يتحرى العقل والوجدان أسبابا أخرى فوق المشهودات والمحسوسات . وهذه الأسباب الغيبية ، وإن توالّت إلى درجة ما في محيط الأثير وعالم الغيب ، فلا بد لها أن تسير سير سلسلة العلل الظاهرية ، وأن تنتهى إلى علّة أصلية أولى ، لأن السلسلة تنتقل من الفروع إلى الأصول ، كما تنتقل من التركيب إلى البساطة ؛ ومن السكثرة إلى القلّة ، فيلزم إما أن تتصل بالواحد ، أو تنتهى إلى الصفر . وحيث إن العدم لا يمكن أن يكون علّة الوجود ، فمن الحال احتمال انتهاء سلسلة الأسباب إلى الصفر ، ومن الضروريّات العقلية اتصالها بسبب أول ، وموجود بذاته ، وهو «سبب الأسباب» .

قد يقال بإزاء ذلك ، إنه مادام كل شيء مرتبطا بعلّة ، فلا يقبل العقل وجود علّة أولى غير معلولة ، فلا بد إذن من استمرار العلل والأسباب بلا نهاية . ولكن الأشياء التي يتحرى الإنسان علل حدوثها هي المسكونات الحادثة الفانية . أما العلّة الأولى وما هيّتها غير ماهية المسكونات ، فهي أزلية وبعيدة عن كل تغيير . إن الإنسان الذي يرى كل شيء حادثا وفانيا ، لا يمكن أن يدرك الأزلية بسهولة ، ولكن اللانهاية أيضا فوق إدراك العقل كالأزلية . فالقول بتسلسل لانهاى لا يمكن أن يقنع العقل ، ولا يفيد في حل المسألة . ثم إن العلّة كما أوضحنا فيما سبق عند وصولها إلى الوحدة ، وغاية البساطة ، ينبغي ألا تتغير ، أى أن تحافظ على

ما هيئتها ؛ فمن العبث إذن أن تتصور هوية تتسلسل بعينها ، وتتعاقب بصورة الحدوث والفناء على الدوام بدون تغير^(١٤) .

والعقل البشرى يرى أن حدوث شئ من العدم فى لحظة مفروضة بلا علة من المحالات . فلا شك أنه بعد رفض جميع الاحتمالات التى يحكم ببطالانها حكما قاطعا ، لا نرى مناصا من قبول المسبب الأول الأزلى ، والتصديق به ؛ مع عدم إدراك كنهه . نعم إن هذا الاعتقاد اعتراف بالعجز عن الإدراك ، لكنه برىء من مناقضة الحقائق التى تدرك .

وإذا استقصى القارىء ما بسطنا من الاستدلالات فى هذا الكتاب ، رأى أن القضايا والفرضيات التى رُدَّتْ ، هى باطلة عقلا وعادة ، وهى من العبث والمحال . وأما الكيفيات التى لم يصل إليها العلم البشرى ، فلا يمكن رفضها جُرْافا . فمثلا إذا قيل لقروى قدم إلى إستانبول للكسب والتجارة : إن قريته المكونة من عشرة بيوت قد نمت وكبرت فى سنة واحدة بفضل عمدة القرية ، حتى أصبحت أكبر من إستانبول ، كان من حق المخاطب بهذه الرواية تكذيبها ورفضها . وإذا قيل إن فى الدنيا مدينة تسمى نيويورك ، يبلغ عدد سكانها عدد نفوس تركيا بأجمعها ، وإنها تحتوى على مبان عالية يبلغ ارتفاع كل منها أربعين أو خمسين طبقة . فلا يصح تكذيب هذه الرواية ورفضها ، لمجرد عدم العلم بهذه المدينة ، أو عدم رؤيتها . وقد بينّا فى مقدمة هذا الكتاب أن العلم البشرى محدود بمحدود طبيعية لا يستطيع أن يقتحمها ، وأن فى هذا العالم موجودات لا يمكن الاعتقاد بوجودها إلا بالاستدلال من آثارها ، وبسطنا على ذلك الأمثلة المستمدة من الطبيعة .

مثال لربطها مسألة الخلق

بيد أنا نبسط هنا مثالا آخر توضيحا لمسألة الخلق على قدر الإمكان . من المعلوم أن عقارب الساعات تتم دورها فى أزمنة معينة ، بواسطة تروس

أو دواليب ذوات أسنان متداخلة ، تتحرك بحركة متسلسلة بتأثير الزنبرك . وهذا التركيب على صغره تشاهد فيه سلسلة أسباب ، ثم تشاهد أسباب متوسطة هي التروس التي ترى من جنس واحد ، في أبعاد مختلفة ، في حين إن الزنبرك هو المحرك ، والرقاص هو المنظم في شكل آخر ، وطبيعة أخرى .

هذا مثال قريب نلتبس به إعطاء فكرة عن الأفلاك ، ولكن لا تنتهي المسألة بذلك ، لأن الساعة لم توجد من تلقاء نفسها ، بل لها صانع ، وهذا الصانع هو ساعاتي ، وإنسان في ماهية غير ماهية مصنوعة . وهذه العلاقة التي بين الصانع والمصنوع يمكن أن تعطينا فكرة إجمالية عن العلاقة التي بين المسبب الأول وعالم الكون ، بشرط تكبير الفرق بين الحدين المتناظرين إلى اللانهاية . إن النوع البشري ، لكونه حائزاً تلك المواهب الطبيعية التي نسميها العقل والذكاء ، يميل فطرة للبحث عن حقيقة الخلق ، وهو قادر على الاستدلال على وجود الخالق والإيمان به ، ولكن لا يمكن أن يتجاوز في فهم حقيقته ما تفهم الساعة من حقيقة الساعاتي .

إن العقل السليم بتصديقه بالقيوم الأزلي الخارج عن المكوّنات ، مسبباً أول ، يروى ما يشعر به من النعش إلى استقصاء سر الخلق ، ويدفع كل ما يرد بالخطر من أنواع الشبه والتناقضات ؛ ومهما قال الفلاسفة ، فإن تصور مكوّن للمكوّنات على غير ماهيتها ، أمر لا يخالف العادة . والأمر أن وجوداً أزلياً على غير ماهية الأشياء ، ينبغي أن يكون فوق إدراك الإنسان الذي يعتبر فانياً من جهة حياته الدنيوية .

وهذه النتائج الفلسفية موافقة لتعاليم القرآن الكريم ، الذي يقول : « ليس كمثل شيء » . ويقول : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » ، دالاً بذلك على أن الله تعالى لا يماثل الأشياء ، وأنه إله واحد حيّ سرمدي . ويقول القرآن الكريم كذلك : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » ، دالاً بذلك على أن العلم

البشرى قد قدرته المشيئة الربانية وحددته ، وأن الإنسان إنما يقدر على إدراك الوجود الواجب ، واسكنه يقصّر إدراكه عن إدراك كنه ذاته .

نستخرج من هذه الملاحظات العقلية :

أولاً ، أنه لا بد من علة أولى ، أو مسبب أول ، لحدوث الكائنات . وحيث أنه ليس في العدم قوة العلية ، فوجود هذا المسبب الأول ضرورى ، فهذا المسبب الأول هو بالتعبير العلمى واجب الوجود .

ثانياً ، المسبب الأول موجود بالذات ، وأزلى ، وإلا يلزم أن يظهر من العدم ، وهو محال وعبت .

ثالثاً ، لا يكون المسبب الأول مقيدا بقيد أو شرط أو علة ، لأن تقدم هذه القيود والشروط عليه ينافى أزليته ، ومن العبث أن يخلق لنفسه قيودا وشروطا من بعد ، وإذن فالمسبب الأول مطلق .

رابعا ، من الطبيعى أن تؤثر العلة في المعلول ، والتأثير منوط بالقوة ، وإذا ما درس الإنسان عالم الخلقة ، وتدبرها على قدر إدراكه ، واعترف بمسبب ومؤثر لحدوثها ، فإنه لا يتحجر دليلا لإثبات قدرتها غير آثارها ، أى الكائنات ، وإذن فالمسبب الأول قوى قادر مطلق .

وهناك نكتة مهمة في مثال الساعة الذى أسلفنا :

من البديهي أن الساعاى لا يمكنه إيجاد الساعة بمجرد جمع قطع من الفولاذ والنحاس الأصفر كما تتفق ، وربط بعضها ببعض كما يتفق ، بل لا بد له من تعيين حجم الزنبرك وشكله وقوته وأبعاد الرقاص ، وقطر التروس (الدواليب) وثخانتها ، وأبعاد أسنان التروس على حساب صحيح ، لما بين الأقسام المتنوعة من نسب ، وهذا يستلزم أن يكون الساعاى من أرباب الخبرة وأصحاب المعرفة . فهل ترى أن أمر خلقة الكائنات كذلك يُبتقى على علم وحساب ؟ وهل المسبب الأول ذو علم وسيع وحكمة بالغة ؟ ثبت هذا الأمر فيما يلى :

لقد آمن الفيلسوف الشهير «ديكارت» بوجوده، بعد أن كان يرى الموجودات كلها بعين الشك، فقال: «أفكر فأذن أنا موجود». ثم إنه لم يقف عند ذلك، ورأى أن هذا التفكير يدل على أن له واهبا حقيقيا، وأن ذلك الواهب منبع لا نهائي، ووجود كامل أزلي، واستدل بذلك على أن العالم موجود. ويفهم من هذا الكلام أن الحكيم الشهير يتصور أن وجود الكائنات يثبت بالتفكير، وأن موجدَهَا ذو شعور، أى ذو حكمة غير متناهية. وكما أن الصانع والمصنوع ليسا من ماهية واحدة، كذلك الواهب والموهوب لا يلزم أن يكونا من ماهية واحدة. وحيث إن خزانة علم الواجب الحقيقى وحكمته أعلى وأكمل الخزائن، فإنها تختلف عن جزء الذكاء الذى يتجلى فى الموجودات، ولن يتصور أى مفكر أن الواهب العقل والحكمة هو وجود جامد.

رأى لابلاس فى المسبب الأول

إن لابلاس المعتبر من أكابر الحكماء فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، والمعدود من شيوخ الرياضيين والفلسكيين على الأخص، يقول بعد إيضاح مجموعة الشمس: «إن النظام الخير للعقول، المشاهد فى حركات الأجرام التى تتألف منها المجموعة الشمسية، لا يمكن أن يحمل على التصادف. بل التصادف كلمة لا يصح النطق بها فى لغة العلم. إن التصادف معدوم ومحال فى هذا العالم الذى نرى فيه كل شيء خاضعا لقوانين الموازنة وقوانين الحساب، التى عينتها إرادة غيبية، وحكمة بالغة. وما الشيء الذى ندعوه التصادف إلا محصل القوى الغيبية التى لا نعلم عن صورة تأثيرها شيئا، بل لانعلم عن وجودها شيئا، فى حين أنها تحفل حولنا. وبناء عليه ليس من الممكن حمل هذا النظام الذى نراه فى المجموعة الشمسية على التصادف، ولا بد من الاعتراف بوجود سبب أصلى عام مُنظَّم لهذا النظام». ويبحث الحكيم المشار إليه فى كتابه «نظام العالم»، فى موضوع حركات السيارات وتوابعها، وينتهى إلى قوله: إن اعتبار هذا النظام من آثار التصادف لا يصح أن يقال إلا

بنسبة واحد في أربعة تريليونات . فإذا كان احتمال التصادف مستبعدا إلى هذه الدرجة ، وجب الاعتراف بأن كون الخلق تحت تأثير التدبير والإرادة على نسبة أربعة تريليونات ($\frac{1}{4} \times 4$) من الاحتمالات ، إلى احتمال واحد . وأقرب العلوم لليقين علم الرياضة فإن لم يعتمد عليه لم يكن مجال للشروع في البحث .

إثبات الوجود المطلق

قد يُستغرب التصدى لإثبات الوجود المطلق بقياس ونسبة ، لكن كافة المدرّكات البشرية ، إنما تحصل بالقياس ، فصحة كل فكرة وبطلانها أيضا إنما يستدل عليهما عقلا بالقياس . بيد أنه كلما زاد التعق في المسألة اكتسبت قيمة يقصر أمامها العقل ، فتزول النسبية ، ويثبت واضحا أن الخليقة خاضعة لتدبير وتصرف أزلى . ويحسن أن نقف عند حساب لا بلاس قليلا ، لنعطى بعض معلومات مجمّلة عن المجموعة الشمسية .

إن السيارات الموجودة في المجموعة الشمسية تدور حول الشمس ، والتوابع المنتمية لكل سيار (الأقمار) تدور حول سياراتها متتبعات لمداراتها على شكل قطع ناقص ، وفق القوانين التي اكتشفها « كبلر » و « نيوتن » رصدًا وحسابًا . وحيث إن السيارات والأقمار كالشمس مالكة لقوة جاذبة ، ولذلك تؤثر بعضها في بعض تأثيرا متناسبا تناسبا معكوسا لمرّبع المسافة التي بينها ، فإن تحاركها يصيبها خلل متنوع ، ويؤدي تكرر ذلك الخلل وتراكمه إلى تغيير المحارك وسقوط السيارات على الشمس ، والتوابع على متبوعاتها ، أو إلى خروجها من المجموعة الشمسية ، أو تصادم بعضها ببعض ، وحدث أنواع المد والجزر والإعصار على سطوحها ، أو غير ذلك من الاختلالات والأخطار . وقد اهتم علماء الهيئة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بجميع هذه الاحتمالات الهائلة ، واستنتج لا بلاس بعد درس الجداول الرصدية المضبوطة منذ عشرين قرنا ، أن مجموعتنا

الشمسية مصونة من أمثال هذه المخاطر ، وبيّن أن التوازن حاصل — بالرغم من أنواع التذبذب والنموذج — من وقوع تلك الاضطرابات في صورة سلبية وإيجابية ، ومضرة ومفيدة .

وقد أمكن في الزمن الأخير وضع معادلة بالحساب التفاضلي ، لتعيين جوهر^(١٥) وسرعة ومسافة ثلاثة أجسام متحركة ، كالشمس والأرض والقمر ، بحيث يكون أحدها في المركز ثابتا جاذبا ؛ وأحدها مشوشا ، والآخر متشوشا . بيد أنه ظهر بعد ذلك أن الرياضيات العالية غير كافية لوضع دستور يضمن النظام والتوازن لأكثر منها . أما القدرة الفاعلة فقد عينت جسامه الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية ، وكثافتها ، وتثبتت أقطار مداراتها ، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة ، ولكنها حكيمة ، وعيّنت مدة دوران السيارات حول الشمس ، والتوابع حول السيارات بأدق حساب ، بحيث إن هذا النظام المستمر منذ تريليونات من السنين ، بل أكثر ، يستمر إلى ما شاء الله ، ما لم يظهر سبب خارجي .

هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه ، والذي يضمن باستمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يُعد ولا يخص من أنواع المخاطر المحتملة ، لا يمكن أن يُحمل على التصادف في نظر لابلان إلا باحتمال واحد في أربعة تريليونات . وما أدراك ما أربعة تريليونات ! إنه عدد مركب من كلمتين ، ولكن لا يمكن أن يحصى المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلا ونهارا على أن يعد في كل دقيقة مئة وخمسين عددا^(١٦) .

لقد كان المعلوم من حركات السيارات والأقمار في زمان لابلان عبارة عن ٤٢ ، وكان لا يتجاوز عدد السيارات الصغيرة المعلومه بين المريخ والمشتري أربعة ، والحال أن الرصدات الأخيرة دلت على أن أجزاء المجموعة الشمسية يتجاوز الألف . فإذا أُجريت عملية الحساب الاحتمالي المبني على ٤٢ حركة على ألف حركة ، بلغت نتيجة النسبة حدا لا يمكن أن يتصوره العقل . ثم إن هناك أمارات قوية على أن

بعض الكواكب الثابتة سيارات كسيارات الشمس ؛ والدليل على هذا أنه يشاهد في قبة السماء كوكبان أو ثلاثة من الكواكب المضيئة يدور بعضها حول بعض ، وما هي إلا من السيارات التي لم تخمد إلى الآن . وعدا هذا يوجد بعض الكواكب التي يضعف ضياؤها أحيانا . ويقول علماء الهيئة إن بعض هذه الكواكب يجري على وجهة تحولات طبيعية كيميائية ، أو أن جسمها مظلم أي سيارا قد حال بيننا وبين هذه الكواكب المذكورة . إن أمثال هذه الحوادث السماوية نادرة ، ولكن هذه الندرة الظاهرة نفسها تدل على الكثرة ، لأن حيولة جرم في جسامة الزهرة أو الأرض ، لا يمكن أن يقلل ضياء الكوكب في صورة محسوسة ، بل ينبغي أن يكون الحائل في حجم المشتري على الأقل ، أو أكبر منه ، وكذلك ينبغي أن يكون سطح محرك هذا السيار منطبقا على خط الشعاع الممتد بين الأرض والكوكب حتى يحول بينهما . لأنه إذا وقع انحراف بقدر واحد في الألف من الثانية بين سطح محرك سيار مفروض في أقرب مجموعة لنا ، وبين خط الشعاع الواصل يستلزم التباعد بينهما بقدر ٢٠٠.٠٠٠ كيلومتر ، وحينئذ لا يمكن السيار أن يحول دون رؤية الكوكب وتقليل ضيائه . على حين أن سيارات الكواكب في السماء يمكن أن تتحول سطوح محارها إلى تسعين درجة ، فيكون تحقق شرط الانطباق ضعيفا جدا . ورغم هذا فإن مشاهدة أمثال هذه الحوادث تدل دلالة قوية على أن كثيرا من الكواكب ، لها مواكب كواكب الشمس ، ومن جهة أخرى ثبت في نتيجة التحليل الطيفي ، أن من الثوابت ما هو في عُمر شمسنا ، ومنها ما هو أضوأ وأقدم منها ، ولا يمكن أن يُحمل ما يرى من النظام في حركات هذه المنظومات منذ مليارات وتريليونات من العصور ، إلا على قوة مدبرة أزلية ، كما هو الأمر في مجموعتنا الشمسية . بيد أنه كلما زاد عدد المجموعات زادت الاحتمالات ، لا في سلسلة عديدة ، بل في صورة سلسلة هندسية . وسأشرح هذه الكيفية لغير المتوغلين في الرياضة بمقال ربما لا يعتبر ممدوحا :

إذا أردنا مثلاً أن نسحب ورقة معينة من ٣٢ ورقة من أوراق اللعب ، كان احتمال سحب تلك الورقة واحداً في ٣٢ . ولكن إذا أردنا أن نسحب تلك الورقة من مجموعة أخرى قد أجيد خلطها لم يكن احتمال الفوز عليها بنسبة 2×32 أى ٦٤ ، بل كان الاحتمال $32 \times 32 = 1024$. فإذا أردنا أن نسحب تلك الورقة بعينها من بين أوراق يبلغ عددها ٥٤ بضم ٢٠ ورقات من جنس آخر ، كان احتمال الوصول إلى تلك الورقة 1024×54 أى واحداً في ٦٥ ألفاً و٥٤ ألفاً و٦٥ ألفاً (١٧) .

فإذا فرضنا وجود خمسة وعشرين كوكباً شبيهة بمجموعتنا الشمسية ، وقرية منها من حيث القدم ، في تجرّتنا المحتوية على المليارات من الكواكب ، وصرفنا النظر عن سياراتها الصغيرة ، وقبلنا أن احتمال هذا النظام الموجود بين كل منها هو بنسبة واحد في تريليون ، كان هذا الاحتمال لمخسة وعشرين كوكباً $\frac{1}{25 \times 12} = \frac{1}{300}$ (١٠) أى أن المقام في هذه النسبة يحتوى ٣٠٠ مرتبة ، ومدلول هذا الرقم لا يتصور في الخيال (١٨) ، فإذا كان هناك مليون من الكواكب التى لها سيارات كمجموعتنا الشمسية ، كان المقام في هذه النسبة مكوناً من اثني عشر مليوناً من المراتب ، وهذا ما لم يمكن تصوّره وتصويره بأى حال .

ولما كانت قبة السماء تتجلى أمام أبصارنا بعظمتها وهيبتها ، فإننا قد نكشف شيئاً من أسرارها بما يتعلق به علمنا من بعض قوانينها ، ونقف على نكت كهذه محيرة للعقول . بيد أن أمثال هذه النكت الدقيقة تتجلى حتى في أحقر الموجودات . ولا مشاحة أن دقائق الخلقة المتجلية في عالم الروحيات والحيويات ، أعلى بكثير من كل ذلك . وقد بينا في إحدى حواشينا السالفة كيفية تشكل ذرات الأجسام وقطر البروتونات في أتوم الإيدروجين ودور إلكترون ، حاملاً لكهربية سلبية حول هذا البروتون المحتوى على الكهرباء الإيجابية ، وقطر بروتون الذهب أكبر

من هذا بثمانى عشر مرة ، ويدور حوله خمسة عشر إلكترونات . ومع هذا قطر أتوم الذهب مع إلكتروناته يعادل عشرة آلاف أمثال قطر البروتون^(١٩) ، (ولا ينبغي أن يظن أن الأنوم مع توابعه شئ كبير ، بل هو ثلاثة من عشرة مليارات من المتر) . ونسبة القطر الوسطى لمدار السيار الأخير فى المجموعة الشمسية وهو نبتون ، يكاد أن يكون على هذا القدر بالنسبة لقطر الشمس [فقد كشف أخيرا سيار آخر أبعد من نبتون] .

يظهر من ذلك أن بعض هذه الأنومات الصغيرة بدرجة خارجة عن حدود التصور ، لها توابع متعددة كتوابع المشتري ، ولبعضها إلكترون واحد كالقمر للأرض . إذن فالأشكال والتركيبات التى نراها كلما تقدمنا نحو أعظم محسوساتنا ، واقعة كذلك فى أصغر ما تعلق به علمنا . « فاذهب وقس ما هو بحر الخليقة ! » . وكذلك فإن القوة المكنوزة فى هذه الأنومات عظيمة إلى درجة لا يتصورها العقل ، كما دلت على ذلك الكشوف والحسابات الأخيرة ، ويقول الأستاذ الحكيم جُستاف لوبون فى كتابه « تطور القوة » : إن القوة المكنوزة فى جرام واحد من المادة يعادل « ٥١٠ » بليون من الكيلوجرامترات [والكيلوجرامتر : هو القوة الفعالة الكافية لرفع الكيلوجرام من الثقل إلى متر] أى أن تلك القوة تعادل قدرة سبعة بلايين حصان بخارى [وكل حصان بخارى يعادل ٧٥ كيلو جرامتر] وقد حسب الحكيم الرياضى الفرنسى « بكرل » فى كتابه عن نظرية « آينشتين » أن القوة التى تستخرج من تحطيم جرام من أنومات المادة يمكنها أن ترفع ثلاثين مليونا من الأطنان (الطن يساوى ألف كيلوجرام) إلى ذروة برج إيفل [ارتفاعه ٣٠٠ متر] ، وهذا يعادل ٩ تريليونات كيلوجرامتر ، أى « ١٢٠ » بليون من الحصن البخارية ، وهذه القوة لا تصل إليها جميع البواخر والآلات البخارية الموجودة فى الدنيا كلها . وهذه المقادير ، بالرغم من الاختلافات ، ليست فرضيات شخصية ، بل هى مستندة إلى تجارب وحسابات دقيقة .

أو ليس في ظهور الأجزاء المادية متوازنة هادئة دون تمديد ماهية ، آثار باهرة
الحكمة بالغة كفيلة بنظام المجموعة الشمسية ، في حين أنه كان من المحتمل
الطبيعية حدوث اضطرابات ومصادمات متقابلة بين الكهيرات الدائرة بسرعة
كسرعة الضوء وبين كهيرات الأنوم ؟

ولا يقف الأمر عند ذلك ؛ فإن اتحاد أنومات الإيدروجين بمقادير مختلفة في صورة
قوية ، يؤدي إلى حدوث أنومات أجسام بسيطة يتجاوز عددها التسعين ، وتتألف
ذرات الأجسام البسيطة باتحاد بضع أنومات من نوع واحد ، وذرات الأجسام المركبة
بامتزاج أنومات من أنواع مختلفة ، وينشأ من ذلك مواد مركبة معدنية وعضوية
لا يحصرها العد . ومع أنها جميعا من عنصر واحد في الأصل ، وهو الإيدروجين
فلكل منها خواص تختلف عن خواص الأخرى . والأجسام البسيطة وإن كانت
تتجزأ من نفسها ، فإن علم الإنسان وقدرته لم يجدا سبيلا إلى تحليلها إلى الآن .
وأما الأجسام المركبة فإنها عند تحليلها في دائرة القوانين المعلومة بضع مقدار ضئيل
من أجزائها الأصلية ، وتعود إلى حالها الأولى ، وتواظب كهيراتاتها على الدوران حول
مداراتها القديمة . وإذا ما تكهرب الجسم تفرق أكثر الكهيرات من الأنوم
الذي تنتمي إليه ، وتتجمع حول القطب السلبى ، فإذا زال السبب الداعى للتكهرب
تعود الكهيرات وتأخذ الأنومات شكلها الأصلى . وبوقوع الحوادث الكهيرية
بصور أخرى ، يزول قسم من الكهيرات ، وتتحول الأنومات لتكون ما يقال له
« إيون » ، وهنا لك تحصل تيارات وأشعة متنوعة .

فهل يمكن إذن أن يحمل على الصدفة استقرار الأنومات على حالها الأصلى
بتغير قليل بعد هذا الامتزاج والتركب والتكهرب ، وتأديتها إلى حوادث صالحة
للخلق ، وتطورها وتزيينها ؟ أجل ، هل يمكن حمل ذلك على تصادف أعمى ؟ إذن
فأصغر أنوم آية باهرة كالنظام الشمسى من آيات القدرة الإلهية ، والحكمة
السبحانية . وكل ما فى الكون من أصغر أنوم إلى أكبر شمس شاهد عادل ،

وبرهان قاطع على وجود البارئ تعالى . وكأن كل أتوم كصفر على يمين مقام النسبة
التي وضعها لاپلاس لإثبات واجب الوجود بلسان الرياضة ، وتمجيده بها . « يُسَبِّحُ
له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . صدق الله العظيم .
وفي كل شئ له آية تدلُّ على أنه الواحد

إنى لأرجو العفو من قرأنى لشغلهم ببعض الأرقام الموهومة . إنما أردت بهذه
الصورة إثبات أن إنكار وجود الخالق المتعال ليس بعلم وعرفان ، بل هو جهل
محض ، وعمى بصيرة ووجدان ، وإعطاء علم إجمالى بأسرار الخليفة ودقائقها ، لمن لم
يدرس من القراء الكرام العلوم الحكيمية .

ثم إن لهذا الحساب الاحتمالى موقعا عظيما في حياة البشر . فإن ناپليون كان
يقول إنه إذا رأى للظفر احتمالين من ثلاثة احتمالات ، عزم على الهجوم في الحال .
[وعلى هذا يجوز أن يقال إنه « حرصا وغرورا » لم يُراعِ هذا الاحتمال في محاربة
الروس سنة ١٨١٢ وحملة لاروتير سنة ١٨١٤ ففنى بهزيمة] . وكثير من التجار
والمالين إذا رأوا للربح احتمالين ، ولمقابلته احتمالا واحدا ، فإنهم يخاطرون ببعض
ثرواتهم ، وإذا تحقق عشرة احتمالات في مقابلة احتمال واحد ، فإن أشد المترددين
والمتهربين من الناس ، بل أهل التقوى منهم ، يخاطرون بما ملكت أيديهم في
المخاطرات . والتجارة مبنية على الحساب الاحتمالى . فشركات التأمين وبعض كبار
محالِّ القمار مثل موناكو مؤسسة على احتمال الربح بعشرين أو ثلاثين في المئة ، إن
خسروا أحيانا فإنهم ينتهون إلى الثقة الكبيرة ؛ وبهذا السبب تدوم هذه المؤسسات
النافعة والضارة . والذين يختارون احتمال القليل طمعا في الربح الزائد ، يخسرون
آخرًا ، ويشتهرون بين الناس بالتبذير وسوء الأخلاق .

وهكذا الحال في الأمور الاعتقادية . فالذى يتعاضى عن الاحتمال القوى ، الذى
هو قوى فوق ما يتصور ، ويبنى سعادة نفسه وقومه الأخرى على الاحتمال الأضعف ،

فهو منكّر تبعاً لهواه ، وميلاً إلى المنافع والشهوات الدنيوية ، فهو سفيه كل السفه ، كما هو جاهل ضرير ، وتعذبه في الآخرة لا يكون منافياً للعدالة .

في السطور المتقدمة قد ذكرت الأجرام والأجزاء على الانفراد ، ولكن لو نظر بنظر الإمعان إلى جميع الأجسام المتولدة من امتزاج أجزاء الكائنات بعضها ببعض ، ومن اتحادها وتركبها وانحلالها وتصادمها ، وتموجها واهتزازاتها ، وإلى آثارها ، وإلى مناسبات الحوادث بعضها مع بعض وعلاقتها ، وإلى نظامها وانتظامها للتكفل ببقاء مملكة الخليفة وتطورها ، صار مخرج نسبة « لا پلاس » غير متناه — فليقل المتعصبون من الرياضيين ما شاءوا — فبناءً على هذا يتحقق بصورة قاطعة وجوب وجود مؤثر مدبر حكيم قادر مطلق ، فيما وراء الحجاب .

اعراض الماديين

لكن على خلاف هذه البدهة العلمية يدعى المنكرون « أن القوة والمادة ، أو الأثير الذي ^(٢٠) تكسبان منه الوجود ، أزلى ، وأن المادة والقوة تدخلان في أوضاع وتركبات لا يحصرها الحد منذ الأزل مصادفة ، وهذه الأشكال والتركبات تظل مدة طويلة لا تشبه شيئاً ، ثم تتصادم مع غيرها فتبدد ، ثم تتجمع . بيد أنه قد تتولد خلال الأوضاع والتركبات المحتملة التي لا يحصرها عد ، بعض علاقات ندعوها قانوناً طبيعياً ، وكلما حصلت تلك القوانين تطورت الأشكال بتأثيرها ، وبلغت حالة مستقرة . وعلى هذا النحو تظهر الموجودات والحداثات في العالم » .

إن ما أوردنا من الأدلة والحسابات فيما سبق ، لا يدع مجالاً لأن يقنع أحد من أصحاب العقل والفهم بمثل هذا الادعاء ، بيد أنه يصعب نقضه بإثبات عكسه . والحق أن قوة السفسطة الوحيدة هي في استنادها إلى المسائل التي يصعب استقصاؤها . ويعرف العالمون بمقدمات العلوم أن كثيراً من البديهيات يصعب إثباتها وتعريفها بالمنطق واللسان ، ولكن يعتقد الوجدان صحتها . وكذلك يصعب إبطال السفسطة التي يظهر بطلانها تمام الظهور ، ويشمئز منها العقل السليم

والطبع السليم ، بيد أنى ساستعين بمثال أورده « الأب مورو » من كلمة أهل العلم ،
فى الرد على هذه السفسطة ^(٢١) : لنفرض أن عددا من الآلات الموسيقية مطروحة
على الأرض ، كما اتفق ، تترنم بذاتها دون أن يكون لها موقع ومدير ، بمقامات
موسيقى الفارابى أو سزائى دده أو بهوفن أو جونو ، من الألحان اللطيفة المؤثرة ،
وتترنم من حين إلى حين بأصوات الجازباند الحديثة المزججة ، هل يقبل العقل أن
تصدر هذه النفثات بمجرد هبوب النسيم دون أن يكون هناك ترتيب مستتر ،
أو منظم ماهر ؟ لا جرم أنه لا يقبل أحد مثل ذلك الادعاء الباطل . فإذا كان
الأمر كذلك مع هذه الآلات الموسيقية ، فهل ترى هذه الآلات التى لا يتجاوز
عدها العشرات ، أعظم خطرا وأجل أمرا من مملكة الخليفة المملوءة بما لا يحصى
من أجناس المخلوقات ، وأنواع الموجودات ، وما يلزمها من الحركات والسكنات ،
والاهتزازات والمناسبات والمصادمات والأفكار والمسكلمات ، حتى يُحمل أمرها
على التصادف ؟ !

إن صدق قضية من القضايا يتبين بقبول العقل والوجدان ، وبموافقتها
للطبيعة والفطرة ، وإلا كانت سفسطة .

ظهور ذوى الأرواح فى الكواكب

أما ظهور ذوى الأرواح على الكرات ، فهذه المسألة لا تجد دعوى المنكرين
المستندة إلى الأزلية مجالا للتطبيق هنا ؛ أولا ، لأنه من المتفق عليه أن للكرات عمرا
محدودا . وثانيا ، لأنه من المحقق أن الحالة النارية التى كانت عليها الأجرام فى بداية
نشأتها ، لم تكن قابلة للحياة الحيوانية والنباتية . وثالثا لأن أهل العلم كما ذكرنا
فىما سلف ، وإن لم يصلوا إلى حقيقة المادة ، قد كشفوا أكثر أسرارها ، وعلموا
بكثير من دقائقها ، ولكنهم لم يجدوا فى جميع الأجزاء المادية إلا حركة قسرية
تابعة لبعض القوانين والخواص ، ولم يجدوا فيها خاصة تدل على الآثار الحيوية ،

والتفكر والإرادة الذاتية ، ولم يمكنهم خلق أى عضوية كانت مع ما تيسر لهم من أنواع التحليل والتركيب ، وكل ما بينه الماديون على ما يتوهمونه من الاكتشافات التى ستقع فى المستقبل مردود بالوجوه . ورابعا يعتبر أرباب العلم ولا سيما الدكتور باستور المشهور ، أن الحياة يمتنع ظهورها قبل أن تكون جرثومة ، ولهذا يقولون « إن الحياة تلد الحياة » ؛ إذن فظهور الحياة فى العالم الجسمانى يدل على احتياجها إلى واسطة لدنية غير مادية .

قد يقول المنكرون إزاء ذلك : « نعم إن الحياة لا تظهر من تلقاء نفسها فى الوقت الحاضر ، وهذا ثابت بالتجربة ، إلا أن ذلك كان محتملا قبل مئات الملايين من السنين ، حينما كانت الأرض حاوية للعناصر الغنية الفياضة ، وكان من الممكن أن تتولد الحياة بنفسها » . لكن كيف يجوز لهؤلاء — الذين يعتمدون على العلم ولو ظاهرا ، ويحتجون به فى إنكارهم — تكذيب نتائج التجارب العلمية ، وإبطال دلالتها بمجرد الاعتماد على الاحتمالات ؟ إنا نسأل جميع الحقوقيين ، وكافة المناطقة ، قائلين : « فى أية محكمة يسمع مثل هذه القضايا التى تركت المحربات والمثبتات ، وبنيت على الاحتمالات والممكنات ؟ » .

من أجل ذلك يقول بعض العلماء الذين يحكمون ببطلان هذا رأى : إن البروتوبلازم الحامل للحياة قد انفصل من الكرات التى كانت مسكونة من قبل ، متعلقا بأهداب الغبار السماوى المنتشر فى الجو ، ووصل إلى الأرض ، ظل مدة طويلة طائرا فى الجو ، ثم نزل بقرار مساعد إلى سطح الماء ، وهنا لك أحدث أول جرثومة تناسلت منها النباتات والحيوانات وتطورت^(٢٢) .

ونحن نقول بإزاء هذه الفروض : ألم تمر تلك الكرات التى فرض كونها مسكونة قبل الأرض من الحالة النارية ؟ وهل كانت المادة التى تركبت منها غير المادة الموجودة لدينا ؟ إذا كان الأمر كذلك ، كان مصدر الحياة عالمًا غير العالم المادى الذى نعرفه . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، أى إذا كان الحال على نحو كرتنا ،

وجب أن تفاض فيها أول نفحة من نفحات الحياة من تلقاء نفسها ، لا من عالم مادي بل من عالم لَدُنِّي ، بواسطة قوة غيبية ، وعلى كلا التقديرين يلزم الاعتراف بعالم غيبي ، وقوة مدبرة معنوية ، غير هذا العالم الذي ندركه .

وإذا آمنا بوجود مسبب أول لحدوث العالم ودوامه ، واعترفنا بأزليته وقدرته ، وتحقق لنا بهذه الأدلة العلمية والمنطقية أن مملكة الخليفة مبنية على الحكمة ، وجب علينا أن نصدق أن هذا المسبب متصف بكمال الحكمة . وإذن يثبت عقلاً وعلماً وجود خالق ، حكيم ، عليم ، مريد ، على النحو الذي جاءت به الأديان .

يقول بعض المعارضين إن اجتماع الحكمة والقدرة وأمثالها من الصفات في المسبب الأول مُخِلٌ بوحده (والجهمية والمعتزلة ينكرون الصفات الإلهية من هذه الوجهة) ولكن هذا الذهاب باطل . فإن كون إنسان ما ذكياً وقوياً وجميلاً وكرماً ، لا يستلزم أن يكون ذلك الإنسان أربعة أشخاص ، وكذلك الشمس ، هي كبيرة وجاذبة وحارة ومنيرة ولكنها واحدة . وإذا ما تناولنا بروتون الإيدروجين ألفيناه أولاً صغيراً للغاية ، وثانياً ألفيناه حائز القوة الكامنة الكبيرة ، وثالثاً ألفيناه — كما يقال الآن — غير قابل للتجزئة ، ورابعاً ألفيناه حائز السكهرباء الإيجابية . فهل كون البروتون حائزاً لهذه الأحوال الأربع ، مُخِلٌ ببساطته ، أو مؤيد لأن تكون له أربع هويات مختلفة ؟ إن التعمق في الفاسفة ينبغي ألا يؤدي الإنسان إلى التفكير خارج مقتضيات الطبيعة الإنسانية ، وتدل مشاهداتنا واعتياداتنا على أن اجتماع الصفات والأعراض لا يستلزم تعدد الذات .

بيد أن العقل البشري مع تصديقه هذه الحقائق قد يقول : نعم ، لابد لكل مصنوع من صانع ، ولكن لابد كذلك لكل أثر صنعة من مادة أولية . فالمهندس المعماري أو الميكانيكي لن يستطيع أن يوجد شيئاً ما لم يستمد من الطبيعة جميع ما يلزمه . إذن فما هي المادة الأولية للتكوين ؟ ينبغي للإنسان أمام هذه الوسوسة

أن يفكر ويقول : « إن جسمي ليس إلا نموذجاً حقيراً بين أنواع المصنوعات الربانية ، التي لا يحصيها العدّ ، وعقلي الذي يفكر ولكن يعجز عن إدراك كنه ذاته ، ليس إلا أثراً من آثار القدرة الفاطرة ، وذرة من نور حكمتها التي تفسّي الكائنات ، ولا أتصور أن خير آلة مما أقدر على اختراعها بفضل تدير العقل ، وقوة أعضاء البدن ، تستطيع أن تفهمني جد الفهم ، وتستقصي ما ينطوي في من دقائق الصنعة . بيد أن كل شيء بالنسبة لغير المتناهي في حكم الصفر وفي حكم لا شيء . وبما أن الآثار الحيرة للألباب ، تدل على أن القدرة والحكمة الإلهية غير متناهية ، أفلا يكون نصيبي من إدراك الخلقة في حكم الصفر ؟ فكيف يجوز ويحق لي أن أدعي بأنني أستطيع أن أصل إلى أسرار خالقي وصانعي تمام الوصول ؟ وكيف يمكنني أن أدرك مادة الكائنات وهذه المادة ليس في طاقتنا إدراك ما هيّتها . وإذا كان الإنسان يستطيع بقوة فنه استخدام الكهرباء ، وهي من لطائف الموجودات التي لا تصل إليها اليد ، ولا تدركها الأبصار ، واستكمال احتياجاته المادية ، فهل يُتصور أن يعجز خلاق الكائنات في أمر ما ؟ » فحينئذ يجد ما يزيل ارتياحه ، وما يسكّن اضطرابه (٢٢) .

عقيدة الحكماء في الله

لقد أطلنا البحث بتفصيل نظريات لابلان وحساباته . بيد أن هناك من الحكماء المعتقدين بالألوهية من هم في درجته إن لم يكونوا أعلى منه . وقد بحثنا عن أقوال « دكارت » و « هرشل » في هذا الموضوع فيما سلف . وكذلك كان « نيوتن » وهو من أكبر الرياضيين والفلكيين وأشهرهم ومن المعتقدين بالله ، بل كان من الزهاد المتقين . ومن المتواتر أن « داروين » الذي يُعد من مبدعي فلسفة التطور ، كان يستشير أحد الرهبان الإنجليكان من أصحابه ، قبل أن يقر آراءه ونظرياته فيما يختص بتأليفها بالعقائد الدينية . ومن الثابت أن « باسور » المشهور

بوضعه علم البكتريولوجيا ، وباكتشافاته النافعة وخدمته العظيمة للطب وغير ذلك ، مما جعل الإنسانية مدينة له بالشكر ، كان من المؤمنين بالله .

وهذا الفيلسوف سبنسر الذى أكمل نظرية التطور وإن لم يضعها ، مع أنه لم يكن معدودا من المتدينين ، كان يعتقد أن للخلقة سرا مطلقا نهائيا ، وحيدا متعاليا عن الإدراك ، وأن هذا السر الأعظم من شأنه أن يرسل من يعمل على إصلاح العالم . وهذا الحكيم وقد جمعت مؤلفاته الفلسفية فى عشر مجلدات ، يقول فى مبحثها الخاص بـ « ما لا يعرف » (Inconnaissable) عن إمكان التأليف بين الدين والعلم ، ويقرر أننا مضطرون إلى الاعتراف بأن الحادثات مظاهر قدرة مطلقة متعالية عن الإدراك ، وأن الأديان كانت أول من قبل هذه الحقيقة العلوية ولقنتها ، ولكنها نُشرت فى أول الأمر ممزوجة ببعض الأباطيل ، ثم زادت هذه الأباطيل شيئا فشيئا ، حتى وضعت العقائد الدينية على هذا النحو . ومن حيث إن العلم والدين يتحدان حول هذا الأساس المتين ، أى الإقرار بهذه القدرة المطلقة التى لا تدرك ، فمن الممكن إذن تأليف ذات بينهما . ولو أن هذا الفيلسوف أمكنه أن يستقصى الدين الإسلامى ، وأن يعرف أن الإسلام يصف خلاق الكائنات بقوله : « كل ما خطر ببالك وهو هالك ، فالله سوى ذلك » ، لأقر بأن الإسلام دين خالص فى أساسه وصاف .

وتحدث هنرى پوانكاري وهو من أكبر الرياضيين من المتأخرين وأشهرهم ، فى مقاله عما يبذل الفلكيون من الجهود بلا انتظار نفع مادى أو تحقيق أمل دينوى لما يتجشمونه من المشاق والمتاعب . ثم قال : « إن هذا السعى وهذه المشقة إنما هو خدمة لأثر عظيم وهذا يثير الروح ، فيقربها إلى خالقها » ؛ كما قال فى مقال آخر : « إن ما فى هذا العالم انتظاما واتزاناً لا يمكن أن يُحمل على الصدفة » . فهل تتضمن هذه الأقوال شيئا غير الاعتراف بالخالق ؟

وقد كتب كميل فلاماريون الذى توفى حديثا فى كتابه « الله فى الطبيعة » ،

مانقله على النحو الآتى : « إذا انتقلنا من ساحة المحسوسات إلى الروحيات ، فإن الله يتجلى لنا بمفهوم روح دائم موجود فى حقيقة كل شىء . ليس هو سلطانا يحكم من فوق السماوات ، بل هو نظام مستتر مهيم على كافة الموجودات والحادثات ، وليس هو مقيما فى جنة مكتظة بالصلحاء والملائكة ، بل إن الفضاء اللانهائى مملوء به ؛ فهو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء وفى كل لحظة من الزمان ، وبتعبير أصح هو قيوم لانهاى منزّه عن الزمان والمكان والتسلسل والتعاقب ليس كلامى هذا من جملة عقائد ما بعد الطبيعة المشكوك فى صحتها ، بل من النتائج القاطعة التى استنبطت من تلك القواعد الثابتة للعلم كنسبية الحركة وقدم القوانين . إن النظام العام الحاكم فى الطبيعة ، وآثار الحكمة المشهورة فى تكوين كل شىء ، والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة كضياء الفجر والشفق فى الهيئة العامة ، لاسيما الوحدة التى تتجلى بقانون التطور الدائمى ، تدل على أن القدرة المطلقة الإلهية هى الحافظة المستترة لاسكون ، هى النظام الحقيقى ، هى المصدر الأسمى لسكافة القوانين الطبيعية وأشكالها ومظاهرها . »

لم يكن قائل هذه الأقوال متدينا ، لأنه كان ينكر الموسوية والعيسوية ولا يعرف الإسلام ، ولكن كان هو وأمثاله معتقدين بوحداية الله ، فكانوا موحدّين . أليس قول الحكيم « إن الفضاء اللانهائى مملوء به . . . هو موجود مستقر فى كل نقطة من الفضاء ، وفى كل لحظة من الزمان » بتصديق ، بألفاظ أخر ، للرب الذى يؤمن به بنص القرآن أنه محيط بكل شىء ، وأقرب إلينا من حبل الوريد ، قديم ودائم ؟ أوليس رؤيته الحكمة فى التكوين والوحدة فى قانون الطبيعة واعترافه بأن القدرة المطلقة الصمدانية هى المؤثرة والحافظة الحقيقية للموجودات ، بإقرار وتسليم بالصفات الإلهية التى جاء بها الإسلام ؟

ومما يستحق الذكر أنه يلاحظ فى كلام فلاماريون أن الله تعالى حاضر بذاته فى كل مكان ، وهذا يوافق الفلسفة الوجودية ، وفى الجملة عقيدة أهل التصوف فى

حين أن علماء الإسلام الحقيقيين يَرَوْنَ أن كيفية الحضور والإحاطة تكون بعلم الله وقدرته ، وأن الذات الإلهية فوق الإدراك على الإطلاق في كل خصوص ، ولذلك يجتنبون تطويل الكلام في هذا الموضوع . والحق أن افتراض وجود الله في كل نقطة من الفضاء ، قد يؤدي إلى التصور والاعتقاد بأن الهوية الربانية عبارة عن تأثير أوقوة أرواح أوفكر ، وهذا ليس من شأنه أن يوضح سرَّ الخليقة ، كما أنه يخالف الاعتقاد الأصلي الإسلامي الذي يقول : « ليس كمثله شيء » و « لم يكن له كفؤاً أحد » ، ويجعل ذات الله تعالى فوق القياس وفوق الإدراك على الإطلاق . والإسلام مع أنه يأمر بالإيمان بوجود الواجب وبصفاته السلبية والثبوتية ، لا يدعى النفوذ في ذات الله وحقيقته .

وهناك غير ما ذكرنا بين الأسلاف والمعاصرين من الحكماء من يؤمن بالله وبوحدانيته ، بحيث إذا نظر الإنسان إلى أقوال هؤلاء المدققين والمفكرين ، وأنهم النظر في آرائهم ، ثم نظر إلى من يتبرءون من دينهم بغير علم ولا درس ، تبعاً لأهوائهم وانقياداً لما يسمونه « الموضة » فحسب ، يحار حيرة عظيمة . وأنا لا أستشهد بأقوال حكماء الغرب إلا لإلزام هؤلاء ببراہين مشاهير المفكرين ، الذين لا تربطهم بديننا أية رابطة ، وبهذا تتضح حقيقة اعتقادنا ، ويبين فضلها واضحاً جلياً « والفضل ما شهدت به الأعداء » .

آراء الماديين في الله

قد يعترض المعارضون بأنني أخص بالذكر أقوال الروحيين من العلماء ، وأهمل الماديين . ولكني أرى ، مع نقصان تدقيقاتي أن أدلة الرُّوحانيين أقوى من أدلة غيرهم ، وليس موضوع كتابي مقايسة الأفكار الفلسفية المتخالفة . ومع هذا فإنني أزيد على ذلك أن أكثر الفلاسفة الماديين استفادوا من معاصريهم من الرياضيين والفلكيين والكيميائيين والطبيعيين في وضع نظرياتهم الإلحادية ، في حين أن

أصحاب هذه التجارب والاكتشافات كانوا مؤمنين بالمسبب الأول ، وهؤلاء الذين ذكرت أسماؤهم فيما سلف أكثرهم من المتبحرين في العلوم والفنون . ثم إن مقارنة هذه الآراء ومباحثتها أمر يترتب على أولئك الذين يتجردون مما توارثوه من الاعتقاد عن أجدادهم ، قبل أن يتخذوا قرارهم النهائي . فهل فعل المنكرون الذين ظهروا بيننا ذلك ؟ ومع هذا فإني أذكر وأناقش بعض الماديين اجتنابا لسوء الظن بأنني ألتزم أحد الفريقين . ولكن تتبع جميع الآثار الفلسفية وتلخيصها أمر غير هين ، ولهذا أكتفي بنقل ما يأتي من كتاب فلاماريون (الله في الطبيعة) مع بعض آرائى الشخصية . ولا شك أن هذا الحكيم الشهير لم يحرف أقوال المعارضين ، ولم يسند إليهم ما هم منه براء .

يقول بوخنر Buchner عميد الماديين في العصر الماضي ، في كتابه (القوة والمادة) : « من الممكن إرجاع ظهور الأجرام السماوية وانتشارها وحركاتها إلى أصول بسيطة من الممكنات مادة فلا يبقى إذن محل للاعتقاد في قوة خالقة مشخصة » (٢٤) ، في حين أنه لا يمكن استقصاء أى سر من أسرار الخلق استقصاء تاما ، وأصحاب أشهر النظريات الخاصة بخلق العالم (Cosmogonie) يحملون تكوّن العالم على سبب مجهول ، أو على سر لا يعلم ، أو على قدرة مسبب مدرك ، ولم يذكر حكيم من الحكماء تلك الأصول البسيطة التي يبحث عنها بوخنر . حقا أن هناك من القوانين المكتشفة ما يحلله الماديون ، ولكن يعترف مكتشفو هذه القوانين أن لها واضعا حكما ، ومن هؤلاء نيوتن وهرشل ولاپلاس وبوانسكارى وفلاماريون وكم من أطواد علم الفلك والرياضة ومن أصحاب المذاهب والاكتشافات في تلك العلوم من يؤمنون بأن للعالم خالقا .

أما بوخنر فيتعهد الإلحاد والإنكار قائلا : « إن ما يشاهد من عدم الانتظام في العالم ، وما يقع من القضاء والاضطراب فيه ، يقوِّض دعائم النظرية التي تستند إلى تأثير مؤثر تابع للقوانين ، حتى لو كانت نتيجة الذكاء البشرى » ، في حين أن جميع

أرباب العلم يقفون حائرين أمام دقة النظام الذى يرونه فى الكائنات . ثم يقول ذلك الفيلسوف : « إذا أمكن حمل خلقة العوالم ، أى الأماكن المقتضية للناس والحيوانات ، إلى قوة مشخّصة مفكّرة ، فينبغى استقصاء هذه النقطة : ما اللزوم للفضاء الخالى الواسع الذى تسير فيه الشمس وتوابعها ؟ وما السبب لكون السيارات الأخرى من مجموعتنا غير مسكونة (وهو ما لم يتحقق بعد) .

إن بعض الماديين يرون فى كون سرعة الضياء فى الثانية ليست أكثر من ٣٠٠ ألف كيلومتر ، وفى كون القمر ليس له حركة محورية ولذلك يقابل الأرض بوجه واحد ، ما يدل على نقص الحكمة البالغة ، ويتخذون ذلك وسيلة لإنكار سر الخلقة . وكل ذى ضمير يفهم ماهية هذه السفسطة التى تعادل فى غرابتها الدعوى « بأن ليس هذا العالم على النحو الذى أريده ، فلا خالق له » أليس قبول هذا الادعاء الغريب بلا أدنى تأمل ، أغرب ؟ !

ثم يتصدى بوخز لإثبات إلحاده قائلا : « لا يمكن أن يفهم أحد أن الكائنات يديرها ذكاء سرمدى مع وجود قوانين ثابتة للطبيعة ، لأنه لا يمكن تأليف هذا بذلك ، وينبغى إما أن تسيطر تلك القوانين أو يسيطر ذلك العقل الأبدى » . هل يدل وجود القوانين فى مكان على وجود واضع وحافظ لتلك القوانين ، أم يقتضى عدمه ؟ يظهر أن الرجل يظن الخالق الكريم مَلِكاً مستبداً من أمثال نيرون ، ولذلك يتصدى لإنكاره أو تلغاه ، فى حين أن الذين اكتشفوا قوانين الطبيعة من أمثال « كبلر » و « نيوتن » يؤمنون بواضع تلك القوانين ، بكل إجلال وتكريم . إن المنكرين الذين كفروا بالله يصورون الطبيعة التى يريدون تأليفها كإلى ، فهى على قول فوخت : « القوانين الطبيعية وحشية وغير قابلة للانحناء ، فهى لا تقر لا بالخلق ولا بالشفقة » . وعند فوبرباخ « لا تحيب الطبيعة دعوات الناس وتظلماتهم ، وتردها كلها إلى أصحابها بلا رحمة » . فليشاهد الحداثون من الأخلاقيين ، الذين يحاولون إنكار وجود الله لإنذاره المنكرين والمشرّكين والمجرمين بجزاء

الأخرة ، كيف يتصور الماديون معبودهم الطبيعة ، وكيف يصورونها ؟
ويمكن أن يُلخص رأى الماديين في القوة على هذا النحو ، يقول مولسكوت :
« ليست القوة إلهاً محركاً ومهيجاً ، أو وجوداً مستقلاً عن جوهر الأشياء المادية ،
بل خاصة مرتبطة بالمادة بأنهم ارتباط في صورة دائمة (وقد سقطت هذه النظرية
بعد التجارب الأخيرة) ، والقوة التي لا تكون مرتبطة بالمادة ، ليست إلا فكرياً
واهياً . فالآزوت والكربون (فحم) والإيدروجين والأكسجين والكبريت
والفوسفور الداخلة في العضوية البشرية ، مألوفة لهذه الخاصة التي هي مرتبطة بها
ارتباطاً أبدياً . وبناء عليه فالمادة حاكمة على الإنسان » . وينبغي إزاء هذا الادعاء أن
نسأل مولسكوت : بأية مادة يرتبط الضياء والحرارة والكهرباء التي تصل من
الشمس إلى الأرض ، وتظهر تأثيراتها على الأرض ، والتي ينبغي اعتبارها لذلك في
حكم القوة ؟ .

يقول بوخنر « إن الإنسان محصول المادة ، وليست له خاصية فكرية على النحو
الذي يصوره الروحيون » . ويقول « بروسيس Prousaïs » : إن الإنسان عبارة عن
الأعضاء البدنية ، ومجموع فعاليتها ، وليست النفس الناطقة ، أي « أنا » ،
شخصية مخصوصة ، بل هي حال ونتيجة مشوشة لقوى متخالفة ، يمكن أن تسند
إلى أية كيفية أو قابلية من كفايات المادة وقابليتها . والذكاء والحساسية عمل من
أعمال الأجهزة العصبية ، كما أن تحويل المأكولات إلى الكيلوس والدم من
أعمال الأجهزة الهضمية والتنفسية . وما الروح إلا نظرية واهية ، لا تستند إلى أية
مشاهدة ، ولا يمكن الاستدلال عليها بأي بحث وتحقيق ، بل هي فكرة مجردة عارية
عن كل معنى ؛ والاعتقاد بأن في الإنسان شيئاً غير مجموع أعضائه عبث ، كجميع
أبحاث ما بعد الطبيعة » . ويقول بوخنر : « ليس العقل والفكر والروح موجودات
مستقلة ، بل هي حصيلة قوى متخالفة ، أو هي محصول التأثير المشترك للمواد المختلفة ،
التي تحوي القوات والخواص العديدة » . ويقول تيسو : « العقل قوة من قوى المادة

ولكن ليست تلك القوة بسيطة ، بل هي مجموع القوى البسيطة للمواد التي تتحد لتشكيل العضوية البشرية . وما دامت المادة لا تكون في الجسم البشري ، فلن يبلغ العقل حالة حادثة ، ولكن في المادة ميل طبيعي للدخول في هذه العضوية وتشكيل العقل » .

أسألكم بالله ، ما معنى هذه الكلمات ؟ وإلى أى حساب أو تجربة يستند الذين يقولون هذا الكلام ؟ وهل يصح الاعتماد على هذه الأقوال أكثر من الاعتماد على حكايات ألف ليلة وليلة ؟^(٢٥) يقول بوختر أيضا : « إن الكبد والكليتين تفرز مادة مرئية ، دون أن نعلم نحن بذلك . وأما الحركة الدماغية فلن تكون خارج إرادتنا وإدراكنا . والدماغ يفرز قوة بدل المادة . ويحجب كييل فلاماريون قائلا : « ما معنى إفراز القوة ؟ ولماذا لا يفرز الدماغ كيلو مترات أو فراسخ ؟ » وأنا أزيد على ذلك فأقول : من حيث إنه لا روح ولا نفس ناطقة ، فمن الذى يشعر بما تفرزه الحركة الدماغية ؟ ومن الذى لا يشعر بها ؟ وما معنى كلمة « نحن » التى يستعملها ذلك المتكلم ؟ ويبدو أن الفيلسوف يقر مرغما من قبيل إنطاق الحق بـ « أنا » الذى ينكرها وقد أنكرها سابقا ؟ ثم إنهم كانوا يقولون إن القوة لا تنفصل عن المادة ، فأين مادة القوة التى يفرزها الدماغ ؟

قال فلاماريون : إنه قرأ فى جريدة طبية مقالة فيها : « الفكر : تركيب يشبه حمض فورميك ، والتفكر تابع للفوسفور ، والفضيلة والصدقة والشجاعة ما هى إلا تيارات كهربية للعضوية الإنسانية » ، وقد سجل فلاماريون هذا الكلام فى كتابه مستهزئا . من الغريب أن البرهان الوحيد الذى يسرده الماديون لإثبات دعواهم هو قولهم : « كل فكر لا يمكن إثباته بالتجربة والحساب فهو مردود » . ولكنهم لا يقولون لنا إلى أى حساب رياضى ، وإلى أية تجربة علمية يستندون لإثبات تلك الآراء . لقد ذكرنا فى مقدمة هذا الكتاب أن فى النصرانية دستوراً يقول « أومن به لأنه محال » . والظاهر أن الذين يعتقدون تلك الأقوال يقولون « نؤمن بها ، لأننا لا نفهمها » .

هذه أيها المنكرون أقوال زعمائكم وأدلتهم ومفسطة أساتذتكم التي تؤمنون بها ، بلا إيمان في فكر ولا نظر ، ولا تدقيق ولا مطالعة . إن ما يدعيه هؤلاء من أن دعواهم ونظرياتهم علمية ليس من الحقيقة في شيء . فليس من الممكن بالحساب والتجربة إثبات أن حدوث المجرات والشموس والكواكب ، واستمرار نظام الكائنات مبني على المصادفة ، وأن فكر البشر وذكاؤه ليسا إلا اهتزازات الأجزاء المادية وإفرازاتها . ولو كان الأمر كما زعموا لما كان فرق بين نظرياتهم وبين الاعتقاد بأن جوبيتر يسيطر على العالم من ذروة أوليمب . ثم إن نظرية مبنية على مجرد النفي والإنكار تثقل على الطبع والوجدان ، وتخالف الشعور ، بل إن مثل تلك العقيدة تدعو إلى اليأس ، وتقوض دعائم الأخلاق .

لا شك في أنه لا يجوز الإيمان بآلهة تهوى الغايات من النساء ، وتبسط بالرقباء ، أو تحكم على أولاد آدم بالبغض والخصومة آلافا من السنين ، بل ما دام التناسل على ظهر الأرضين ، لتفاحة اقتطفها آدم دون رضا صاحبها ، وغير ذلك من أنواع الآلهة . وأما الحى القيوم ، القدير الحكيم ، الرحمن الرحيم ، الذى لا تدركه الأبصار ، فالإيمان به من مقتضيات الفطرة ، وأمر معقول علمي . فإن كون كل مصنوع له صانع ، أمر لازم طبيعة ، وحتم عقلا وعادة . وآثار الحكمة في الصنعة تدل على اتصاف الصانع بالعلم ، كما أن عظمة الكون وفخامته تستلزم جلال صاحبه وكبريائه .

بحث نظريات الإلحاديين

بعد أن ألقينا نظرة على أقوال الفلاسفة الماديين في القرن التاسع عشر ، يقتضى أن نبحت نظريات الإلحاد التي يبنونها على أحدث الاكتشافات . وأتخذ أساس بحثي في هذا الموضوع الدكتور جستانف لوبون ، المعروف بأبحاثه وتجاربهم في جميع شعب العلوم الطبيعية . وهذا الأستاذ يميل إلى الإثباتيين ، ويستخف بالمذاهب

الفلسفة القديمة ، وحتى بالمادية المصرية ، لأنه مفكر مستقل الرأى ، وهو لهذا السبب يعتبر من العلماء المحايدين ، غير المرتبطين برأى ثابت . ثم إنه لا يبدأ فى نظرية التكوين كأكثر الحكماء ، من السحائيات وأكوام الشهب ، بل من حدوث القوة وتشكل المادة .

تدل النظريات التى يبينها جستاف لوبون على تجارب وتحقيقات كثيرة ، ويحاول إثباتها بأقوى الأدلة فى كثير من كتبه على « أن المادة والقوة تنشآن من الأثير ، وتعودان إليه ، وأن الأتومات تتولد من الزوابع السريعة الدوران ، التى تحدث فى داخل الأثير ، وأن الأثير غير قابل للوزن ، وغير مَادى » . وهذه الفرضية تستدعى الاعتراض الآتى قبل كل شئ ، وهو « إذا كان الأثير غير مَادى ، وغير قابل للوزن فى صورة مطلقة ، فإنه لا فرق بين استخراج مادة قابلة للوزن منه وبين إيجاد شئ من لا شئ » .

والحق أنه ما دام الاستناد على العقل والعلم يلزم أن يقبل أن حاصل ضرب الصفر فى عدد محدود يكون صفراً ، وتكاثف الشئ غير الموزون يلزم ألا يؤدى إلى حصول وزن . فإن تجاهل العلماء الذين يرفضون بل يستهزئون باعتقاد العلماء الإلهيين ، الذين يقولون : « إن الخالق خلق العالم من العدم » الحقائق العقلية والمتعارفات الرياضية ، أمر جد غريب . يقول العلماء الإلهيون : « إن الله تعالى خلق الكائنات بقدرته وحكمته التى تفوق إدراكنا » ولكنهم لا يزدرون البديهيات العقلية ، والأحكام العلمية ، بدعوى اكتشافهم سر الخليفة .

ويتصدى جستاف لوبون لإثبات كيفية تكاثف الأثير بسرعة الدوران ، متمثلاً بما تكتسب الأجسام الخفيفة من الصلابة ، عند ما تدور بسرعة عظيمة . حقاً أن كل كمية ، مهما صغرت ، تزداد قيمتها بتكبير مضروبها ، أو بتكثير أمثالها ، ولكن الصفر لا يكتسب قيمة إلا إذا ضرب فى اللانهاى ، فى حين أن أهل العلم يقولون إنه ليس فى الكون سرعة مادية أكبر من سرعة الضوء ^(٢٦) . وبناء

عليه لا تكفى هذه الفرضيات لإثبات تكاثف الأثير غير القابل للوزن .

وللتخلص من هذا الاعتراض ينبغي تعيين مقدار ودرجة المادية والكثافة القليلة التي يمكن أن تكون موجودة في الأثير . إنه بناء على بعض الحسابات ، لو كان الأثير ألطف من الهواء بتريليون مرة ، لوجب أن يتبدد هوائنا النسيجي ، وأن تبلغ الحرارة عندنا وفي القمر ٣٨٠٠٠ درجة بسبب ما يحدث من الاحتكاك بين هذين الجرمين وبين الأثير والمقاومة التي تعمل عليهما . [وحرارة سطح الشمس عبارة عن ٥٠٠٠° إلى ٦٠٠٠° درجة] . والحال أن هوائنا النسيجي باق منذ ملايين من السنين ، وكرتنا الأرضية والقمرية عارية عن مثل تلك الحرارة الشديدة المحرقة . ثم إن جُستاف لوبون يقول : إن السحابة التي أحدثت مجموعة شمسنا ألطف من الهواء بسكستليون مرة (٢١٠) في حين أن للسحابيات كثافة ، لأنها حاصلة من اختلاط الغازات المتشكلة من بروتونات كثيفة للغاية ؛ ومن تصادم هذه السحابيات بعضها مع بعض أو مع كوام الشهب يحدث الاختلال والحرارة العظيمة التي تحدث منها العوالم . أما الأثير فلا يقوم بمقاومة محسوسة في سير الأجرام السماوية . فبناء على هذه الحسابات والملاحظات لا تكون مبالغة إذا قيل إن نسبة كثافة الأثير للهواء هي $\frac{1}{3}$. وبناء على هذه النظرية يحتاج لحصول كيلو جرام من الماء ، إلى حجم من الأثير أكبر من الشمس بعشرة آلاف مرة ، وهو حجم أكبر من الأرض « ١٣٠٠٠٠٠ » مرة ، مع أن كيلو جرام من الماء بالنسبة للأرض كمية حقيرة للغاية ، لأن الناس الذين يعيشون على الأرض والحيوانات والبواخر والمالكينات البخارية تستهلك كل يوم تريليونات من الكيلو جرام دون أن تشعر بمنابع المياه والأنهار والأبحار بشيء من جراء ذلك الاستهلاك . إذن فمن أين ينبع الأثير الذي يكفي لتشكيل كافة العوالم؟ ربما يقال تجاه ذلك « إن مسائل الخلق المرتبطة بالأولية واللانهاية ، لا يصح

البحث فيها عن المقدار والمقياس عددا وبعدا وزمانا » ، ولكن هذا القول لا يزال الشبهة ، ولا يحل العقدة .

في الفيزيكا بديهة معروفة باسم واضعها ، يقال لها قانون كرونو : لنفرض وجود جحرتين متجاورتين ، درجة الحرارة في إحداها 30° وفي الأخرى 20° ، فإذا وصلنا الجحرتين بفتح الباب الذى بينهما ، سرت الحرارة من إحدى الجحرتين إلى الحجر الباردة ، فإن كانت الجحرتان متساويتين حجما هبطت حرارة 30° خمس درجات وارتفعت حرارة الأخرى من 20° إلى 25° درجة ، وحدث التوازن بينهما على هذا النحو . ولكن لا يمكن أن تهبط حرارة إحدى الجحرتين من 20° إلى 15° وأن تصعد حرارة الأخرى من 30° إلى 35° ، ومن حيث إن هذا المثال يمكن تطبيقه على جميع الحوادث ، فقد وضع كرونو قانونا عاما وهو : « أن سير القوى يقع من الضغط (Tension) العالى إلى الضغط المنحط » ، وهذا القانون من البديهيات . كما اتضح من المثال السالف الذكر .

ومن حيث إنه لم يكن في الفضاء قبل ظهور الكائنات المادية شئ غير الأثير ، وكان هذا الموجود لطيفا للغاية ورا كدا وباردا (درجة الحرارة فوق الطبقة النسيمية هي « — ٢٧٣ » تحت الصفر) ، أفليس هذا الأمر يخالف القانون البديهي السالف الذكر ، أن ينشأ في حضن هذا الأثير بروتونات أكثف (منفردة) من الهواء بكتريون مرة (10^8) وأكثف من الأثير على الأقل (10^4) مرة ، وظهور الكواكب النارية إلى آلاف من درجات الحرارة من تركب تلك البروتونات وامتزاجها ؟ قد يسرد الحكيم المتفطن إزاء ذلك احتمالا آخر ، إزالة للتناقض ، أن القوانين التى كانت عند ظهور العالم واعتلائه قد تنعكس في عهد فسادته وانحطاطه ، ولكن إذا أنكرت البديهيات العقلية والقوانين العلمية بناء على الاحتمالات ، لا يبقى مسند للباحثة والمناظرة ؛ وظاهر أن الحكيم المشار إليه تأمل ذلك بعين الإنصاف ، إذ يقول في النهاية : إن تلك الزوابع قد حدثت بتأثير سبب غير معلوم ، وقوة مجهولة . ونحن نوافقه على هذه الحقيقة

نظرية الأنوم

وإذا قبلنا ، بصرف النظر عن هذه الاعتراضات المحققة ، أن أنومات الإيدروجين ، حدثت على ما يقول هذا الحكيم ، وتتبعنا سلسلة التكوّن ، رأينا أنه باتحاد بعض هذه الأنومات ينشأ أنومات الأجسام البسيطة (ويتفق متأخرو الحكماء على أن العناصر نشأت من امتزاج أنومات الإيدروجين في صورة يتعسر تحليلها حتى الآن) وتبقى هذه الأنومات منفردة في بعض الأحيان ، وتتحد أحيانا ، فتشكل الذرة (المولسكول) ، ثم تنشأ الأجسام البسيطة من اتحاد ذرات من جنس واحد بتأثير الجاذبة والدافعة ، تاركة بينها مسام كبيرة نسبة لجرمها . وتنشأ الأجسام المركبة من امتزاج أنومات الأجسام البسيطة المختلفة في نسب مختلفة ، وتنشأ المواد العضوية والأملاح وغيرها . وهذا الارتباط القويم بين أنومات الإيدروجين لتشكل العناصر ، وامتزاج أنومات الأجسام البسيطة لحدوث الأجسام المركبة (ويمكن فكها وتحليلها بالأصول الكيميائية) وكل ذلك نتيجة توافق في ماهيات مختلفة ، ولكن ما حقيقة هذه التوافقات ؟ لو كانت نتيجة جاذبية بحتة للزم اتحاد الأنومات بمجرد ظهورها ، ولزم أن تتشكل من كافة الأجزاء كتلة واحدة . . فقوانين التوافق بين الأنومات ووقوع الامتزاج بينها في نسبة معينة ، لا تزال مجهولة لدى الحكماء .

يفهم بالتحليل الطيفي أن السحاييات حدثت من اختلاط غازات الإيدروجين والهليوم والنبوليوم ، وأن بعض الكواكب والسيارات حدثت من انجذاب أجزاء السحاييات إلى مراكزها وتكاثفها ، أو من تصادم السحاييات ببعضها ببعض ، أو بأقوام الشهب . ويشاهد أن كل مجموعة كوكب تحافظ على استقرارها بقوانين الجاذبية ، ولكن ما أصل القوة الجاذبة التي تشكل الأجسام وتكثف السحاييات ، وتثبت السيارات حول الشمس ، والأقمار حول السيارات ؟ وهذا أيضا مجهول .

تظهر النباتات والحيوانات بعد ما تتكون السيارات وهبوط الحرارة إلى الاعتدال فوق سطحها . فما هي القوة النامية والحيوية التي فيها ؟ يقول جُستاف لويون مجيبا عن ذلك : « في الوقت الذي نعجز فيه عن إيضاح السبب في سقوط حجر ، لا يجوز البحث في حوادث الحياة ، فهذه مسألة ينبغي أن تُترك لأهواء علماء ما بعد الطبيعة » .

يظهر من كل ذلك ، أن العلم وإن كان قد اكتشف أشكال الأشياء وظواهرها وعلاقات بعضها ببعض ، وبعض القوانين التي تخصها ، إلا أنه لم ينفذ نظره في كلها وحقيقتها ومنشأها ومبدئها ، وأما الدين فإنه لا يعارض ما اكتشفه العلم عن المكونات والحداثات من أسباب ظاهرية ، بيد أنه يرى فوق تلك الأسباب الظاهرية قوات غيبية مؤثرة تفتحي إلى « ذى القوة المتين » . وإذن فالدين والعلم متحدان إلى حد ما في مسألة التكوين ، ولكن جُستاف لويون ، وبعض العلماء لا يرون هذه القوات المجهولة فوق الإدراك ، ويدعون أنها سيمكن حلها وإدراكها ، فذلك يمتنعون عن الاعتقاد في مسبب الأسباب ، ومن هنا ينشأ النزاع والجدال .

هؤلاء المنكرون يقولون : ليس الخالق إلا موجودا موهوما خلقه الناس في عقولهم ، على نحو ما يفكرون . حاشا وكلا ! وهم يَظُنُّون أن الإنسان لا يكاد يدرك نفسه ، حتى يشعر بذلك الوجود بدافع وجداني فطري ، ويبحث عنه . وإذا ما استثنينا بعض الغافلين المعاندين ممن يحاربون ضمائرهم ، رأينا الإنسانية بأجمعها متحدة في هذا الشعور . إننا يعجز العقل البشري عن إدراك ماهية هذا الوجود القدسي ، وعن تصور حاله وشأنه ، فتتملكه الحيرة ، وينشأ من ذلك أنواع الخلاف .

فكيف إذن يستقصى حضرات الفلاسفة المنكرين أسرار الخلقة ؟ وكيف يوضحونها ؟ إن الأثير وهو مصدر الموجودات في نظرهم شيء غير مادي ، وغير موزون ، ثم إن له أساسا ماديا يصلح أن يكون قوام جميع المكونات ! فهو من جهة لطيف إلى الغاية ، ومن جهة أخرى صلب إلى الغاية . وله قوة وقابلية لنقل الجاذبية

وأمواج الضياء والكهرباء وما عداها من السيالات ذوات السرعة المختلفة المندفعة من كل الجهات بلا انقطاع ، بيد أنه عاجز عن أدنى مقاومة لأصغر الأجرام المادية السماوية وأعظمها . هو نصف إله ، جامع الأضداد ، أبو العجب . وهذا هو الوهم والخيال بعينه . استعملتُ في شأنه تعبير نصف « إله » لأن هذا الشيء الذى يُعتبر مصدرا للعوالم ، محتاج إلى قوة مجهولة من الخارج لتحركه ، ثم إنَّ تجسُّم ما يصدر عنه واستقراره ، محمول على المصادفة لا على إرادته !

إن فكر البشر يقبل ويدرك كون الشيء فوق الإدراك ، لأن الإنسان يجد حوله ما لا يدركه حالا ومستقبلا ، فهو يعترف بضميره وبدلالة شعوره وتجربته ، وما مر عليه من الحوادث ، بوجود أشياء خارجة عن إدراكه . فهل الإيمان بقدرة فاطرة فوق الإدراك أو فوق للفطرة أو تخيل مجموعة من الأضداد وافترضها سر الخليفة ؟! ومع هذا ، فإنى لست من الذين يَرَوْنَ وجود الأثير وظهور العوالم منه خارج الإمكان . ولكنى أرى فيه لاهوتية حتى تكون لها هذه الخواص ، وحتى أراه كصورة مبسطة ومنتشرة للقدرة السبحانية ، لأن الأعراض والأوضاع التى تسند إليه ، فيها من التضاد والتناقض ، ما يخالف تعقلنا الفطرى ، وما يغير أحكام علومنا اليقينية . ومن حيث إن إدراك البشر لا يسع مثل ذلك الوجود الجامع للأضداد ، فمن الضرورى اعتباره لاهوتيا ، وفوق الإدراك ، حتى لا يُظن أنه عبث .

ثم إن العقل لا يقبل إمكان ادعاء الكشف علما عن كُنْه السبب الذى حرَّك الأثير منذ زمن طويل لا يحيط به التصور . ولكن الأمر كما ذكرنا فيما سلف ، أن المدعىات المجردة يصعب جرحها عقلا ومنطقا ، لعدم استنادها إلى سبب معقول ، فأمرها إلى العقل والطبع السليم ، يقبلانها أو يردانها .

إن « جستاف لوبون » لا يكتفى فى أمر التكوين باعتقاد دينى بسيط ، ويؤمل إمكان كشف الجبهولات جميعها يوما ما ، ولذلك يشجع الناس على تحرى الحقيقة ،

مشيرا إلى أن في ذلك فوائد عظيمة ، كتوسيع العلوم والفنون والتعمق فيها ولكن هل من دين يؤمن بالخالق ، يمنع معتنقيه من تحرى الحقيقة وتوسيع نطاق المعلومات ؟ لا توجد أمثال هذه الأحكام في مذهب من المذاهب ، ولا سيا الإسلام ، فإنه يدعو إلى الاستدلال في الإيمان ، ويحفز الأمة إلى اكتساب العلم والعرفان ، بكثير من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية .

وهناك جماعة من الفلاسفة ومنهم « سبنسر » السالف الذكر ، يعتقدون في سرٍّ غير مُدرَك ، ترجع وتنتهى إليه جميع الأسباب والقوات العاملة في تكون العوالم ، ويبجلون ذلك السر كلما مر ذكره . ويرى هذا الرأى قريبا من الاعتقاد الإسلامى في أول الأمر . إلا أن هؤلاء الفلاسفة يقعون في الإفراط والمبالغة في مفهوم « فوق الإدراك » ، فيقولون بأن إدراكهم لا يتسع للصفات الإلهية التى تؤمن بها الأديان ، فينكرونها . ولكنى لا أدرى لماذا لا يقبلون ما تؤمن به الأديان من الصفات ، في حين أنهم ينعنون ذلك السر الأعظم بأنه فوق الإدراك ، وبأنه المطلق ، والوحيد ، أى أنهم يسندون إليه الصفات . والصفات التى يؤمن بها دين الإسلام في الخالق المتعالى عن إحاطة العقول ، هى صفات يلزم من فقدانها وجود أصدادها ^(٢٧) ، فإذا كان الشيء غير أزلى وأبدى كان حادثا وفانيا . وإذا لم يكن قويا وقادرا كان ضعيفا وعاجزا ؛ وإذا لم يكن حيا وعالما كان ميتا وجاهلا . فهل السر الذى يعتقد الفلاسفة كذلك ؟ وإذا لم يكن كذلك فليكن لهم وحدهم ^(٢٨) .

يُستنتج من هذه البيانات والملاحظات ، أن المنصفين من الحكماء الطبيعيين يقبلون ويسلمون بتأثير بعض قوى خفية في الأصل والأساس ، مع تأثيرات الزمان في أمر تطور أنواع المكوّنات أو انحطاطها ، وليس بين هذا الرأى وبين التعاليم الدينية خلاف . والدين الإسلامى مع أنه يخبر بأن بعض القوات الخفية الإلهية عاملة في أمر الخلقة ، فإنه لا ينكر أبدا تأثير الزمان في الانقلابات الكونية .

لكن بعضا من هؤلاء الحكماء كما ذكرنا آنفا ، وعلى رأسهم الدكتور جستاف لوبون ، يؤمنون اكتشاف هذه القوات المجهولة وحقائق الأشياء يوما من الأيام . وبعضهم — وينبغي ذكر سبنسر على رأسهم — يرون في أمر الخلقة سرا لا يعلم ، ولا يمكن أن يحيط به الإدراك . ولو استطاع العلم اكتشاف مسألة واحدة تتعلق بأصل الأشياء وماهيتها لصح عقد الأمل على نحو ما يأمل الدكتور جستاف لوبون . ولكن ما فعله العلم إلى اليوم ، هو عبارة عن إيضاح الحوادث والحركات والسكنات — مستندا إلى الأسس التي وضعها وافترضها الحكماء من تلقاء أنفسهم — دون أن ينفذ في كنه شيء أو في ماهية قوة . لا شك أن العلم قد ارتقى ارتقاء عظيما في زماننا ، واكتشف كثيرا من الأشياء ، بيد أن كل ذلك خاص بالأشكال والحداثات ، ولكنه لم يقترب بتاتا من المسائل المتعلقة بالأصل والجوهر ؛ فلا حقه في أن يدعى قائلا : « قد اكتشفنا هذا السر أو ذلك ، وسنكشف غيره وغيره حتى نصل إلى أصل الأصول في آخر الأمر ، فالأصوب والأوفق للعقل ، الفكرة القائلة إن في أمر الخلقة سرا عاليا يعجز الفكر والذكاء البشرى عن الإحاطة به . وإذا ما قبل وجود القوات المجهولة ، فليس مما يغير العلم قبول القوة المنظمة (Force régulatrice) التي توحد وتنظم ما بها من التأثيرات المنفردة والمتفرقة في هدف واحد ، أى في تكون هذا العالم واستقراره وتطوره .

والعلم الذي يرى حاجة إلى مثل هذه القوة المنظمة والمصورة في الحياة الحيوانية ، إنما يعترف بعجزه عن الوصول إلى حقيقتها^(٢٩) . ولا ندرى كيف يستغنى عن مثل هذه القوة العالية في أمر تكوين العالم . بل إنه ليس هناك مانع علمي من الاعتراف بمثل هذه القوة الفاعلة التي ينبغي أن تكون مهيمنة على سائر القوى ، وأن تكون سببا أصليا لها .

ثم إن العلم يعلم أن كل نقطة حاملة حولة خصائص الجبلية ، والحولة محتوية على لب الأوصاف التي سيحملها كل ذى روح ينشأ منها . إذن ، فبأى حق

يجوز الإدعاء بأن القوة والعلة الأصلية للتكوين تكون محرومة الحياة المنبثة في المسكونات وما لها من الأوصاف . وإذا تقوض هذا الادعاء لم يبق في يد المنكرين سند لإنكار الصفات التي ترشد إليها الأديان عن خالق المسكونات جلّ شأنه (٣٠) .
ومن تأمل هذه الملاحظات بروح الإنصاف ، يعترف بأن ليس بين العلم والدين وخاصة الدين الإسلامى خلاف أساسى فى أمر التكوين .

* * *

إنه مما يتخذ وسيلة للتعريض بالدين ، عبادة الله والخوف منه . وإذا كان الشعر البديع ، والتأليف النفيس ، والتصوير الجميل ، والتمثال الرائع ، والاختراع النافع ، والاكتشاف المهم ، والمنقبة الحماسية ، والخدمة الوطنية ، تلقى فى قلوب الناس احتراماً ومحبة لفاعلهما ، فكيف يُعتبر من العبث تقديسُ الإنسان خالقَ العوالم وحافظها ، والمنعم على نفسه ؟ وقلب الإنسان يغم شكريا وثناء لمن يحسن إليه بأقل جميل ، فكيف لا يحمّدون من وهب لهم نعمة الحياة بالدعاء والعبادة ! والناس يجتنبون ارتكاب المناهى والفواحش والقبائح خشية من الحكومة والمحكمة ، فكيف لا يخافون أحكام الخاكين وعالم الغيب والشهادة . وما هو الحظ فى إنكار مثل هذه الأحكام والعقائد الدينية المكنونة تحتها الفوائد الاجتماعية والاستهزاء بها ؛ وما السبب والضرورة لإنكارها ؟ لا أفهم ذلك .

ثم إن الطبيعيين يقولون كما ذكرت آنفاً : إن العلم والفلسفة واجبهما الفحص عن أسرار الطبيعة بالأبحاث العقلية ، والتجارب العلمية والعملية ، فينبغى لهم أن يجتنبوا ويتباعدوا عن التفسيرات البسيطة المستندة إلى ما بعد الطبيعة ، وإلى النظريات المتعالية عن الإدراك ، أى العقائد الدينية . وإن كان قولهم هذا خاصاً بهم ، مقصوراً على أنفسهم ومساعيمهم فلنسكت عنهم . وأما الأمر الذى لا يرون الاشتغال به لازماً فبيان الرأى والنقد فيه مغاير للمنطق والإنصاف . وعلى هذا يكون السعى إلى إبطال العقائد المقدسة التى قد أدّت وظيفة منهاج السلامة منذ آلاف

السنين ، بالهجوم على الأسس الدينية ، والإخلال بالقواعد الأخلاقية في ضمنها ، وإفساد الشبان وإضلالهم في النتيجة ، ظلما عظيما وإثما كبيرا على القائلين به ، ولا سيما جُستاف لوبون ، فإنه ليس من منكرى الحقيقة التاريخية ، وهى أن « المدنية قد نشأت من الدين » .

الماربوره عنرنا

والآن يجدر بنا أن نتكلم قليلاً عن الفلاسفة الماديين الذين نشئوا بيننا : عرفت في الأيام الأخيرة رجلا معروفا بين جماعة المثقفين . وانتقل الحديث بيننا إلى موضوع توارث خصائص الجبلة ، أو النزوع الجبلي (أنا أستعمل هذا التعبير مقابل Atavisme وهو توارث الأبناء والأحفاد للخواص المعنوية من الآباء والأجداد) وكان منى أن أوردت كلمة لكميل فلانماريون عن الروح ، فاستغرب هذا المثقف كلامي ، وقال : وهل للروح وجود ؟ ولم يكتف بهذا ، بل زاد الطين بلة بأن استأنف حديثه قائلاً : « يتكلمون عن الروح ، ويبحثون عن الخالق ، دون أن يفكروا في أن هذه العوالم وهذه الدنيا التى نعيش فيها أزلية ، ولا محل للبحث عن خالق لها » . ويُسْتدل من هذه الكلمات على أنه يجهل علم الهيئة ، وأن اشتغاله بعلم طبقات الأرض ناقص سطحى ، كاشتغاله بالفلسفة ؛ إذ لو كان له بعض المعلومات الابتدائية لَعلم أن للشموس وتوابعها عُمرًا محدودا ، وأن من الشموس ما هى في سن الشباب ، وماهى في سن متوسطة ، وماهى طاعنة في السن كشمسنا ، وأن في مجموعتنا الشمسية أجراما على أحوال مختلفة ما بين نارية (كالشمس) وقريرة (كالقمر وأمثاله) ولعلم بما مر على قشرة الأرض من الأدوار ، ولعلم أيضا أن كل معرّض للتحول حادث وفان ، ثم إنه لو تنبّع رقى العلم لَعلم أن أحدث النظريات تقول على خلاف الاعتقاد السائد إلى وقت قريب : إن المادة لا بد فانية زائلة . فلما أشرت إلى ذلك انتقل بالبحث بكل لباقة إلى موضوع التوارث ، وعندئذ

سألته عن الشيء الذى تنتقل به الخصائص من الأجداد إلى الأحفاد ، بطننا بعد بطن ، لأننا إذا اعتبرنا الهوية الإنسانية عبارة عن المادة ، فجميع الذرات والأتومات التى فى البنية الحيوانية تنحل وتبدل فى مدة قصيرة ، فاعترف بالعجز ، مع أنه كان من الممكن أن يجيب بجواب ما ، غير أنه صرح بأن رأيه فى عدم وجود الروح لم يتزعزع مطلقا ! وأما عن الخالق جل شأنه فقد قال : بما أنه لا يمكن إثباته علميا فلا يدعى عدمه ، ولا يصدق وجوده ، وعبر عن رأيه هذا بكل غرور . وقد كان هذا الرجل من المدرسين !

إنه ليتضح من أقوال هؤلاء الناس أن ليست لهم فكرة صحيحة شاملة فى العلم والإثبات العلمى والتجريبى ، فإن العلوم الرياضية تثبت دعاويها بالحساب ، والعلوم الحكمية يُبرهن على أحكامها بالتجارب ، وثمة أيضا علوم اجتماعية تتقرر مباحثها وأحكامها وقواعدها بالدراسات التاريخية ، والمشاهدات اليومية ، والقياسات والاستدلالات والمباحثات النظرية ، بل بالسنوحات الوجدانية . والمباحث الاعتقادية داخلية فى الصنف الأخير ، أى فى العلوم الاجتماعية . ولكن هؤلاء المثقفين لا يريدون أن يحملوا أنفسهم مشقة إثبات دعاويهم الواهية بالاستدلال العقلى فى إثبات الخالق والروح ، بل يريدون إثباتهما بالتجارب التى تقع فى المعامل العلمية . ويالها من مغالطة عمياء وضلال مبين !

وكنا نقابحت مرة مع رجل مُدَّعٍ للعلم ، فانتقل بيننا الكلام من قول الفيلسوف دكارت « إني أفكر فأنا موجود » ، إلى بحث الفكر والروح ، فقال لى الرجل : « ما دام الدماغ موجودا فى الرأس بكامل عظمته ، أفليس من العبث الانقياد لأمثال هذه الأوهام ؟ ولم نطلب فى الظلمات الشيء الموجود فى رأسنا ، وأمام أعيننا ؟ » فأجبت عن ذلك قائلا : « أراكم من الدماغ المنح المادى الذى تتغذى نحن بما يخص الحيوانات ، ويتغذى بعض الوحشيين فى أفريقية أو أستراليا بما يخصنا منه ؟ » فقال : « نعم ، إن الفكر والعقل مكنوزان فى حُجَيَّرات الدماغ ،

ومنقوشان في تلافيفه» ، فطلبت منه الدليل ، فخطبني كأنما يقرر لي درسا في التشريح ، قائلا : « إن للدماغ ارتباطا بكافة أعضاء البدن ، وكل نقطة منه ، وإنَّ التأثير الذي يحدث في أى عضو من أعضاء البدن من جراء تأثير خارجي ، ينتقل إليه بإحساس الحاسة ، ثم ينقل الإرادة الحاصلة بهذا السبب إلى الأعضاء ، فإذا طرأ مرض أو انقطاع على الحجيرات الدماغية التي تمثل الخواص الإنسانية ، أو الأعصاب والأوردة التي تربطها بأعضاء البدن ، اختلت الماسكة أو الحاسة التي تمثلها اختلالا مؤقتا أو دائما » . وقد كنت أعلم بكل ذلك بتفصيلاته ودقائقه . بيد أننا لو صرفنا النظر عما اكتشفه العلماء من الدقائق ، وما صادفوه من أسرار الخلقة فيما يختص بمسائل الحس والإدراك والإرادة ، وقبلنا هذه الكلمات بكامل بساطتها ، فهل يكون ذلك برهانا على أن الحقيقة الحيوانية والشخصية البشرية عبارة عن قطعة اللحم التي نسميها الدماغ ؟

إذا نظرنا إلى جهاز تلغرافي رأينا اللاقطة والمرسلة مرتبطتين بأسلاك إلى البطارية الكهربائية والخطوط التلغرافية ، وتستمد أسلاك الارتباط قوتها من البطارية ، فتتلقى الأخبار من الخارج وترسلها إليه ، فإذا انقطع أحد تلك الأسلاك أو انكسر أحد المسامير التي تربط تلك الأسلاك بالجهاز فلا سبيل للمخبرة . وفي هذا تمثيل بسيط للدماغ للمادى في الجسم البشرى . فهل يتصور أن حقيقة المخبرة التلغرافية عبارة عن هذا الجهاز ؟ لا شك أن الذى لا يعلم شيئا عن النظريات الكهربائية قد يبحث عن عوامل أخرى لهذه الكيفية ، ولربما ينتقل فكره من جهة إلى عامل المخبرة أو إلى المهندس الذى بنى تلك المؤسسة ، أو إلى المخترع الذى اخترع التلغراف ، أو من جهة أخرى إلى البطارية الكهربائية أو الأجزاء الكيميائية التي فيها . بيد أن الفكر يصل بعد إنعام النظر إلى السبيل اللطيف أو إلى القوة التي نسميها الكهربائية التي لا نعرف ماهيتها .

وهناك مثال أوضح من ذلك وهو : أن الزنبرك يؤدي إلى حركة تروس

الساعة ، والرقاص يتكفل بانصراف قوة الزنبرك في دائرة التدرّج ، وتنظم الحركة . وإذا استقصينا الأمر وجدنا أن الساعة تمشي من جراء قوة المرونة المنطوية في الزنبرك ، وأن تأثير الرقاص منبث وممتولد من قانون طبيعي . وفي باطن كل شيء سبيل لطيف على نحو هذه القوة الخفية . وكذلك العقل والروح . إن البشر لم يكذبوا يكشف الكهربية من آثارها حتى كَوَّن عنها فكرا ، واستعملها في مصالحه ، في حين أنه أدرك الحياة منذ ظهوره ، ولم يَكُونُ فكرا عن كنهها ، ولهذا سيبقى كنه القوة الغيبية التي نسميها الروح مخفيا إلى النهاية . إن الجسم والأعضاء وفي عدادها الدماغ ، كأجهزة دائرة التلفراف والزنبرك والرقاص . أما النفس والروح فكالكهربية والمغناطيسية والمرونة وأمثالها من اللطائف المكنونة في الطبيعة ، ولكن الروح لَدُنِّيَّةٌ قُدْسِيَّةٌ أكثر من كل ذلك . أظن أن الأديان تتصور الروح هكذا . فهي لا تفرض الروح شيئا مجسما كالـدماغ المادي ، الذي يكتسى غطاء ساعرا يخفيه في ناصية من الجسم ، ولا شك أن ما تقول الأديان أسمى وأوفق للعقل . فإن الذين يزعمون أن الشخصية البشرية عبارة عن الدماغ ، مثلهم كمثل الذين يظنون أن حقيقة التلفراف هي اللاقطات وأمثالهم من خفاف العقول . ومع هذا فإنني أريد أن أذكر هذه الأمثلة تفهيمًا أن وراء الأشياء والحادثات حقائق خفية ، ولا أريد أن أقول إن الروح أو النفس الإنسانية مطابقة لهذا التصور . فلا محل للاعتراض لأنه لا جدال في التمثيل .

وكان لي صديق من الأطباء الأذكىء الحاذقين ، توفي قبل سنين . وكان يعتقد أن كثيرا من منابع الحياة مجتمع في البنية الحيوانية ، وأنه ليس لعموم البدن روح منفردة ، وأن الحياة الحيوانية هي مجموع القوات الحيوية الموجودة في حجيرات البدن ، وكان يشبّه كيفية الحياة بثقل الجسم الجامد ، وهو عبارة عن مجموع ثقل الأتومات التي يحتوى عاينها هذا الجسم ؛ ويشبّه الروح الحيوانى بمركز الثقل ، ويرى أن لكل حجرة حيوانية كافة الأحوال والخواص المندرجة

والمشهودة في الحياة ، بمقدار جزئى لا يكاد يُشعر به في حال انفرادها ، ولكن تظهر آثار الحياة باتحاد بلايين البلايين من الحجيرات في الجسم الحيوانى .

وهذا القول من الفرضيات المعلومة للماديين بتعبير آخر ، ويرى أوفق للعلم من رأى المنكرين الذين سبق ذكرهم آنفا ، ولكن يظهر عند التعمق أنه أيضا ليس بمطابق للحقيقة ، لأن الأجسام الجامدة ، سواء كانت من حيث مقدارها أو مركز ثقلها ، مرتبطة بأجزائها ارتباطا شديدا وتابعة لها بصورة قطعية ، وهذه الأجزاء إن قلت أو كثرت ، تغيرت صورة تركيبها بتغير النقل العمومى للجسم ، وموضع مركز الثقل ، والجسم ما دام حافظا جسيمته وحائزا مقدارا من أنوماته مجتمعة متمترجة ، لا يزول عنه الثقل ولا يتغير مركزه . والحال أن الأمر بعكس ذلك في الجسم الحيوانى ، فالقسم الأعظم من أجزاء البنية الحيوانية والحجيرات يتبدل دائما ، وليس للحيوان ذى الروح علم بذلك ولا هو متأثر منه . حتى إذا مات الحيوان بسبب من الأسباب والحجيرات موجودة ببذنه ، ظلت هذه الحجيرات محافظة على حياتها مدة يسيرة ، ثم تحول بعضها إلى الهيكل العظمى ، وبعضها إلى الجمد ، وانسخ بعضها بعد زوال ارتباطه بالبدن ، وانقلب إلى حشرات أخرى .

فيُفهم من هذا أن ما فى الجمد من مركز الثقل ومحصلة القوى تابع كلها للأجزاء ، وحياة الحجيرات فى أبدان الحيوانات تابعة لحياة تلك الحيوانات . فعلى هذا لا تشبه العلاقة التى بين الحياة الحيوانية وبين الحجيرات البنيوية ، الرابطة التى بين الجسم الجمد وبين أنوماته أصلا ، فهما متضادتان تضادا تاما ، وبناء عليه فتشبيه الدكتور غير موافق وقياسه قياس مع الفارق . وكذلك إذا قبل فى الحجيرات ماهية حيوية غير مادية ، فالتمسك بما يتعذر إثباته بالحساب والتجربة من الفروض للحياة الحيوانية لا يفهم سببه وحكمته .

نظرية موناڊ

ونظرية «موناڊ» التي وضعها «لايبنز» في العناصر الحيوية ، خليق بالقبول إلى حدّما . لكن يلزم على هذه الحال أن يكون « الموناڊ » شيئا مغايرا للأتومات المادية مغايرة تامة وأن يكون توليده بالنفوذ في العضوية النباتية والحيوانية بتقدير الله وتدييره ، وهذا أمر أقرب للعقل ، وإلا ، أى إذا كانت العوالم حاصلة من « الموناڊ » ، وحادثة من اتحادها واجتماعها بالصدفة فيلزم ألا يكون فرق كبير بين الجمادات والحيوانات .

ويمكن أيضا أن يكون الموناڊ حدث من الأثير ، لكن على أسلوب وصورة غير أسلوب تشكل الأتومات والإلكترونات^(٣١) .

ويحسن بنا أن ندرس مسألة الحياة ، مستفيدين من هذه الوسيلة : إنه من الأمور الواقعة عند تشكل النطفة في رحم الأم ، أن الأجزاء المادية تتراكم وتتركب في صورة منظّمة مطردة على أنموذج معين لإيجاد الجنين . ولا شك أن هذه الكيفية ليست من آثار التصادف الأعمى . بل إن هذه الحالة والكيفية التي تتكرر على هذا النحو كنتليونا أوسكستليونا من المرات في العام في جميع التولدات الحيوانية ، لا بد أن تكون تابعة لقانون وقاعدة ، والقانون والمصادفة ضدان لا يجتمعان . ولا يمكن حمل هذا التشكل على مهارة النطفة وحذقها . وإذا تصورنا النطفة ذات روح في حالة بدائية ، كان من العبث القول بأنها في حالتها الابتدائية تفعل ما لا يمكن أن يفعله وما لا يمكن أن يفهمه ذوروح في حال كماله . فمن المحال أن تتشكل النطفة وتتطور جسما حيوانيا دون أن تكون خاضعة لمؤثر معنوى . كما أنه لا يتصور حلول الأجزاء المادية التي تجول في الماء والهواء في الرحم بواسطة التنفس والتغذى ، واجتماعها حول النطفة بميلها الطبيعي ، وتديورها وإرادتها لتشكيل الجنين ، لأن الاكتشافات العلمية تدل على أن الأجزاء المادية تتحرك حركة قسرية خاضعة لقوانين معينة

ولكنها مجردة من الإرادة الذاتية . والكيميائيون يركبون هذه الأجزاء المادية على النحو الذى يريدونه ، وفى النسبة التى يمينونها ، لاستحضار المواد المتنوعة والأملاح ، بل الحجيرات ، ولكنهم لا يستطيعون إنتاج أبسط الآثار الحيوية . أما افتراض أن الأجزاء المادية تكتسب حالة غير مادية لتشكيل العضوية ، فهو قبول للروحانية . والعلماء باعترافهم أن الماديات والروحيات ليست مشتركة المقياس ، يسلّمون بكون هذين الموجودين يختلفان تمام الاختلاف فى ماهيتهما فى هذا العالم ، إلا أنهما قد يتحدان فى مصنع القدرة الإلهية ، لأنهما من آثار مُنشئ واحد ، ومن صنع صانع واحد^(٣٢) .

إذا تقدمنا فى بحثنا خطوة أخرى ، رأينا أن الطفل لا يكاد يولد حتى يريد أن يحافظ على حياته ، فيطلب الغذاء . ومن حيث إن الطفل البشرى لا يكاد يولد حتى يقابل بعناية خاصة ، فإنه يكون عند تولده فى غاية العجز . ولا يقدر على إفادة ألم جوعه أو ألم اغترابه من العالم العالى الذى هبط منه ، إلا بالبكاء . أما المهر والحمل وأمثاله فبعد التولد بدقائق تقوم وتدّرج وتشم الأطراف ، حتى تصل إلى حضن أمهاتها ، ثم تجدد وتكدّ حتى تجد أئداء أمهاتها ، وترضع ألبانها ، بتحريك شفاهها بأصعب الحركات التى قد تصدر منها فى طول حياتها على هذا النحو . وتتناول غذاءها ، وكلّ ما تنال حين تولدها من المعونة المادية هو لحس أمهاتها . ولا يتصور أن قد علمتها أمهاتها فى أذنانها ما ينبغى لها أن تفعله ، لأن كلا منهما عاجز عن إفهام هذه الحركات الدقيقة بعد ما يكبر أيضا . ومنذ نشأة الجنين فى رحم أمه ما كان يقدر أن يقوم على أرجله ، وما يتناول غذاءه بفمه بل بسُرتة . فمن ذا الذى علم هذا الحيوان كل ذلك^(٣٣) ؟

إن القول بأن الغريزة (الحسّ الطبيعى) تفعل هذا ليس إلا كلاما عاميا لا قيمة له . فإن اعتبار أن الغريزة التى لا يمكن إنتاجها فى المعامل ، ولا الحصول عليها بالمعادلات الجبرية أساسا للحياة ، يعادل فى غرابطه استكناه أسرار الخلق ،

وسلسلة الأسباب لا من مبدئها بل من وسطها ، لأن الغريزة أمر حادث ، فلا بد من عطفها على علة متقدمة .

فكيفية الحياة ليست محصول الأجزاء المادية ، أو محصول القوة المادية المرتبطة بها ، أو حصيلتهما ، كما أنها ليست محصول القوات الحيوية التي في الحجيرات البدنية ، بل هي أثر سرّ عميق وحكمة لدنيّة . ويتبين من ذلك أن الملاحظات التي أوردناها فيما سبق عن السبب الأول تنطبق على هذه المسألة ، وأن الحياة التي ليست لإقسام من أقسام ذلك الكون ، راجعة إلى المسبب الأول بعينه ، ومنتهية إليه . إنه لا بد من الاعتراف بأن نعمة من نفحات القدرة والحكمة لمسبب الأسباب ، هي التي أوجدت الحياة ، وما يسميه الروحانيون موجودا لطيفا ، هو هذه النعمة الإلهية . وهذا يطابق بيان القرآن الكريم الذي يقول : « وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ » .

إن نشوء الحيوان من جهة جنسه وقوته البدنية سريع ، بيد أن قواه الفكرية لا تتكشف ، بل تنحصر ملكاته في حفظ حياته وإبقاء نسله ، وكلما كبر تناول بدل اللبن الشعير والخشيش ، ثم يشعر بالحاجة إلى التناسل ، ويفهم الخطر ويحسها فيتجنبها ، ويشعر بالخلو والمر ، والجوع واللذة . وقد يتلقى تربية بسيطة من الإنسان بفضل حافظته ، وكل شيء عبارة عن ذلك .

أما الإنسان فنموه البدني بطيء ، بيد أن خواصه الروحية كثيرة ، ومستعدة للنمو والظهور ، ومتقدمة نحو التطور الفكري ، وليس هذا التطور مقصورا على المحافظة على الحياة وطلب الذات . والإنسان يتلذذ بكل بدعة من بدائع الطبيعة ، ويتأثر من كل حال من حالاتها ، وهو مُتَقَدِّم ، مدبّر في أمر جلب النفع ودفع الضرر ، متحرّج لأسرار الخلقة والحياة ، متفكر في حقيقة الكائنات والحادثات ، وقد أدى تحفظه وانتفاعه واستقصاؤه على هذا النحو ، إلى اختراع الكتابة والمنطق والحساب والعلوم والفنون والصنائع .

وهذا الفرق العظيم بين الإنسان وسائر الحيوان محل تأمل وملاحظة، لأن الإنسان من حيث جسمه ومعيشته وتناسله قريب من سائر الحيوان، وخاصة من ذوات الثدي؛ فهل هذا التفوق العظيم ناشئ من القوة الفكرية ومن روح غير الروح الحيوانية، أو من تطور الروح الحيوانى؟ فهذه المسألة تختلف فيها بين الحكماء.

فأما علماء الإسلام فذهبوا إلى أن فى الإنسان روحاً إنسانية عدا الروح الحيوانية المانحة للحياة، ونفساً ناطقة، وهى منشأ العقل والتفكير. والقرآن العظيم لم يبين هذه الجهات بأمره الجليل [ويستلونك عن الروح قل الروح من أمر ربى]، وهذا يجعل حقيقة الروح من الأسرار. فعلى هذا يلزم أن تكون الروح مما لا يدرك ولا يفنى، تبعاً لمنبعها. وعقل الإنسان لا يمكن أن يتلقى شيئاً سوى هذا فى الروح.

وأما الفلاسفة والحكماء الروحانيين الذين أتوا منذ ثلاثة عشر قرناً إلى زماننا هذا، فعرفوا الروح بأنها جوهر روحانى مجرد عن الأبعاد، ولا يفنى؛ ولكن إطلاقهم على الروح أنها روحانية كإطلاقنا على الإنسان أنه بشر، لا يفيد فائدة زائدة، ولا يكشف عن السر، والإنكار من قبيل الكمية السلبية ليست له قيمة. إن الرياضة والحكمة والكيمياء والحيويات والروحانيات والتشريح وعلم وظائف الأعضاء وغيرها من العلوم نفذت نفوذاً كبيراً فى أسرار الخليقة، وكشفت عن أسرار ودقائق لا يمكن ذكرها بالتفصيل فى هذا الكتاب، ولا ضرورة له.

ومع هذه التدقيقات، ظل السر الحقيقى للخليقة، والأمر اللدنى لحدوث المواليد الثلاثة، والنشوء والتناسل والحس والإدراك والتفكير والإرادة، مجهولاً ومستوراً. فإنكار المسبب الأول والاعتقاد مثلاً فى الأسباب التالية كخبيبة القوة، والأنوم، والخجيرة البدنية، والحس الحيوانى وغيرها، وهى أمور محسوسة، متصورة، مفروضة لم يُكتشف ما وراءها، ولم يُعلم مصدرها، وإسناد قدرة التكوين والإحياء إليها، لا يصح أن يُعتبر إلا وثنية علمية.

قد تبدو هذه التفصيلات عن الروح في مبحث الإله خارجة عن الصّدَد ،
ولكننا لم نتخذ ببحث الروح موضوعاً لمبحث منفرد في هذا الكتاب ، حيث رتبنا
بابه الأول الباحث عن العقائد الإسلامية ، وفاقاً لأركان الإيمان ، في حين أن الروح
مذكورة في القرآن ، فيجب الاعتقاد بها ، مع أنها ليست معدودة في أركان الإيمان ،
فتعلقها بمبحث الإيمان ظاهر من قوله عز وجل : « قل الروح من أمر ربي » .
ثم إن الماديين في إنكارهم المولى تبارك وتعالى يتعمدون إنكار الروح ، غافلين
عن أنهم بإنكارهم هذا ينحطون من منزلتهم ، ويهبطون بها إلى درك الجمادات ،
ولهذا قد استحسننا البحث عن الروح في هذا المقام .

نرجع إلى بحثنا بعد ذلك : إن الأدلة القوية التي ذكرناها في سلف مع أقوال
الحكماء المشهورين تنفع أرباب العقل والإنصاف بوجود خالق قدير حكيم مطلق
ملك الخليفة علماً وعقلاً ، بيد أن عقل البشر لا يستطيع أن يتجاوز حدوده في
إدراك وجود الخالق وإثباته ، ولن يصل إلى سرّ ذات الله ، لأن الإدراك والتعقل
إنما يحصل بالقياس . وهذا أمر متفق عليه عند الحكماء والفلاسفة ، فمن المعلوم أن
الحرارة تُدرك بالقياس على البرودة ، والكبر بالقياس على الصغر ، والحسن بالقياس
على القبح ، والألوان بقياس بعضها على بعض ، وهلم جرا ؛ وقد تتسع هذه الحركة
وتتشعب بالاتّقال من البسيط إلى المركب . ولكن الأساس هو القياس والنسبة ،
إذن يجب أن يكون العقل البشري عاجزاً عن إدراك الذات المطلقة المنزهة عن
الشبيه والنظير . والعلم يعترف بعجزه في هذه المسألة . فإن الذات الإلهية سرمدية ،
كاملة في أوصافها ، ولانهاية في حكمتها وقدرتها في حين أن العقل البشري المحدود
يعجز عن إدراك السرمدية والكمال المطلق واللانهاية . ولا بد من أن يقصّر
عن إدراك السر اللدني الأعظم ، المتصف بجميع هذه الأوصاف . والفلاسفة السالمة
تسلم بهذه الحقيقة .

مسألة الزمان والقضاء

لما ورد ذكر الأزلية واللانهائية تبادرت إلى الذهن مسألة الزمان والقضاء ،
فلهذه المناسبة استحسنْتُ أن أذكر كلمات في هذه المسألة التي جرت فيها المباحثات
بين الحكماء من قديم الزمان . ولما كان وجدان البشر القاني بذاته قد أَلِفَ أن
يرى الأشياء كلها حادثة وفانية ، واعتاد أن يتحرى في الكائنات كلها مبدءاً ومنتهى ،
فإنهما إذا ذُكرا له استقصى بمتقاضى طبيعته ، ما قبلهما وما بعدهما ؛ وكل متفكر
يحس في نفسه هذه الحال . فهذا الاستقصاء يدل على أن عقل الإنسان لا يحيط
بالأزلية والأبدية ، وإذا ذُكر مبدءاً ومنتهى وعَيْنًا فلا يقنع بما بل يَفْحص
عما قبلهما وما بعدهما ، ويسترسل في ذلك ، أى لا يقبل محدودية الزمان أيضاً . وإن
كان الناس اتخذوا لتقدير الزمان مبادئ مختلفة للتاريخ ، وعينوا مدة الزمان بالثانية
والسنة والعصر والقرن ، ولكنها أمور اعتبارية . ولما كانت أفعال الأشخاص
والجماعات وحركاتهم حادثة وفانية مؤقتة ، محدودة كذواتهم ، مالوا غالباً إلى تحديد
الزمان بالتمثيل ، فأكثر حركات أهل إستانبول وأشغالهم اليومية محصورة في
أوقات قدوم البواخر والقطرُ ورجوعها ؛ ومُدد بقاء الجماعات والدول والحكومات
وتواريتهم تابعة للحوادث ومعرضة للانقلابات ، فهي لأجل ذلك محددة .
وأما الخلاق الأزلى ، القادر المطلق ، الفعّال لما يريد ، فكما أنه لا يمكن أن يتقيد
بقيد وشرط فإنه لا يمكن كذلك أن يتقيد بزمان . وبما أن الخلق والتكوين من
صفاته الأزلية ، فإنه يلزم أن يكون الزمان الذى يحتوى على شئون الخلق أزلياً وأبدياً ،
أى لانهائياً . الإنسان القاني يدرك أجزاءه المحدودة ولا يقدر على أن يدرك كله ،
ولكن إذا وجدت أجزاء شئ فلا يجوز أن يكون الكل مفقوداً ، وهذا الكل
موجود بين الأزل والأبد ، أى أنه غير محصور ، فعلى هذا الزمان والدمر المطلق
واللانهاى موجود . وقد حَسَبَ علماء الإسلام الزمان مخلوقاً لأن ظهوره يحتاج إلى

حركات وسكنات المخلوقات وتوالى الحادثات ، ولكنه وإن كان مخلوقا إلا أنه امتداد سرمدى ، على تعبير شيخ الإسلام المرحوم موسى كاظم أفندى .

وهذه الملاحظات جارية بعينها فى الفضاء . فمثلا لو قيل لرجل حصل على شهادة الكفاءة على النظام القديم . واشتغل بعدها بالزراعة أو التجارة : « إن الضياء يقطع فى الثانية مسافة ثلاثمائة ألف كيلو متر ، أى يدور حول خط الاستواء سبع مرات ونصف مرة فى الثانية ، [إن فارسا لو قطع فى كل يوم مسافة ثمانية فراسخ ، أى أربعين كيلو متر بدون موانع أرضية ، وبلا انحراف ، لقطع هذه المسافة فى ألف يوم] ، والثوابت التى تراها يوجد بينها ما هو أكبر من الكرة الأرضية بملايين وبلايين من المرات ، وهناك كواكب تبعد من الأرض ٤٥٠ مليون من السنين الضوئية ، ستمكن رؤيتها إذا بلغت الآلات الرصدية حد الكمال ^(٣٤) — لو قيل له هذا لتحير من هذا الخبر العجيب . ولكنه يسأل نفسه

بعد هذه الحيرة عما وراءه . ولقد قيل له إن هذا الملك ملحوظ امتداده ليتحرى حدوده ومنتهاه ؛ فوجدان البشر مجبول على أن يتحرى حدا للمكونات ، وهو الحقيقة على أغلب الاحتمال . فالجرة ، أو عموم الكائنات الجبرية التى هى على قول آينشتين متناهية ولكنها غير محدودة ، لو سارت من ابتداء خلقها إلى الأبد بالسير السريع ، أو ابتداء فى التكون عالم آخر بعيد عن الجرة التى تراها ، بتريليونات سنة ضوئية ، هل يتصور لهذا مانع ؟ لا شك أنه لا مانع من ذلك ؛ فعلى هذا يلزم أن يكون الفضاء غير متناه . إن قيل إن الفضاء خلاء وعدم ، فالجواب عنه أنه يمكن أن يفسر الفضاء فى هذا الموضع بالمكان ، مقابلا للزمان ، فعدم المكان يكون بعدم إمكان استيعابه للمكين ، لا بالخلو ، فهذا الحال لا يتحقق فى شأن الفضاء . العالم كله بهيئته العمومية ^(٣٥) متحرك على أغلب الاحتمال ، والحيز أو القسم الفضاء الذى شغله أو سيشغله فى أزمنة مختلفة موجود ، فبأى حق يُنكر مجموع هذه الأخواز ؟ قال « الأب مورو » : إن الشئ القابل للمساحة والتعداد وله أجزاء معينة

ومنفردة ، لا يمكن أن يكون غير متناه . وهذه الدعوى قد سعى صاحبها لإثباتها بالأقيسة المنطقية ، وليس لى قدرة على الجواب عن مثل هذه المناظرات ، ولكن الحكيم إذا سلم بالأزلية فهو مجبر على أن يقبل عدم تنهاى الشئ الذى فرض تكررهِ وتماديه من الأزل ، فحينئذ هو مجبر على أن يسلم بلانهاية مجموع الأحواز الذى تشغله الحجات أو العوالم التى حدثت من قبل ، أو التى تحدث من بعد .

وإنى لأذكر المثل الآتى لتقريب فكرة الفضاء : تمتد ابتداء من القرية المبنية على أنقاض المدينتين التاريخيتين ، سبأ ومأرب ، والكائنة فى المنتهى الشرق من بلاد اليمن إلى سواحل البحر المحيط الهندى ، وإلى حضرموت والحسا وسواحل خليج البصرة ، أراض جرداء وخالية ليست بها قطرة من الماء ، فلو ضل رجل الطريق ووقع فيها ، ثم خرج منها سالما بوجه ما ، ورجع إلى القرية ، وسئل عن أحوالها ، لقال إنها أراض خالية من حى متنفس . ولكن إذا أصلح سد مأرب ، وسقى قسم من الصحراء بإجراء المياه فيمكن فيها المرور والعبور ، ويمكن أن تحدث فيها ، كما فى السابق ، مدن كثيرة وغابات أشجار . تحتاج الدواب الأرضية للدوس بأرجلها ، والعمران البشرى لوضع الأساس ، والنبات والأشجار لتمديد وتعميق عروقها ، إلى أراض صالحة ، وسطح الأرض مما يحتاج إليه . والموجودات الجوية سابعة لا تحتاج إلى مسند . فعلى هذا القياس يلزم أن يكون الفضاء اللانهائى موجودا ، لأنه مَسِير للكائنات الموجودة به ، ومَحَلٌّ لتجلى صفة التكوين الإلهية^(٣٦) .

فيستنتج من هذه التفصيلات أن الله تعالى مسبب الأسباب وكل شئ ، موجود سرمدى فى كل آن من الزمان ، من الدهر الذى ليست له بداية ولا نهاية ، وإرادته وعلمه وقدرته جارية ولا حقة وسارية بلا مانع فى الفضاء الذى ليست له نهاية . وهذه الملاحظات والنتائج تستلزم أن يكون كنهه تعالى متعاليا ومنزها عن إحاطة عقل البشر به ، لأن الإنسان بحسب صورة تفعله عاجز عن إدراك الأبدية والأزلية المطلقة وعدم التنهاى ، ومع هذا لا يقدر أن يتصور الابتداء والانتهاى والمحدودية

في العالم وفي الخلقة، ويستحيل فيه ذلك . فالعلم يثبت وجود المسبب الأول، ويصف عظمة شأنه على قدر الإمكان ، ويظهر عجزه عن إدراك كنهه وسرّ ذاته ، ويختار السكوت عنه مفوضاً أمره إلى النقل ، أى إلى الدين .

كررت كون الذات الإلهية فوق الإدراك في صورة قد تُورث القارى الملل . ولكن الاختلافات كلها نشأت من هذه المسألة ، فلذا كان تكرارها وتأكيدها واجبا . فإن الإنسان غير قادر على أن يمتنع عن تأمل ما لا يفهمه . فن الناس من يظن أنه عرف حقيقة الخلقة ، ويذهب إلى العقائد الباطلة ؛ ومنهم من يصل إلى حد إنكار ما لا يدركه ؛ ومن هذا ينشأ الإشراك والإنكار . فهذان هما الإفراط والتفريط ، وهما نقيجتا الاستعجال في الحكم ببادئ الرأي ، أوفرط الاعتماد على العقل والعلم والاعتراض بهما . وأما المعتدلون الذين يُعينون منصفين حدود قوة إدراكهم ، وقابلية تفهمهم ، فلا يتجاوزون عنها ، وقد قنعوا بوجدانهم بالذى قدروا على إدراكه مع سعى في تعمق الفكر ، وبهذا يصلون إلى الحقيقة .

ويُستنتج من خلاصة ما بسطته إلى الآن من الأدلة العقلية والعلمية عن المسبب الأول :

أولاً — أنه واجب الوجود وواحد . (ودليله العقلي نظرية العلة الأولى) .
وثانياً — أنه أزلى . (لأن تقدم المسبب الأول على كل موجود ، وامتناع أن يخلق ذاته من عدم ، أمران طبيعيين وظاهريان) .
وثالثاً — أنه مطلق . (لأنه غير معلول ، برى من كل شرط وقيد ، ومنزه عن الشريك) .

ورابعاً — أنه حاضر وناظر في كل مكان . (Ubiquité) (لأنه نافذ في جميع الموجودات علماً وقدرة ، وحاً كم حافظ لا تنظام العوالم . ويصف فلاماريون الخالق تعالى ، اقتباساً من نظرية نسبية الحركة وقدم القوانين ، بأنه موجود مستقر في كل لحظة من الزمان ، وفي كل نقطة من الفضاء) .

وخامسا — أنه عليم وحكيم . (أثبتنا هذا بالحسابات الرياضية للإبلاس) .
وسادسا — أنه قدير . (إذا سُلِّت المواد المتقدمة تُقْبَل القدرة المطلقة
السبحانية ، استدلالا بآثار خلقته) .
وسابعا — أنه لا يموت . (لأن العلم والحكمة والقدرة الفعالة لا تقوم ولا
تتحقق إلا بالحياة) .

وثامنا — أنه باعتبار حقيقة ذاته فوق الإدراك . (قد أثبت ذلك تكرارا) .
وهناك العقيدة التي يعلمها الإسلام عن الخالق المتعال ، فالآيات القرآنية ،
والأحاديث النبوية ، متفقة على أن الله تعالى :

- ١ — واجب الوجود ، أحد ، صمد ، لم يلد ، ولم يولد .
- ٢ — قديم ، دائم .
- ٣ — فعال لما يريد ، لا كُنْؤله ولا نظيره ، أى أنه مطلق وفوق القياس .
- ٤ — محيط بكل شيء ، أقرب إلينا من جبل الوريد . أى حاضر ، وناظر
بعلمه وقدرته في كل مكان .

٥ — عليم وحكيم ، لا حد لعلمه وحكمته .

٦ — قدير ، لا نهاية لقدرته

٧ — حي وقيوم .

٨ — منزّه عن إحاطة العقول به .

فيُرى أن الإيجابيات العقلية والعملية موافقة ومطابقة للعالم الإسلامية . إلا أن
الأديان تثبت لله تعالى بعض أسماء وصفات لتقريب الوجدان البشري إلى ذات
الربوبية ، وتحمل الإنسان وظائف وتكاليف باسم الباري تعالى . وسابحت عن
الوظائف الدينية في المستقبل . أما الصفات فإن كانت تصور تبجيل عظمة الله تعالى
وجلاله في حدود العقل ، فتُقبَل ؛ وإلا فلا . وإذا صُوِّرَ الله تعالى بحسب آرائنا

— حاشا لله — وأسند إليه ما يشبهه بنا أو بسائر مخلوقاته ، فإن ذلك يكون شركاً وإلحاداً ؛ « سبحانه وتعالى عما يصفون » . وهذا النظم الجليل برهان قاطع في هذا الباب . والقول الحق المنقول عن بعض الصديقين : « العجز عن درك الإدراك إدراك ، والبحث عن سر ذات الله إشراك » يجب اتباعه .

الصفات الثبوتية والسلبية التي لقنها دين الإسلام في شأنه تعالى معقولة كلها وطبيعية ، والتعليمات الحمدية بصفاتها الأولى منزّهة عن كل الأباطيل ، والقرآن العظيم أثبت بالآيات البينات ، أن جناب الخالق الذي لا نظير له ، ليس له كفو ، وهو منزّه ومتعال عن الأفعال والطبائع والتأثرات البشرية . ومع هذا يعترض بعض المتفكرين على الدين لقبول بعض الأوصاف ، كالحياة والإرادة والقدرة والعلم والحكمة والرحمة التي تتصف بها ذوات الأرواح ، ولا سيما الإنسان ، في الصفات الإلهية ، ويحملونه على إثبات نوع من المشابهة بين الخالق والمخلوق — حاشا لله — ويدّعون أنه إما ميل إلى هذا الظن الباطل والضلال (كالمشبهة والجسمة) ، وإما وقوع في التناقض بين تنزيه الخالق وتشبيهه بالمخلوق . ولكن يتبين بتعمق الفكر أن كلا القولين ليسا بصواب . فالأديان لا تقبل في ذات الله تعالى إلا وجود كمال هذه الأوصاف في البشر . والحق أن الاقتناع بأن خلقه العالم ليست أثر المصادفة ، يدل على الإيمان بوجود خالق مرید وقدير وحكيم ؛ لكن الخواص التي في المخلوقات كالإرادة والقدرة والحكمة متجلية من منبع أصلي بمثابة ذرة ، ونسبة هذه الذرة إلى ذاك الكل لا تشبه نسبة الذرة الضيائية إلى الشمس ، لأن الشمس فانية ومحدودة . والمنبع الأصلي الراجع إلى الخالق تعالى سرمدي ومطلق ولا نهائي ومنزّه عن كل قياس ، ومتعال ، فعلى هذا لا مشابهة بين قدرة البشر وذكائه المحدود ، وبين قدرة الله سبحانه وحكمته البالغة ، وقس عليه البواقي .

وقد انتشر بين الجهال مثل هذه العقائد الباطلة ، وأساطير وخرافات من

معتقدات الأفوام المختلفة العتيقة ، بسبب الاختلاط الذى حدث من سرعة انتشار الإسلام ، حتى إنها ، مع الأسف ، أدرجت فى بعض الكتب ، وتدخلت فيها تخيلات الشعراء أيضا . وسنبحث عن الأفكار والظنون الباطلة الغريبة التى ظهرت فى الإسلام . وفى اعتقادى أنه يجب على علماء المذاهب والفرق المختلفة ، أن يجتمعوا ويتذاكروا ، ويزيلوا هذه العقائد الغريبة والظنون الباطلة من بين المسلمين . وبهذا المشروع أرجى أن تزول الاختلافات المذهبية أيضا ، أو على الأقل أن يزول ما تولد منها من الخصامات .

فلسفة ومرة الوجود

والآن حان لنا أن نسرد بعض ملاحظات على فلسفة وحدة الوجود (Pantheisme) . ظهرت هذه الفلسفة فى الهند ، فى صفة عقيدة دينية ، وانتشرت فى الشرق الأقصى ، وتركت أثرها فى الشرق الأوسط ، ثم دخلت مصر وبلاد اليونان باسم الفلسفة . ولما كانت الأزمنة الأخيرة نسرها ووسعها مشاهير الفلاسفة ، أمثال اسپينوزا وفخته وهيجل . بناء على هذه العقيدة ، الخالق والخلق واحد ، وكل موجود جزء من الوجود الحقيقى ، ومن الكل المطلق ، وتجل من تجلياته ، فهو ينفجر من هذا المنبع الكلى ، ويسير فى الأكون ، ثم ينصب فيه ، ويرجع إليه .

بما أن التصورات والمباحث الخاصة بسر الخلق ، لا يمكن إفهامها حق الفهم ، فمن الضروري إيضاحها فى صورة تمثيلية على قدر الاستطاعة . وحينما كنت أدرس الفلسفة فى شبابى ، طالمت كتابا فيه تشبيه للنسابة بين ذات الخالق والخلق ، بالمناسبة بين البحر وأمواجه وحبيباته ، ويقول : كما أن هذه العوارض ليست غير البحر ، كذلك الكائنات ليست غير الكل المطلق ، ويريد بهذا إيضاح هذه العقيدة . ولكن أليست التحولات التى فى سطح البحر ، هى أثر الرياح على سطحه ، وأثر

الأسماك السابحة في داخله ؟ إذا قبلنا حدوث المصنوعات من تأثير الشيء الذى فى داخل الكل وخارجة ، فقد اعترفنا بوجود مؤثر . فعلى هذا يكون تحرى كنه هذا المؤثر والمسبب الأول ، واكتشاف علاقاته بالخلوقات ، مالا يمكن أن تتعلق به قوتنا الفكرية . وهذه الكيفية على ما ذكرناه آنفا ثابتة بالعلم .

فى مثل هذه المباحث لا مناص من الاعتراف بالعجز ، فإن أومن بالحرّك والمؤثر الحقيقى أو بالسر الأعظم ، فكل التحيريات فى أمر الخلقة جَمَعها فى قدرته ، ومنع العقل وكفّ اللسان من تحرى كنهه ، أوفق للحكمة .

ومع ذلك هذا المذهب الفلسفى نظرا لما كان فى ظهوره ، نزيه ولطيف وملأهم لتخيلات الشعراء ، ولهذا أخذ أشكالا جذابة للقلوب فى لسان الشعراء ، ودخل فى بلاد الإسلام من الشرق والغرب ، وصار مقبولا عند بعض الفرق والنحل . كما أن القواعد التى دوّنت ونُشرت باسم « تيوصوفى » بلغات أوربا المختلفة ، نتيجة هذه الفلسفة ، فكذلك عقيدة وحدة الوجود عند المتصوفة فى الإسلام فإنها ، قريبة من هذه الفلسفة .

لثلا يبقى محل لسوء التفهم ، أرى لزاما أن أذكر قبل كل شيء ، أن الطرق الصوفية الجادة والمعتبرة فى الإسلام ، تعتقد وجود المطلق بمعنى الإله ، وتقرّ بما بينه وبيننا من الصفات الثبوتية والسلبية ، وتؤمن بالنبي والكتاب ، وتبهر دائماً بما زيد على تعاليمه من الخرافات ، لكنها تعد ما سوى الله غير موجود ، وهذا يناق العقل والمنطق . لأن إنكار الخلوقات ، بعد تصديق الخالق والخلقة لا يتفق والمنطق . والحق ، أن الله الخالق المتعال ، هو الموجود السرمدى ، وبهذا الاعتبار هو الموجود الحقيقى . والكائنات كلها حادثة فى الظاهر ، متغيرة فانية هالكة ، ووجودها لا يعد شيئا بالنسبة إلى الأزلية ، ومع هذا لا يجوز أن يقال : إن آثار قدرة الله وآياته ليست بموجودة ، فلو كان الأمر كذلك لحسب الإنسان نفسه والتكاليف المعنوية والقوانين

الأخلاقية كلها معدومة ، وانتهى بذلك إلى أسوأ النتائج ، ولا تكون الفلسفة والعقيدة البشرية صادقة حقا إلا إذا كانت نافعة ، وإلا فهي باطلة .

ومن حيث إن الأشياء من مخلوقات الخالق الأزل ، ومن محسولات قدرته وقوته اللانهائية ، ومن آياته وأدله الباهرة على وجوده السرمدى ، فلا يمكن أن تُعدّ وتعتبر معدومة ، ولو كانت معرضة للتغير والفناء ، فإن أعمارها لا يمكن إنكارها مهما كانت قصيرة .

وأما اعتبار الصوفية الأشياء مرآة للذات الإلهية ، فينبغى حمل مثل هذه التعبيرات على الجواز والاستعارة . إني لم أنتسب إلى طريقة من الطرق الصوفية ، ولكنى قرأت فى شبانى وحفظت آيات وعبارات ، أتذكرها الآن بكال الشوق والتلذذ ، وهى أمور لا يمكن إثباتها بالمنطق والعلم ، ولا تدركها العقول المتوسطة ، إلا أنها تثير القلب من تصور معانيها المجازية ، وتتلذذ الروح منها . فلهذا لا يجوز أن تعمّ مثل هذه الأحكام فى أمور الدنيا السواد الأعظم ، ولا ينبغى ذلك .

ولا يجوز أن يدعى بأن التصوف خارج عن الحقيقة الدينية الإسلامية ، ومن رجاله الشيخ الأكبر محيى الدين بن عربى ، ومولانا جلال الدين الرومى ، المبجلان اللذان يجلبهما أكابر علماء الإسلام .

ومن أهم الغايات فى المذاهب والأديان صيانة الأخلاق . وقد كان مصير مذهب وحدة الوجود بعد ظهوره فى الهند وانتشاره كدين ، إلى أن نُشرت العقيدة بأن الذين يحسنون العمل من بين ذوى الأرواح يتقدمون فى إحراز الدرجات العاليات شيئا فشيئا ، حتى يصلوا بالتطور التدريجى إلى السكل المطلق ، والذين يسئون العمل من المذنبين ، يعودون إلى عالم الشهود فى أسفل منزلة ؛ ومن هذه العقيدة ، تولدت عقيدة التناسخ . وبيننا بعض النحل والملل الابتدائية ، ما يذهب إلى هذا المذهب ، كما ظهر المؤمنون بهذه العقيدة فى خارج العالم الإسلامى حتى بين الحكماء .

إن الإنسان مهما عرف هُويّة أبنائه نوعه ، يعجز عن النفوذ إلى ما في ضمائرهم وعن الوقوف على نياتهم ، فالتصدى للاستفهام عن مراد الله سبحانه وتعالى الذي نعترف بالعجز عن إدراك سر ذاته ، على قصد الإنكار ، يكون مردودا . والتصديق بالآية الكريمة « لا يُسأل عما يفعل » يكون ضروريا من الضروريات العقلية . ويلزم أن تُحفظ هذه النتيجة لتكون مدارا للاحتجاج والاستناد في الملاحظات الآتية .

٢ — وملائكته

والاعتقاد بالملائكة الكرام من شروط الإيمان في ديننا . وقد ذكر اسم الملائكة مرات في القرآن الكريم . ويُفهم من كل ما ذكر من صفاتها ومناقبها ، أنها موجودات لطيفة ، لا تُرى بالعين في الأحوال العادية . ولكن لا تحول الجدران الأربعة دون حلولها . وأما فعاليتها فسارية آنياً إلى أبعاد شاسعة وأرجاء كثيرة . فلذا يلزم أن يكون الملائكة موجودات لطيفة . ومع ذلك لا يمنع كون الملائكة موجودات لطيفة من أن تحدث في الدماغ البشرى إحساساً بوجودها ، أو تأثيراً فيه بأسلوب ملائم للعقل البشرى .

يشعر علم الطبيعة دائماً بالحاجة إلى واسطة لطيفة لتأثير بعض القوى والحالات ، كالحرارة والضوء والكهرباء وانتشارها . وعلى ذلك فليس من المستحيل — كما يقول المنكرون — أن يكون للناظم الحقيقي لأُمور العالم ونظامه ، وسائل تنفيذية لطيفة في المقولات والنفسيات والمعنويات ، كما في المشهودات والمحسوسات . إنه غريب جداً أن يُقال باستحالة بعض الأمور الغيبية ، بعد النظر والبحث في في عظمة الخليفة ودقائقها ، وتصوّر مؤثر حقيقى لها ، والإيمان به .

يفرض الحكماء ، كما سبق ذكره بالمناسبة ، لتفسير الحادثات الطبيعية ، واسطة لطيفة إلى حد لا تتأثر بالجاذبية ، ويسمونها الأثير . وبناء على هذا الفرض الذى يعتمد عليه كثير من موضوعات الطبيعة ومباحثها ، تنتقل الضوء والحرارة والكهرباء وغيرها من القوى الطبيعية ، وتنتشر بواسطة تموجات هذه القوة اللطيفة — كما ينتشر الصوت بالتموجات الهوائية — . غير أن تموجات الأثير تختلف في طول كل شعاع من الأشعة المكوّنة لألوان الشمس السبعة وسرعته ^(٢٧) ، كما تختلف أبعاد تموجات الحرارة والكهرباء وبعض الأشعة الكيميائية والطبيعية .

وبناء على هذا يهتز بعض الأثير دائماً بموجات لا عدد لها متداخل بعضها في بعض ، وتحدث الرؤية وكثير من الحوادث الطبيعية من هذه التذبذبات والموجات ، فتنقل إلى حواسنا . فالواقف فوق قمة « جامليجة » ناظراً إلى أطرافه أو موجها نظره ليلاً إلى الكرة السماوية ، يصل إلى حدقة عينه ، بناءً على هذا الفرض ، كثير من أشعة المباني والأشجار والسفن وآلاف من الكواكب مختلفة اللعان ، أو بعبارة أصح ، تصل أشعة ترسلها الذرات الخارجية المحيطة بالأشياء الواقعة تحت نظره ، من جهات مختلفة ، ولا يحدث أيُّ تشوش واضطراب في تلك الساحة الصغيرة من هذه الموجات ، التي لا يحصرها العد ، والتي تختلف في الطول والسرعة لكل شعاع من تلك الأشعة ، ولا تختل الرؤية ! فكيف يصدق الذين يشاهدون مثل هذه الأحوال دائماً ، هذه النظرية — لتسميتها علمية — ولا يصدقون القوى والأحوال الغيبية ، ويرونها مستحيلة .

ونمة أمر آخر ، وهو أنه يلزم لأجزاء الأثير التي تنفذ في كل مكان ، ألا تغيرَ أما كتبها حتى تكون أساساً لكل هذه الموجات ، أي يقتضى أن يكون الأثير أصلبَ من كل الأقسام الصلبة ، وأشدَّ من الفولاذ ! على حين ثبت أن ذرات جميع الأجسام ، ومنها الأجسام الصلبة ، متحركة بحركة دائمة رقصية متزايدة السرعة على حسب درجة لطافتها (الحركات البراونية (Mouvements browniens) ، ومع ذلك ليست لهذه الهوية الرقيقة (أي الأثير) أدنى مقاومة لحركات مالا يحصى من الأجرام الجسيمة المتحركة في الفضاء ، والأجبار السماوية ، والشهب والغبار السماوي . كما أن حركات هذه الأجرام ومرورها الدائم منذ الخلق ، لا تبدد هذه المادة الغريبة الهشة اللطيفة إلى أقصى حد ! هكذا يصدق علماءنا المحدثون ، بلا تحقيق ولا مناقشة^(٢٨) ، هذه الفرضية العلمية الخافلة بالغرائب والمتناقضات — لتسميتها علمية — ويستنهضون بما ذكرته الكتب السماوية من الموجودات اللطيفة ، بله الإيمان بها ! وخلق بأمثال هؤلاء

أن يخاطبوا بهذا المصراع للشاعر التركي فضولى : « إنك مثل بكأس الجمل والفيلة فلا تدرك نفسك ! » . إنى أعتقد أن ذكر الكتب السماوية لهذه الموجودات والسيالات الرقيقة فى زمن لم يتخيلها فيه العلم بعد ، خلى بأن يعد من المعجزات . وخلق بالتنبيه خاصة أن الحكماء الذين أحسوا حاجة إلى هذا الأثير لتفسير كثير من الأحوال والأحداث الطبيعية ، اعترفوا بكونه غير قابل للوزن ، (Impondérable) ، وثمة أسباب صحيحة لهذا . ولكن القول بعدم قابليته للوزن ، يعنى كونه غير مادي ، لأن ثقل المادة من الضروريات العلمية ، حتى إن ثقل ذرات الإيدروجين حسبت وقدرت عند العلماء . والحق أنه لا يمكن التأليف بين تلك المتناقضات إلا بالقول بعدم مادية الأثير . إذن فالحكماء يقولون بوجود غير مادي ، ويعملون الحسنّ بعالم المادة والشهادة ومشاهدته منوطا بتوسط هذا المحيط غير المادي .

ومثل هذا الفرض العلمى إذا أنعم التفكير فيه ، اتقى عن المرء العاقل الفاضل ، الليل إلى وادى النفى والإنكار والانحراف فى أمور كثيرة .

* * *

وبهذه الطريقة نفسها يمكن فرض الجن والشیطان من قبيل سيالات رقيقة ، أو موجودات لطيفة . فبينما المرء خالى الذهن ، إذ تطرأ عليه أفكار وهواجس ضارة ؛ ومن لاحظ نفسه لم ينكر هذا الحسن . وأى عجب فى تسمية ما يلقى هذه الأفكار والهواجس بالشیطان ، فما وجه الاستغراب فى هذه التسمية والاستهزاء بها (٣٩) . إن المعلومات فى الأزمان الأخيرة عن المغناطيسية الحيوانية ، والإحساس بالشئ قبل الوقوع ، والتأثر والتأثير من بُعد (Télépathie) والتلقين (Suggestion) وما شاكلها من الغرائب الفكرية والنفسية ، تفوق كثيرا المعلومات عن القوة الكهربائية قبل قرنين . فبأى شئ تحدث هذه الأحوال الغريبة ؟ والعلم يبحث عن واسطة لطيفة حتى للجذب والدفع بين ذرات كل جسم ؛ أما يتصور الذين

يَتَسَوَّنُ المَتَفَنِّينَ عِنْدَنَا ، وَسَانِطَ خَفِيَّةٍ لِمِثْلِ هَذِهِ الْأَحْوَالِ الرُّوحِيَّةِ ؟
أَلْفَ كَيْلِ فِلَامَارِيُونِ الَّذِي قَضَى زُهَاءَ أَرْبَعِينَ أَوْ خَمْسِينَ عَامًا فِي بَحْثِ
الْمُؤَثِّرَاتِ الرُّوحِيَّةِ ، وَالْقُوَى الْخَفِيَّةِ وَتَأْثِيرِهَا ، كَتَبَا عَدِيدَةً فِي هَذَا الْمَوْضُوعِ ، وَقَالَ فِي
كِتَابِهِ الْقُوَّةَ الطَّبِيعِيَّةَ الْجَهُولَةَ : « إِمَّا نَحْيَا فِي عَالَمٍ لَمْ يَسْتَكْشَفْ بَعْدَ ، تَقُومُ فِيهِ الْقُوَى
النَّفْسِيَّةِ Forces psychiques بِتَأْثِيرَاتٍ لَمْ يَسْتَكْشَفْ بَعْدَ اسْتِكْشَافًا حَقِيقِيًّا ،
ص ٥٩٩ » . وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ : « لَا أَقُولُ إِنْ الْأَرْوَاحَ اللَّطِيفَةَ كَالْجِنِّ ، غَيْرَ
مَوْجُودَةٍ ، بَلْ ثَمَّةُ أَسْبَابٍ كَثِيرَةٍ لِلْاعْتِرَافِ بِوُجُودِهَا مِنْ ٥٩٣ » .

بِنَاءً عَلَى مَا ذَكَرْتُ سَابِقًا مِنْ قَوْلِ لَا بِلَاسَ ، يَخْفَلُ هَذَا الْعَالَمُ حَوْلَنَا بِكَثِيرٍ
مِنَ الْقُوَى الْخَفِيَّةِ . وَالْإِدْعَاءُ بِعَدَمِ وُجُودِهَا لِعَدَمِ إِحْسَاسِ حَوَاسِنَا الظَّاهِرَةِ بِوُجُودِهَا
مَا هُوَ إِلَّا مَكَابَرَةٌ^(١٠) ؛ فَقَدْ كُنَّا مِنْذُ قَرْنٍ نَكَادُ نَجْهَلُ الْكَهْرَبَا جَهْلًا تَامًا . وَلَوْ تَحَدَّثَ
رَجُلٌ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ عَنْ إِمْكَانِ الْحَاكِبَةِ بِلَا وَاسِطَةٍ مِنْ أَلُوفِ الْكِيلُومِيرَاتِ فِي
لَحْظَةٍ غَيْرِ مَنْقَسِمَةٍ ، لَعُدَّ وَلِيًّا بِلَا شَكِّ . عَلَى حَيْثُ أَنَّ هَذَا الْحَادِثَ جِدُّ بَسِيطٍ عِنْدَنَا
الْيَوْمَ . وَبِالرَّغْمِ مِنْ نَقْصِ مَعْلُومَاتِ أَجْدَادِنَا عَنْ الْقُوَّةِ الْمَغْنَطِيسِيَّةِ فِي الْقُرُونِ الْوَسْطَى
نَقْصًا شَدِيدًا ، كَانَتْ هَذِهِ الْقُوَّةُ مَوْجُودَةً فِي الْعَالَمِ ، مُؤَثِّرَةً فِيهِ ، وَكَانَ قُطْبُ
الْأَرْضِ الْمَغْنَطِيسِيَّ قَائِمًا فِي النِّقْطَةِ الَّتِي فِيهَا الْيَوْمَ ، وَكَانَ الْجَوُّ النَّسِيمَى ، بَلِ الْجَسْمُ
الْبَشَرِي أَيْضًا ، مُتَأَثِّرًا بِالْحَزَمَاتِ الْمَغْنَطِيسِيَّةِ الَّتِي تَرْتَمِلُهَا الشَّمْسُ .

إِنْ أَسْرَأَ مَوْلُودًا أَمْ كَمْ يَعِيشُ إِنْسَانًا وَيَخْتَلِطُ بِالْجَمَاعَةِ الْبَشَرِيَّةِ ، وَقَدْ يَكُونُ
فِيهَا عَضْوًا نَافِعًا أَوْ ضَارًّا ، وَلَسْكَنْهُ يَجْهَلُ كَثِيرًا مِنَ الْبِدَائِعِ الَّتِي تَرَاهَا وَتَشَاهِدُهَا .
فَهَلْ يَقَالُ إِنْ قُبَّةَ السَّمَاءِ الزَّرْقَاءَ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ لِعَدَمِ رُؤْيَتِهِ إِيَّاهَا ؟ وَأَلَا تَوْجَدُ فِي الْعَالَمِ
نَعْمَاتٍ مُشْجِعَةً مُثِيرَةً لَوْجَدَ أَرْبَابِ الْإِحْسَاسِ وَالْعَشْقِ ، لِأَنَّ أَصَمَّ لَا يَسْمَعُهَا ؟ وَكَمْ
مِنْ مَكْتَشَفَاتٍ يَسْتَكْشِفُهَا الْبَشَرُ كُلَّمَا زَادَ تَطَوُّرًا ! ؟ وَسَيَكْتَشَفُ كَثِيرًا كَمَا اتَّسَعَ
ذِكَاؤُهُ وَرَقَّتْ حَوَاسِهُ وَنَضَجَتْ . إِلَّا أَنَّهُ سَوْفَ يَظَلُّ مَحْرُومًا مِنْ كَثِيرٍ مِنْ لَطَائِفِ

الخليقة ، غير أن هذه الخلوقات لا يلزم عدمها لجهل الإنسان بها^(١)
لا ينبغي أن يُستخرج من هذه القياسات والملاحظات ، أنى ادعى استكشاف
حقيقة الموجودات اللطيفة التي ذكرتها الآيات ، فإن هذه اللطائف فوق ما ذكرت
من الصور والاحتمالات ، وفي ماهية لا تحيط بها دائرة العلوم المكشوفة والمدونة .
وليس للقدرة الإلهية والطبيعة حد ولا نهاية .
وإنما قصدت بهذه المسرودات إظهار أن التصدى لإنكارها بدعوى عدم
قبول العلم لها ، ما هو إلا جهل محض .

٣ - ورسوله

والاعتقاد بالأنبياء العظام ركن من أركان الإيمان ، وشرط من شروطه الأصلية . وليس ما ينافي العقل في اصطفاء باري الكون بعض وُسطاء من بنى آدم ، لإرشاد أبناء جنسهم إلى طريق الحق والهداية ، مع بعض وسائط لطيفة ، لتأمين نظام العالم .

يقول المعارضون على هذا : « كيف يُعنى الله سبحانه مع قدرته وعظمته ، بغير نوع البشر وشرهم ، وهم يحيون حياة أدق الأحياء ، على كرة لا تزيد على حبة رمل بالقياس إلى الكائنات ، فيرسل إليهم رسلاً من أنفسهم ، دون أن يهديهم إلى طريق الحق بنفحة من الإلهام ^(٢٢) »

ويمكن الرد على هذا الاعتراض في الوهلة الأولى بالآية الكريمة : « لا يُسأل عما يفعل » . ودعوى النفوذ إلى الحكم الإلهية لخالق الكون الذي نعجز عن إدراك سر ذاته ، محدود منطقاً . أما إثبات هذه المسألة عقلاً ، فإن الله خالق الكون قد منح كل مخلوق طبعاً وجبلةً واستعداداً خاصاً . وكما أن المخلوقات يمتاز بعضها عن بعض ، فإن لكل فرد ولكل شخص من نوع واحد ميزة ورجاحة على سائر الأفراد . وهذه الكيفية من الأمور الظاهرة ومن الحقائق التي أجمع عليها العقل والنقل . ومن جهة أخرى ، إن الخليقة تابعة لقانون أصلي شامل ، كما أن سير العوالم ودوامه وتسلسله ، وامتداد نوع الإنسان وتطوره تابع لقواعد خاصة ناشئة من ذلك القانون . ومن مستلزمات هذا القانون أن حياة ذوى الأرواح ورفاهيتها على ظهر الكرة الأرضية ، قائمة على إزهاق حياة المخلوقات الأخرى ، وربما قامت على إزهاق أرواح أفراد من نوعها . فيهزم القوى الضعيف . ويهلكه في هذا القتال ، إن هذه الحال التي تبدو مكروهة في بادئ الأمر ، هي مقتضى الطبيعة وسبب

دوام الحياة . وقيام الحياة على المات حقيقة ثبتت عند المفكرين بالتحقيق والحساب . وهذا هو النظام الطبيعي لهذه الدنيا التي هي في حكم ذرة في الكون .
لا نعلم بالطبع كيف تسير الحياة في سائر الكرات السماوية^(١٣) . ولكن النوع البشرى أقوى مخلوق على ظهر الأرض بقوة ذكائه . وإذا أطلق استعداداه الفطرى لتأمين حوائج حياته وملاذئه النفسانية على حساب الغير ، وشرع في تطبيقه بلا قيد ولا حد ، فإنه يكون سببا لكثير من الفساد والفتنة ، وربما كان سببا لا قراض نوعه .

هذا ولو حُدَّ هذا الاستعداد بحس فطرى وطبعى ، فإنه يكون سلبا لإرادة الإنسان الجزئية ، وهو من أشرف المخلوقات ، وتنزيلا له إلى منزلة سائر الحيوان . وبمثل هذه الأسباب تتحقق حاجة البشر إلى الشرع والشارع .
إن الفرق بين أنواع المخلوقات ، والفرق بين أفراد النوع الواحد ، وتفوق بعضها على بعض ، واضح بين كما قلت سابقا . وبناء على هذا يمكن أن يكون لبعض أشخاص التميز بين أبناء نوعهم ، بقوة ملكاتهم العقلية ، ورقة إحساسهم ، وقد بلغوا مكانة ممتازة في طريق التطور البشرى ، استعداد للتأثر بالقوى الخفية والتلقى منها ، أو بالتعبير الدينى للوحى والإلهام . فهؤلاء الخواص ظهوروا في مختلف عصور تاريخ البشر ، وكانوا دليلهم إلى طريق الرشد والهداية .



ويمكن أن يوجه المعارضون لهذا رأى هذا السؤال : « هل كان هؤلاء المرسلون صادقين في دعوى إرسالهم من الله ؟ » .
إن هذا الاعتراض يفقد قوته بعد التصديق والتسليم وجدانا بإمكان البعث من الله ، وإصابة هؤلاء الرسل الكرام في إرشاداتهم ، وثبوت فائدتها في الدنيا والآخرة ، ومع ذلك فالرأى الآتى خليق بالتأمل :
يعترف معظم الفلاسفة والحكماء الذين بحثوا في الأحداث العظيمة الكونية

والأحوال النفسية البشرية بأن الأفكار التي كثيرا ما تخطر على بال الناس ، ناشئة من إحساس طبيعي ، وأنها إن لم تكن حقيقة محضة ، فهي مستندة على أساس صحيح على كل حال . والحق أن فكرة الرسالة المعنوية كهذه ، تأتي إلى بعض أشخاص قد تعلق قلوبهم بآمال خاصة ، وانحصرت أذهانهم وأفكارهم فيها ، واقتربت مساعيهم بالتوفيق ، وهم في المرتبة الثانية أو الثالثة من عظماء الخليقة ، الذين اعترف برسالاتهم جماعات بشرية عظيمة . فإسكندر وقيصر وأوغست من عظماء التاريخ ، كانوا منهم ؛ كما ثبت من مذكرات نابليون ، ذهابه إلى هذا الرأي بعد موقعة « لودي » . ولما كان هؤلاء وأمثالهم من الساعين خلف آمال دنيوية فليحمل ادعاؤهم على مقاصد خاصة ، وليحمل مقاصد بعضهم على داء العظمة ، ولكن من المشهور المتواتر أن سقراط كذلك كان مقتنعا برسائله المعنوية ، وتشرّفه بالتلقى والإلهام . وقد ثبت من مناقبه ومؤلفاته براءته من الأغراض الدنيوية ومقاصدها . ومن أكابر الحكماء المتأخرين هيربرت سبنسر ، ومساعيه شامدا عدل على خلوص نيته ونزاهة نفسه ؛ ذكر هذا الحكيم في أواخر بحثه الفلسفي المسمى فوق الإدراك Inconnaissable ، تأييدا لفكرة ضرورة الجهر بما يطرأ على مفكرة المرء من عقيدة ، وقال : « يجب على المرء أن يعد نفسه إحدى الوسائط غير المحدودة للسبب الخفي ، وأن يعلم أن ما حدث فيه من العقيدة هي أثر تلقينه ؛ ويجب أن يعد حصول هذه الفكرة والعقيدة عنده سببا كافيا لإظهارها ونشرها . ثم قال بعده بأسطر : « كما ينبغي للإنسان الكامل ألا يستصغر ما يعتقده ، بل ينبغي له أن يظهر بلا تحرز ما يرى من الحقيقة العلوية . وبهذه الطريقة — مهما كانت النتيجة — يكون قد قام بواجبه في العالم . إن حصل التغيير المنشود ، فهو المطلوب ، وإن لم يحصل فهذا الشروع نفسه مفيد » .

يستدل من هذه العبارات أن سبنسر يعترف بأن الناس يمكن أن يكونوا وسطاء لسبب خفي ، أو للمراد الإلهي كما نعتقد ، وأنهم يحصلون على عقائد بتلقين

غيبى يُكفون نشرها ، أو بعبارة أصح أن سينسري بحس ذلك في نفسه . إن كون الإنسان موضعاً للتلقيين الغيبى أحياناً ، صار من الأمور المثبتة بالتحقيقات الأخيرة ، أو كاد . فإني أوصى بقراءة كتاب « المجہول inconnu » لسكيل فلاماريون ، للاستنارة في هذا الشأن . وعلى هذا لا محل لاستبعاد كون الأنبياء العظام مظاهر للوحي والإلهام بأوضح صور وتأثير^(١١) .

كذلك رأى جوته ، الشاعر الألماني الشهير ، أن استلهام الأدياء بعض المصطفين من الناس ، أدنى إلى الحكمة من تلقى الإلهام من الله بلا واسطة . فليتصور إنسان يحس في نفسه رسالة غيبية ، فيشرع في إبلاغها للجمهور يكاد ينافزهم منفرداً . وينتهي إلى أن قوماً جاهلين متمسكين بعقائدهم أشد تمسك ، ينقادون لقوله . لا يجمعهم حوله بإغرائهم بالمنافع الشخصية ، بل بحرمانهم من كثير من المنافع والملاذ النفسية . ولا يكتفى بعدم قصده إلى منفعة دنيوية ، بل يُظهر الاستغناء إلى حد حرمان أولاده من ميراثه الضئيل . ثم ينشر بسرعة العقيدة التي يلقها ويعممها في الدنيا في زمن قليل ، ويضمن استمرارها ودوامها قروناً طويلة . إن عدم رؤية أمر خارق وقوة إعجاز في شخص كهذا ، خليف أن يحمل على عمى البصيرة .

سيرة النبي محمد عليه السلام :

ليست مناقب الأنبياء العظام معلومة تاريخياً ، ومسجلة بالتفصيل . وإذا أن كل حالة من أحوال الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وسيرته مسجلة مضبوطة ، فإني أبادر بتمتيع الأذهان بسيرته النبوية ، لإيضاح الدعوى . كانت قبيلة قريش التي ينتمى إليها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم منتبهة إلى إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام ، وممتازة بين القبائل العربية ، وذات مكانة عظيمة ، لاختصاصها بسدانة الكعبة المعظمة ، التي يجلبها العرب منذ القدم ، وحمايتها ولما كان الرسول من نسل بني هاشم المختصين بسقاية الماء وعمارة المسجد الحرام ،

وحفيد عبد المطلب الذى حاز رياسة القبيلة كلها مدة من الزمن ، كان شريفا من كل الوجوه ، إلا أنه كان فقيرا ، لُيْتِمَ من أبيه قبل ولادته ، ومن أمه فى سن صغيرة ، وأميا . قد مضت طفولته عند مرضعته فى الصحراء ، ومضت حياته حتى البعثة فى مكة ، وقام بأربع رحلات : إحداها إلى يثرب (المدينة المنورة) ، والأخرى إلى بصرى بالشام ، والثالثة إلى دمشق الشام ، والرابعة إلى اليمن . اثنتان منها فى سنه الصغيرة ، والأخيرة فى السادسة والعشرين من عمره ، أى قبل أربعة عشر عاما من بعثته . ولما كانت ملاقاته الراهب بحيرا فى سفرته الأولى إلى الشام فى رفقة عمه أبى طالب ، وهو فى الثالثة عشر من عمره ، فلا يحتمل اقتباسه منه . وقد اشتهر منذ صباه بالنزاهة وحُسن الخلق والوقار والاستقامة ، حتى عُرف بين العرب بالأمين . ولما بلغ الأربعين من عمره ، قام ضد قومه وقبيلته ، بدعوى أنه مرسل من الله سبحانه وتعالى ، فأعلن بطلان عقائدهم ، ودعاهم إلى الدين الحق .

لا يجوز عقلا ومنطقا أن يغير رجل فجأة مسلك الأمانة والاستقامة الذى عرف به واشتهر حتى الأربعين من عمره ، ويسلك طريق التزوير .

يمكن أن يُعَدَّ النبي أسعدَ رجل فى قبيلته حتى قيامه بهذه الدعوة . فهو من أشرف أسر قريش ، وأحبَّ الناس إلى القلوب ، لحسن خُلُقِهِ وأمانته ، وثُرَى بفضل زوجته الكريمة ، وذو غزوة ورفعة برياسة عمه أبى طالب . وما إن قام بدعوى الرسالة حتى انقلبت عليه قبيلته كلها ، بل أحدُ أعمامه أيضا (أبو لهب) . استعمل معه كل أنواع الإيذاء والجفاء والتحقير والتهديد ؟ ووُعِدَ فى خلال ذلك برياسة قريش ، والزواج من أجمل بناتهم ، وبتخصيص ثروة عظيمة ، ولكن ما كان منه إلا الإباء ، وردَّ ما وُعِدَ به من المنافع والنعم ، والتضحية بكل ماله من أسباب السعادة والرفاهية السابقة ، وتحملُ المشاق والمحن ، والتوكلُ على الله أمام كل تهديد ، والثباتُ على تبليغ رسالته مُصِرًّا . ولا يمكن حملُ هذه التضحية على أمل دنيوى خاص منتظر إذا انتهت الدعوة إلى نتيجة موفقة ، لأن الحياة التى اختارها بعد

الهجرة ، وبعد أن تم انتصاره على قريش وحلفائهم وزاد المسلمون ، وهو رئيسهم الطبيعي ، ثروة وقوة ومنعة ، فقيرة متواضعة إلى درجة لا يمكن مقارنتها بحياة العز والرفاهية التي عاشها قبل البعثة بمنزل خديجة . فأناث بيته وفرشه أدوات من قبيل الصحن والجرار ، وقطع الحصر ، وأغلب طعامه تمر ودقيق الشعير . وفضلا عن قيامه بشئونه وشئون بيته ، كان من عاداته المألوفة معاوته الشيوخ والعاجزين من جيرانه ، وإيصال حاجاتهم إلى منازلهم حاملا على ظهره . تلکم هي الحصاة من المنافع التي اختص بها نفسه من الانتصار الذي وفق له بعد تلك الحن والمشاق ، والرياسة التي ظفر بها !^(٤٤)

قال الشاعر التركي عبد الحميد ضيا باشا :

« كان ذلك الأمير سلطان الكونين ، يستوى عنده الموجود والمعدوم

لقد خضعت لأمره الممالك ، ولم يكن اثلاثة من القمصان مالك ؛

كان يمضى معظم أوقاته جائعا ، ينأى رأياه تحف مظفرة .

قضى معظم وقته مدينا ، ولما توفي وجد درعه رهينا .

كان يؤثر الفاقة ويفتخر بالفقر

لم يعل ذلك الطائر القدسي العش إلى جيف هذه الدنيا ! »

هل يُبحث عن دليل خير من هذا لكمال إيمان هذا الرجل ؟

كانت زوجته خديجة الكبرى رضى الله عنها أوّل من أجاب دعوته من حرائر النساء ، ثم أجاب دعوته أبو بكر من الرجال الأحرار ، وعلى بن أبي طالب ابن عمه من الصبيان ، وزيد بن حارثة من المعتقين رضى الله عنهم . ثم دخل عثمان وبعض عظماء قريش في الدين الحق ، إلا أن هؤلاء الأخيرين هاجروا من وطنهم ، عاجزين عن تحمل اضطهاد القبيلة : فهاجر معظمهم إلى الحبشة ، وبعضهم إلى يثرب بلد أم عبد المطلب جد الرسول ، تاركين وطنهم وبيوتهم وأموالهم ، مضحين بكل مملكت أيديهم في سبيل الدين . وحُرّم على ميراث أبيه أبي طالب . ولكن لم يقدر على

انتزاع هذا الشاب الشجاع عن عقيدته ونبيه لا هذا الحرمان ولا الأخطاء الكثيرة التي تعرض لها . وترك أبو بكر ، وهو رجل ثرى داره ووطنه ، وأنفق ثروته وأمواله في سبيل الدين . وأما الأنصار ، فلم يكتفوا بإيواء المهاجرين وإطعامهم مكرمين فحسب ، بل اقتصموا أموالهم بينهم وبين من لجئوا إليهم ضيوفا ، وقاوموا مستيتين هجمات جزيرة العرب كلها وخدع اليهود ، وجاهدوا في سبيل الدفاع عن المهاجرين . إن هذا البذل العظيم للنفس والنفس دليل على قوة التألقين ، ولا تنشأ هذه القوة إلا من العقيدة والإيمان السكاملين ، لأن فكرة غير معتمدة عليها باطئنان ، لا يمكن تلقينها الغير تلقينا أساسيا كهذا ، بدون إغراء بعوض دينوى (٤٦) .

ظل الرسول الأكرم ثلاثة عشر عاما بمكة بعد البعثة ، متحملا أنواع التهلكة ، صابرا على الظلم مع عدد من أصحابه الصادقين الأوفياء ، برغم مهاجرة معظم أصحابه . إن جهالة العرب وتعصبهم ، وتمسكهم الشديد بأصنامهم ، وانتقال السلطة بعد موت أبى طالب إلى بنى أمية الذين ينظرون إلى منافع مادية من عبادة الأصنام . كل هذا لم يستطيعوا إيقاع أى ضرر بالنبي في هذا النزاع العديم النظير . وقد حدثت الهجرة إلى المدينة في أحسن الأوقات . ففي أقل من عشرة أعوام دخلت جزيرة العرب كلها في الإسلام . ثم لم يمض خمسون سنة حتى دخل شمال إفريقية وسورية وإيران وما وراء النهر ، وأكبر قسم من آسيا المتعدنة حتى بلاد كاشغر في حوزة الإسلام . وبعد ثلاثة عشر قرنا تؤمن بما بلغه من الشريعة والدين أمة يزيد عددها على ثلاثمائة مليون نسمة .

ويبدو لى أن ظهور رجل أمي من بلد بعيد بجزيرة العرب وانتصاره هذا ، محروما في الظاهر كل معين وظهير هو بذاته معجزة . ولا جرم أن الإتيان بجملة من المقائد والمبادئ الأخلاقية أدرك صدقها عتلا وعلمًا بعد ثلاثة عشر قرنا ، على حين كانت البيئة كلها منغمسة في ظنون سخيفة ، واعتقادات باطلة ، وتعميم تلك المبادئ ، هو أمر خارج عن الطاقة البشرية .

ظهر مئات من الفلاسفة والحكام في عالم المدنية في الأزمنة الأخيرة . وفي الإمكان الوصول إلى الحقيقة وإثبات النظرية الموضوعية بطرق أسهل ، لتوافر كثير من وسائل العلم وضروب من وسائل النشر والإذاعة ، ومع ذلك من منهم ترك خلفه أمة ؟ وحكم أي فلسفة استطاع الدوام ؟ كنت ألتقي الفلاسفة في أيام شبابي ، فقرأت في ديباجة مجلة بالفرنسية هذه العبارة : « يتعرض المؤلف الذي يسمى كتابه بالفلسفة لهذا السؤال : عن أية فلسفة تحدث ، أعن فلسفة الأمس ، أم عن فلسفة اليوم ؟ أعن الفلسفة التي ماتت اليوم ، أم عن التي ستبوت غدا ؟ » . هكذا جميع كتب الفلاسفة الذين يبنون فروضهم ونظر يأتهم على مكتشفات العلم والمنطق وقياساته ، سريعة الزوال باعترافهم هم أنفسهم . فهل يمكن أن تكون قداسة الأنبياء العظام الذين قدروا على نشر شرائعهم وتمكينها إلى هذا الحد ، محلا للتردد والاعتراض ؟

الاعتراض على النبوة المحمدية

يمكن أن يُعترض على النبوة المحمدية بالاعتراض الآتي : « إن الدين الإسلامي يأمر بتصديق الأنبياء العظام إطلافاً ، ويصدق بنبوة عيسى عليه السلام . فهو إذن معترف بأن النصرانية دين حق . ولكن لم يكده هذا الدين يظهر ، حتى نشأ اختلاف في أصول كتابه ، فضاء معنى ، ثم لم يمض غير زمن وجيز حتى ذهبت أمتة إلى أن المسيح ابن الله ، وإلى ربوبيته — حاشا لله — على حين أن ظهور كتاب مقدس وضياعه مغاير للعقل والمنطق ، كما أن ربوبية عيسى عليه السلام منانية لأصل العقيدة الإسلامية . وإذا كانت العقيدة المحمدية صحيحة ، فتكون المسيحية شبيهة بشهاب أفل مع طلوعه ! » .

والحق أن العقيدة الإسلامية تنكر بتاتا ادعاء المسيح للالوهية . إن ورد التعبير بكلمة الأب عن الله ، فإنها استعملت على ما تمتد مجازا بمعنى الرب والخالق

والرحيم — كما في اللغات السامية — . وفي الأناجيل المتداولة بين الناس اليوم آيات كثيرة تخاطب الناس بكلمة « أبوكم الذي في السماء » . وهذا دليل على أن عيسى عليه السلام لم يقصد بذلك أباه ، بل يثبت استعمال كلمة الأب بمعنى الرب .

وأما حدوث التحريف في الأسس الإنجيلية بعد زمن وجيز^(١٧) فلعله من مقتضيات العصر . فقد كان كل الدنيا تقريبا قائمة بتعدد الآلهة في زمان بعثة عيسى عليه السلام . وبلغت العقيدة البشرية الأساسية الفطرية التي بدأت بالبحث عن سر الخليفة وتبجيلها إلى هذه الحال من تراكم الأفكار والظنون الملوثة بالتحريف على التحريف . والشعب الإسرائيلي هو الشعب الموحد الوحيد في ذلك العهد ، وكاوا محقرين من الشعوب المجاورة ، ومغضوبا عليهم . ولا جرم أن العقائد الصحيحة والدين الحق الذي بلغه موسى عليه السلام قد مُنيَ بتحريف لضياغ التوراة ، وطول الزمن ، حتى بلغ بهم الضلال إلى أن ذهب بعضهم إلى تأليه عُزَيْر . فكان التوحيد الذي علمه الإسلام بعد ذلك بخمسة قرون أوسمة ، والذي صدقته الفلسفة الحالية وسلمت به ، يمكن — حسب البشرية — أن يكون عسيرا على الأفكار العامة الفاسدة إذ ذاك أن تقبله فجأة . الحقيقة واحدة لا تتغير ، إلا أن فهم البشر لها وإيمانهم بها يسير سيرا تدريجيا نحو غاية الإصلاح والتطور ، كما أن إصلاح الأخطاء التي حدثت أخيرا وإزالتها تابع لقاعدة التدرج واستعداد البيئة .

فإذا قيل إن ضياغ الإنجيل وانحراف العقيدة الخالصة المسيحية عن طريق الحق ، كان مبنيا على حكمة سهولة انتشار النصرانية ، فلا يكون ادعاءً بعيدا عن العقل والنقل كثيرا^(١٨) . إن كثيرا من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، تدل على أن الأديان قد وُضعت لإرشاد بني البشر إلى السلم والصلاح ومحاسن الأخلاق ، وإلى طريق الحق . فإذا بُحث في التاريخ فيحكم بأن النصرانية أحدثت انقلابا كانت البشرية في حاجة إليه في ذلك الوقت ، مهما كانت مدة دوام العقيدة الخالصة .

فلننظر إلى الإمبراطورية الرومانية — وهي من الدول المسيطرة على القسم الأعظم من الكرة الأرضية، حين ظهور النصرانية — التي ملأت أباطرتها أمثال نيرون وهليوجابال الدنيا ظلما وسفاهة؛ والدولة الفارسية التي أدارها أمثال جودرز وهرمز وفرهاد الذين بلغوا أغراضهم بسمل عيون آبائهم وإخوتهم وأولادهم غير مكتفين بظلم الناس! فهل كانت البشرية تستطيع المثابرة على الخضوع لهم ولحكوماتهم؟ فهكذا ظهرت النصرانية في زمن فسدت فيه البشرية، ومُنيت بسوء الخلق، وانتشرت رويدا رويدا في الغرب وأوروبا. والواقع أن دماء غزيرة أريقت في هذه السبيل أولا وآخرا؛ وذهب كثير من الأبرياء من دعاة العقيدة الجديدة ضحية في سبيل أفكارهم وإيمانهم، على أيدي بعض الظالمين والرهبان، ولكن ظهرت في الدنيا رويدا رويدا صفوة خلقية جديدة نسبيا، ووُضعت أسس للمدنية الحالية بين الموجات المتناقضة. ومن ضروريات القانون الطبيعي لهذه الدنيا أن يتم بقاء البشرية وتطورها بالصعود والهبوط، والسلم والحرب، والتضجر والانبساط، والسرور والاضطراب؛ وخلاصة الكلام بالتضاد وال انقلاب.

وتعرض الإسلام لطعنات الملحدين، لاعترافه بولادة المسيح بدون أب، فهو يبين أن روح عيسى نفِخت في مريم بوساطة ملك. وإذا نظرنا إلى نظريات الحكماء في كيفية ورود الحياة من سائر العوالم إلى الأرض، وآمنا بالله والملائكة، قانعين بما يُسرد من الأدلة في ذلك في بحوثهم الخاصة، فإن نفخ الروح بواسطة لطيفة يكون على كل حال أقرب إلى العقل مما يفرضونه من الرحلة الجوية طميرة الحياة. ووقوع الشذوذ في قانون الخليقة معروف كما سنبينه. فلذا ينبغي ألا يكون الاعتراف بحالة شاذة كهذه لرجل قدسى أحدث في العالم انقلابا خارقا، مزعجا إلى حد إنكار أصل ديني.

ومع ذلك فإن الاعتراض على خلط الأديان بالخرافات حتى تصل إلى تأليه الأنبياء، أو مقارنتهم بالالوهية باختراع مناقب لهم وحكايات تدور حولهم، حق وواجب.

إن هذه العقائد الفاسدة القريبة من الشرك ، أو هي الشرك بعينه ، لتفتح بابا تلج منه الشكوك والاعتراضات ، فتعال من القداسة الدينية في نظر البسطاء . ومع ذلك أقول هنا جملة معترضة ، إنه إذا كان مثل هذا الإدراك والتفهم حقا وضلالا ، فإن الإيمان بهذه الأمور بلا تحقيق على أسس عقائد دينية ، والتصدي لإنكار حقيقة دينية ولا سيما الإسلام ، جهل وقمة ملاحظة مثله .

الحوار للامارة :

ولما كان طبيعيا أن يترك هؤلاء الأنبياء آثارا عميقة في ضمائر معاصريهم ، وأن تنتقل هذه الآثار إلى أخلافهم مبالغا فيها ، فإن أفكار البشر ظلت قرونا جائشة بسيرهم ومناقبهم . فكما أن أمة عيسى عليه السلام ألهمته بعد رفعه إلى السماء ، فإن عمر رضى الله عنه الذى تقوم أفعاله برهاناً على متانته وفضله وعرفانه ، لما سمع خبر وفاة الرسول احتاج إلى درجة تهديد من أخبر بموته بالقتل ؛ وأراد الذهاب إلى عمر وجهه إلى السماء ، ولم يمنع الفساد سوى وصول أبى بكر الصديق وتلاوته الآية الكريمة : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم » .

ظلت عظمة محمد صلى الله عليه وسلم ورفعة فطرته شائلة أذهان البشر ، وظهر كذلك تأثير الاستعداد الشعري وقوة الخيلة البشرية الجبلية ، فأراد بعض الصوفية استخراج معنى عشق الله لنبيه من صفة حبيب الله . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة كقوله تعالى « إن الله يحب المحسنين » و « إن الله لا يحب المعتدين » كما تدور في أفواه العرب الحكمة المعروفة « الكاسب حبيب الله » . ويُفهم من هذا عدم لزوم أخذ كلمة « حبيب » بمعنى العاشق .

غير أن الناس لم يكنفوا بهذا القدر ، بل اختلقوا كلمة « لولاك لولاك لما خلفت الأفلاك » باسم الحديث القدسي ، فافتروا بهذا على الله وعلى حبيبه المتواضع

وأدخلوا في الإسلام عقيدة نصرانية في عيسى عليه السلام .

يجب التصديق والتسليم روحا وقلبا بقداسة نبينا وعظمته ، وإجلال ذاته ومنزلته بالقياس إلى بني البشر وكافة المخلوقات ، ولكن كل قول وكل تصور يمكن أن يتضمن مقارنته بالألوهية فباطل .

دع ما ادعته النصرى في نبيهم واحكم بما شئت مدحافيه واحتكم
وهذه الحقيقة ثابتة بالآيات الكريمة والأحاديث النبوية .

إن الدين الإسلامي عرف الله سبحانه منذ ثلاثمائة ألف عام ، بما يتفق مع علم اليوم وفلسفته ؛ فالله واحد قادر حكيم أبدى أزلي متعال ، ومنزه عن إحاطة العقول به . وأما النبي فبشر مرسل من الله لإرشاد الناس وهدايتهم . فقد أعلم خير البشر هذه الحقيقة بلسان القرآن حيث قال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم » و « وما أنا إلا بشر مثلكم يوحي إلي » ، وبأحاديثه النبوية التي تحدث بها بتواضع تام . والأنبياء مهما علا قدرهم فإن نسبتهم إلى الربوبية كنسبة وجود معين محدود لما لا يتناهى . فالله البارى المطلق لا يمكن مقارنته بمخلوق أو بموجود مهما علا وتقدس . إن الأنبياء مكلفون رسالة من الله ، وليس ما يخالف العقل في تصديق ذلك . ولكن لا تؤدي هذه الوظيفة المعنوية والرسالة الألوهية إلى تصور تبليغ الأوامر الإلهية وجها لوجه ، كما يتصوره بعض الجهال . وإنما تلقى هذه الرسالة المعنوية إلى أذهانهم وقلوبهم ، بوسائط لطيفة ، فيقومون بتبليغها بأفعال وحركات بشرية .

ولما كان أولو العزم من الرسل يدعون الناس إلى الطريق المستقيم ، مبشرين ومنذرين ، لا طوعا ولا كرها بقوى مادية ودينية ، فاهرة أو جاذبة ، فإن الأديان المنزلة تمس حقيقة الخلقة وعالم الغيب . وليس في طاقة طائر الفكر البشري التعق في عالم الإطلاق والسرمدية واللاتناهى . ولا يقدر العقل الإنسانى على التيقن من

الحقائق الدنيّة كما ينبغي ، فلذا لا يمكن أدراك مؤدّى التبليغات المعنوية عقلا إدراكا تاما — ولو أنه يلوح لأذهان بعض العارفين — وبهذا يزول التضاد والاختلاف ، وهما من طبيعة عالمنا هذا ، ويكون عالما منطقيا .

إذا بُحِثت المسائل الدينية من نقطة النظر هذه زال كثير من الشكوك والظنون ، ويتجلى في القلوب الرفق والتسامح وتُقبَل الخلافات الفرعية — ما عدا الشرك — بصدور رحبة ، فتتم أمنية السلم والأمن ، وهما غاية الإسلام .

٤ - وَكُتِبَ

والاعتقاد بالكتب السماوية ركن من أركان الإيمان ، ومن شرائطه الأصلية .
والكتب السماوية تحتوي على ما بلغه الأنبياء العظام من الأوامر إلى أممهم
عن الله .

ومن معتقداتنا أيضا ضياع كتب الأمم السالفة ، أو تحريفها بمرور الزمن ،
وتقلبات الأحداث ، وبقاء القرآن الكريم العظيم الشأن محفوظا ، كما صدر عن
القم النبوي ، وهو حقيقة ثابتة تاريخيا .

والقرآن المجيد أثر وحى وتلقين معجز وقع لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ،
لتنفيذ الإوامر الإلهية .

ويقع الوحي كما ورد في الخبر ، بطرق مختلفة : فإما ينزل مرة واحدة ، كما في
الألواح العشرة للتوراة ، وإما في الرؤيا أو في حال اليقظة متتاليا . وقد نزل القرآن
الكريم ، وأكثره في اليقظة ، نزولا تدريجيا في ثلاث وعشرين سنة . وكان
الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يبايع — نظرا إلى إفادته — بواسطة ملك متمثل
في صورة إنسان (انظر بحث الملائكة)

بلغت البلاغة العربية أوجها قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، وكانت
مكة مجمع الفصحاء والشعراء ، يجتمع بسوق عكاظ بجوار مكة أربابُ الفضل
والأدب ، من أطراف جزيرة العرب ، فينشدون قصائدهم ، ويعلق منها ما حاز
استحسان الجميع بجدران الكعبة . ولما بُعث محمد ، وقد ثبتت أميته تاريخيا ،
وبلغ رسالته ، استُقبلت فصاحة الآيات القرآنية بحيرة واندھاش ، وأنزلت الملاحظات
من جدران الكعبة . وآمن لبید ، وهو ناظم إحدى الملاحظات بالرسول ، مبهوتا
بفصاحة القرآن . وحاول المعارضون بأن يأتوا بمثلا فمجزوا . إنهم نظموا جملة

«القتل أنفى للقتل» نظيرة للآية الكريمة «ولكم في القصاص حياة»، إلا أن رجحان هذه الآية المؤلفة من ثلاث كلمات على تلك الجملة لفظاً ومعنى ومن وجوه كثيرة مسلم به عند جميع أدباء وعلماء الأمم التي مرت منذ نزولها حتى اليوم . حاولت بعض جماعات نصرانية ولا تزال تحاول حتى اليوم ، الإتيان بمثل ما جاء به القرآن ، وألف بعض أعداء الدين مقالا بعنوان «سورة النورين» في فضل الأسرة العلوية الطاهرة وحقوقها .

لما رفع الجيش العثماني الذي أرسل لتسكين وقمع الثورة التي نشبت في اليمن ، بمد الدستور العثماني ، الحصار عن صنعاء ، وأذيع الشروع في إنشاء ائتلاف أساسي ، أراد وراق ، قال إنه دائماً كي ، الإقامة بالحديدة ، وأن يشتغل ببيع بعض كتب دينية وتوزيعها . كان غرضه واضحاً جد الوضوح ، فلذا حيل بينه وبين نشاطه ، برغم ادعاء الفصل الإنجليزي حمايته له ؛ إلا أن نسخة من «الوحي» — وهو من الكتب التي جاء بها — أحضرت إلى صنعاء .

ينشأ بين الزيديين علماء عظام أفاضل ، ولكنهم برغم صلابتهم الدينية ، لا يعنون بحفظ القرآن . ففي ذات يوم دعى السيد القاضي العمري من أكابر علماء اليمن إلى مركز القيادة العامة ، وتأييت أمامه «سورة النورين» من كتاب «الوحي» جهراً على أصول تلاوة القرآن . وما قرئ سطر واحد حتى سد هذا العلامة أذنيه مستغفراً صائحاً «هذا ما قرآن !» . إن الواقفين على دقائق لسان العرب العارفين الذوق القرآني ، يسلّمون باستحالة الإتيان بمثل آية منها .

فاذا نُلي القرآن جاش ذوو الإحساس متأثرين بلفظه ومعناه ، لأنهم يحسون قدسية هذا النظم الجليل ، والكلام البليغ ، الذي ينحصر نوعه في ذاته ، والذي هو ليس بنثر خالص ، مع أنه ليس بشعر موزون .

يعترف أكثر مستشرقى الغرب بفصاحة القرآن ويقدرونها ، ولا ينذر فيهم من يدرك معاني القرآن والفضائل الإسلامية ويحلها . ففي الفصل السادس من

كتاب « ما هو القرآن » للأديب الفاضل عمر رضا مَعْلُومَات نافعة في هذا الباب .

رأى جوده في محمد :

وألخص هنا علاوة على ذلك ، بحث « محمد » من كتاب « ديوان الشرق للمؤلف الغربي » [الكتاب ألماني ، وهذا العنوان مكتوب على ظهره بالحروف العربية] لجوته الكاتب الألماني المعروف بأنه أكبر شعراء أوروبا وفلاسفتها . وصف محمدا بأنه « رجل خارق للعادة ، وأنه نبي ، وليس بشاعر ، ولم يتحدث في كتابه عن موضوعات مداعبة مسامع القراء وأذواقهم ، كما يفعل الشعراء ، وإنما حصر كلامه في غاية مقدسة جعلها نصب فكره ، وأن زبدة القرآن هي الآيات السبع الأولى من سورة البقرة وقد ترجمها ، وأن الغاية المتبعة من الوعد والوعيد اللذين يتكرران دائما ، واحدة في القرآن كله ، وهذا التكرار إن كان يبدو في بادئ الأمر مملا ، إلا أن بلاغة القرآن تنتهي إلى انجذاب الإنسان إليها وبهته ، ثم إلى تقديسه إياها » . وقال في كلامه عن أسلوب القرآن : « إنه واضح وحاسم وعظيم ، مناسب لموضوع الكتاب ومفيد ، وبعضه عال حقا . فإذا ووزنت الملاحظات المتناقضة فلن يستغرب أحد من التأثير العظيم الذي يؤثره هذا الكتاب » . تكلم جوته مختصرا عما دار حول القرآن من المجادلات ، ثم قال مدافعا عنه إلى حد ما « إن هذا الكتاب سيحافظ على تأثيره إلى الأبد ، لأن تعاليمه عملية مطابقة للحاجات العسكرية لقوم معتزين بتقاليدهم ، متمسكين بعاداتهم القديمة » . ثم قارن القرآن بالأدب الفارسي الذي كان رائجا قبل البعثة المحمدية ، ففرزه إلى حد التناقض مع موضوعات ذلك الأدب المتهتكة ، وذكر بالحمد والثناء أن القرآن قد قلب العهد العتيق إلى سير الأنبياء ، وجعل قصصه الأسطورية في قالب مفيد . وأما قصص نوح وإبراهيم ويوسف عليهم السلام فإراها جوته معجزة ! إن شهادة رجل بعيد عن البيئة التي نزل فيها القرآن المجيد ، غير واقف على

دقائق لغة العرب ، ومحروم ما فيها من الذوق الأدبي ، بهذا الإجلال للقرآن لتعد
برهانا ساطعا لعظمته .

نزول القرآن

من المسلمات التاريخية أن محمدا كان أميا ولم يفارق مكة منذ أعوام قبل بعثته ،
[وكان يعتكف في أوقات معينة من كل سنة في غار حراء بجوار مكة] . وكان
أبو بكر أول من اقتدى به من الرجال ، وهو يكاد يكون من سنه . ولم يكن
مشهورا بالفصاحة والبلاغة . وأما عليّ فكان لا يزال صبيا (في الثانية عشرة من
عمره) . وأما الذين أسلموا بعد ذلك فقد جذبت أغلبهم فصاحة القرآن وبلاغته
وبراعته القنعة . ومنهم عمر رضى الله عنه المشهور بين العرب بالاستقامة وحدة
الطبع .

نزل القرآن الكريم في ثلاث وعشرين سنة . وكانت حياة الرسول في هذه
المدة عارية عن كل أنواع الأسرار الدنيوية . وإذا كان مستبعدا من رجل أمي لم
يشتهر بالشعر والإنشاء ، بل لم يزاولها حتى الأربعين من عمره ، أن يأتي بمثل هذا
الأثر البديع ، فإن احتمال إنشائه سرا من قبل رجل آخر ، ليس بأقل استبعادا
من الإتيان به .

ومن المتفق عليه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا الآيات القرآنية في بداية
نزولها في حالي الوجد والانجذاب . وهذا هو الفرق بين القرآن والحديث ،
ولا جرم أن بين أسلوبيهما فرقا عظيما . كما أن مشركي زمانه قالوا : « إنه معلم
مجنون » فإن أعداء الدين يقولون حتى اليوم بأنه كان مصروعا لهذا السبب ، أى
لتلاوته الآيات القرآنية للمرة الأولى في وجد وانجذاب . وإن يمكن اجتماع الجنون
والحكم والاتصارات التي وفق لها في حياته ، في صعيد واحد . إن سُمِّيت حالة

الوجد التي كانت حين تبليغ الآيات ، بالصرعة ، فقد ثبت طبيا تنقيص هذه العلة
للكاء^(٤٩) . على حين أن الانيان يمثل هذا الدين وجمع هذا القدر من الناس حوله
متوقف على ذكاء غير عادي . وعكس ذلك تكون حالة خارقة للعادة وفوق
الطبيعة . و خلاصة الكلام أننا إذا بحثنا في أية نقطة من نقط النظر تبين لنا تفوق
الرسول صلى الله عليه وسلم على بني نوعه ، وامتنازهم عنهم ، وإعجاز القرآن
الكريم .

هـ - واليوم الآخر

والاعتقاد باليوم الآخر ركن من الإيمان . إن كان المراد من اليوم الآخر فناء البشر وسائر أقسام الكائنات فهذا ثابت عقلا ونقلا . لأن كافة المخلوقات حادثة بذاتها كما أنها فانية كذلك باعتبار أشكالها وظواهرها . ثم إن مُلك الخليفة دائم حتى النهاية ، لأن أبدية الله ثابتة ، وبما أن الخالقية من صفاته الثبوتية غير المنفكة فهي دائمة مستمرة . ولا ريب في أبدية المسبب الأول الذي ثبتت أزليته عقلا كما ثبتت ديننا ، ومتى اعترف بكون هذه الأبدية من الضروريات العقلية والمعتقدات الدينية فلا يمكن تصور مالك بلا مُلك وخالق بلا مخلوق .

إذا كانت كرة كالقمر مثلا تحرم من القابلية للحياة ، أو تنقلب سحابة نتيجة لتصادم فإن الحياة تظهر في كرة أخرى فقدت حرارتها . ثم تتطور في مكانها سحابة تصير مجموعة لشمس وتظهر في تواجها الحياة . وهكذا تدوم هذه السلسلة متكررة في طريق تطور غير متناه . إن كرات لا يحصرها عدد قد تظهر بعد تريليونات وكتليونات من السنين وتكتسب طبيعة أخرى ، وتظهر قبة السماء في غير صورتها الحالية . غير أنه يمكن أن تكون المخلوقات والموجودات دائمة مستمرة في مكان آخر من الفضاء اللانهائي [في حالة جنة وجنهم مثلا] ، فالعقل والقل متحدان في هذا .

أما يوم الحساب وهو قسم من اليوم الآخر ، فليس بالطبع أمرا يستطيع العقل والعلم إثباته . إذ ليس عند القادمين إلى عالم الوجود ذكرى عن عالم الأرواح ، ولا نبأ عن الراحلين ! ومتى انعدم مدار الاستدلال عجز البشر عن كشف المستقبل عقلا . ولكنني أرجع إلى ضمير كل امرئ فأقول : هل يوجد امرؤ لا يشتكي من بنى نوعه ، ولا يرجو العدالة لنفسه ، أو لمن يراهم مظلومين من سائر الناس ؟ وكذلك هل يوجد من يقتنع بتجلى عدالة تامة مطلقة في هذه الدنيا ؟ وهل في

استطاعة القوانين ومؤسسات الضبط والعدالة البشرية ، القيام بواجباتها تماما ؟ وإذا أنعمنا النظر بان لنا وجود عدل معنوى يحكم خفية في هذه الدنيا أيضا . ولكن أما نرى فيه أيضا شذوذا محيرا للعقول ؟

فمثلا يئن مسببو الحرب العامة ومسئولوها الحقيقيون ، أو الملايين من الذين أصبحوا جوعا محتاجين ، بينما يمضى أغنياء الحرب حياتهم في عز ورفافية وسعادة ، وإذا ماتوا على وثير الفراش دفنوا في قبور ممتازة ، بين تهليل فريق من الغافلين ، وينعم ورثة بعضهم قرونا بميراثهم المادى والمعنوى . أفلا يُنتظر ولو في زمان ومكان آخر ، عوض لأولئك الملايين من الضحايا الذين قتلوا في سبيل هؤلاء الأغنياء ، ولذويهم وأقاربهم الباكين حيارى ؟

فالبشرية المتأثرة الجائحة بمثل هذه الأسباب والملاحظات ، مؤمنة منذ عرفت نفسها ، بهذه العدالة الأخروية ، مترقبة لها ومتعلقة بها .

إن إحساسا واعتقادا قد أجمع عليه كافة البشر في كافة القرون والبطون ، وتأييد عقلا ونقلا ، لا داعى لردّه ، وإنكاره من أساسه .

وإن وُجد اسرؤلا يشمر بهذا التأثير لضعف في إحساسه ، أو لانقياد لعفاده ، أو لأنه لا يريد الشور به ، وينكر التبشير والإبذار ، متبرئا من مثل هذا التمسى ، فإنا لا نندم كذلك أناسا يعدّون أنفسهم نتيجة بعض هويّات غير مدركة ، مجهولة الأصل عندهم أيضا ، فينزلون بالبشرية إلى درجة الحيوان ، بل إلى دركة الجحاد ؛ ويعتقدون الروح الإنسانى « هواء يذهب في الهواء » ! إلا أن الشعاعين بإنسانيتهم يعدونهم ممن وصفهم القرآن بقوله : « أولئك كالأنعام بل هم أضل » فلا يعيرون سفطتهم وتعريضاتهم التلماتا .

الجزء الاخرى

ومع ذلك فقد وصفت المجازاة الأخروية في بعض الأديان في شكل جد

غريب، وصوّر الله في صورة من الشدة والحدة يقشعر منها بدن رجل مبال للظلم بالقطرة . إذ أنه ليس موضوع هذا الكتاب معارضة سائر الأديان ومناقشتها، فلا أتصدى لتفصيلات هذا الشأن . والإسلام ليست فيه عقائد مغايرة للمقل والحكمة . ويُفهم من الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة صراحة، أن رحمة الله واسعة محيطية بكل شيء، وسابقة على غضبه، وأن الله غنى عن العالمين، وأمره ونواهيّه موجهة إلى نفع عباده ومصلحتهم؛ وأنه يغفر الذنوب جميعاً إلا الشرك، وعلى شرط الإفراز بآركان الإيمان، وأن حقوق الغير يجب إحقاقها على كل حال، بأدائها أو بإرضاء أصحابها، وأن العذاب الأليم والانتقام إنما يتجلى في حقوق الناس، وأكثر الصفات تكراراً في القرآن الكريم هي الرحمن والرحيم، والتواب الغفور .

ذكر القرآن أنهار الجنة والخور العين التي بها، والجحيم وعذابها المهيمن . إن طريق الحس والإدراك في الحياة الدنيا يعوقان عن فهم كثير من الحقائق واللطائف، كما ذكرنا سابقاً . ولما كان جزاء المحسنين وعذاب المسيئين في عالم الألوهية قد رفع عنه ستار الجسمانية، عسير الفهم بكلام دنيوى، فقد اقتضت الحكمة تشبيهها بما في هذه الدنيا من ملاذ ونعم، وعذاب ونقم . وقد أيد هذا الرأى بالحديث الذى رواه ابن عباس : « ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء » . لقد أخبر القرآن بالآية الكريمة « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون ؛ سورة السجدة الآية ١٧ » والحديث القدسى : « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر »، أن الإنسان يعجز عن إدراك ما أخفى من النعم الإلهية جزاء لأعماله الصالحة . كما بشرت الآية الكريمة بأن رضا الله أكبر من نعم الجنة وحظوظها في قوله تعالى : « ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم » .

ولما كان خير جزاء الإنسان نيله لما ربه وآماله، فيستنتج نيل الأثرية من

المؤمنين لما يتصوّر في الجنة من نعيم ، وهم مع اتباعهم للأوامر والنواهي الإلهية ، لم يقدروا على التجرد من العلاقات الدنيوية ، وارتحلوا عنها وغيّبوا فيها ؛ وأما من تكمل في حياته الدنيا ، ونزع نفسه عن الآمال الشخصية ، ووقف أفكاره وقواه لخدمة الإنسانية وسلامة وطنه ، رابطا قلبه بربه ، فيصل إلى نعم لدنية أعلى .

رأى المفكرين في التناسخ :

يذهب المفكرون القائلون بالتناسخ — كما ورد في مبحث آمنت بالله — إلى « أن كلا من الجزاء والعقاب المعنويين ، يتعين بما ينال المرء في حياته المتعاقبة من الاعتلاء والانحطاط » . ويتصور بعض الحكماء المتعمقين في علم الهيئة ، إمكان انتقال الأرواح إلى السيارات والمجموعات الأخرى . إلا أن عقيدة التناسخ ليست في أساسها سوى فرضية خالصة . بما أن الذرات التي يتكون منها الجسم في تقلب مستمر من حال إلى حال ، وتنقل من جسم إلى جسم ، فمن الممكن أن تدخل الذرات المنفكة من جسم الميت متفرقة في بنية طفل أو مهر أو زهرة . غير أنه لم يوجد قط دليل أو أمانة على تكرر عودة روح ذى حياة وذاته إلى عالم الوجود بعد موته . ولم يعترف دين من الأديان المنزلة بفرضية التناسخ . ولما كان الإنسان ، وهو أكمل الأحياء في الدنيا ، لا يذكر حياة متقدمة على حياته ، فإنه لا يقدر على إدراك ما ناله من الرفاهية والضجر ، والعزة والذلة ، في حياته الدنيا ، تقابل أى فعل من أفعاله الحسنة أو السيئة في حياته تلك . فجزاء أو عقاب كهذا غير معتمد على سبب معلوم وحكمة وجيبة ، عبث أو ذميم ، من قبيل إكرام السمك الذى فى البحر ، أو أذية امرئ غيايبا دون أن يكون له علم بذلك — ولو كان مخطئاً — ؛ فلن يستطيع مؤمن أن يسند نقصا كهذا إلى أحكم الحاكمين المقدس . كذلك لا يقدر من له عقل وعلم ، أن يدرك مثل هذه الأحكام والمعاملات العديمة الفائدة ، باسم الحكمة والعدالة اللدنية . ولا يجوز الثقة بأخبار فرضيات لا يمكن

إثباتها بالحساب والتجربة ، إلا على شرط مطابقتها للميول الوجدانية ، والتفكير
الفطرى البشرى .

أما الماديون فيعلنون إنكار الروح والوحى ، وعدم فائدة فعل الخير ما دام
لا يترتب عليه فائدة فى الدنيا ، ونجاة المسمى بلا عقاب . وهذه حالة ثقيلة على
ضمير البشر ، الذى يشعر كل فرد منه بحاجة إلى العدالة ويرجوها . ثم إنه بناء على
هذه الفظرية يزول الحافز للناس إلى فعل الخير بلا عوض دنيوى ، والممانع عن السيئات
التي قد تختفى فى ضمائرهم ، والتي يُظن ارتكابها ، فتشيع الأنانية والميل إلى الظلم
والاغتصاب ، وهذه حالة فكرية خليقة بإفساد الدنيا فى زمن قليل .

يستنتج مما سبق من التفصيلات ، أن هذه العقيدة ، وهى مولودة الفلسفة المادية
ووحدة الوجود ، ضلال ومضرة من كل الوجوه ، وأن التلقينات الدينية عن اليوم
الآخر ، والحكمة الكبرى ، ومحاسبة الناس على أعمالهم ، موافقة للميول
الوجدانية ، والتفكرات الفظرية البشرية ، ودافعة إلى الصلاح ، مانعة عن الشر ؛
فهى عين الحكمة ومحض الخير .

٦ - وبالقدر

خيرِه وشرُّه من الله تعالى

والاعتقاد بالقدر ركن من الإيمان عند أهل السنة . واعتقد أن كل امرئ يفكر بعناية في صفحات حياته ويتأملها ، يحس كونه خاضعا لتصرف معنوى . يسعى رجل في عمل من الأعمال متوسلا بضروب من التدابير ، غير أنه كلما زاد سعيا زاد هدفه عنه بعدا . ثم يُفتَح له باب الفرج يُسر لم يكن له في الحسبان . ويُنبَلَى بالفقر والمسكنة رجل قد عُرف بين الناس بالدراية والكفاية ، ويعجز عن سُبُل النجاة ، ويفوز ذو جهل وغباء بنعم ومراتب ، وثروة ورواتب . فهل تُحْمَل هذه الحالة ، وهى تتكرر دائما وتغلب التدبير والذكاء ، على الصدفة وحدها ؟

إن امرأ باحثا في حياته وحياة البيئة التى يعيش فيها بحثا دقيقا ، يفهم أن هذه الحال مع عدم خضوعها لنظام يمكن فهمه ، ليست أثر صدفة محضة كذلك ، فيحكم بضعفه أمام إرادة غيبية .

ومن جهة أخرى إن السعى والتدبير لا بد منهما للحياة . ففى الناس من فاز بدولة بسبب تافه ، كما أن منهم من أضاع ما فى بيته من برغل وهو ذاهب إلى دمياط للحصول على الأرز . غير أن من لا يسعى إلى مخبز لشراء خبز منتظرا إياه من القدر ، فلا بد أن يموت جوعا .

حدثت الاختلافات بين مفكرى المسلمين من تظاهر هذين النقيضين . فأما الأغلبية من عطاء علماء المسلمين ، فخلوا هذه المشكلة بأن الخلوقات والحادثات كلها تابعة للإرادة السكلية الإلهية ، ومنقادة لها ، ولكن الله منح الإنسان إرادة جزئية ، لتكون له دليلا يميز بها الخير من الشر ، والحسن من القبيح .

وأما فريق منهم فقد وضع نصب عينه أمر مسئولية البشر المعنوية ، وتصدى

لإنكار القدر جملة ، مدعيا بأن العبد خالق لفعله ، وتعالى عن محجزه أمام ما يصادفه من العقبات في حياته ، وتغافل عن الشكر لما ينال من العون ، ومال إلى طريق التكبر والاعتزال . وكان الباعث على انتحال هذا الرأي هو ظنهم بأنه لو كان في أفعال الإنسان حافز معنوي سوى إرادته الذاتية ، لكان الجزاء والعقاب الموعود بهما في الآخرة مغايرا للعدالة .

وقال فريق آخر : « كل شيء بيد القدرة الإلهية ، والإنسان خاضع للعيشية . وكافة أفعاله مقدرة ومكتوبة في اللوح المحفوظ منذ القدم » ، فسلبوا الإنسان الإرادة الجزئية ، ودفعوا البشرية إلى الاستسلام والعطل في هذه الدنيا ، وأسندوا الظلم إلى الله العادل ، إن لم يكن صراحة فضمنا ، من أجل الجزاء الأخروي . وقد نشأ هذا الرأي من خشية الوقوع في الشرك ، من تعارض الإرادة البشرية والمراد الإلهي ، في حين أن البشر مجبول على خاصة تميز الخير والشر ، فهو مأجور أو مشئول عن أفعال الخير والشر في الدنيا والآخرة . ويمكن تشبيه الإرادة الجزئية البشرية بما يعطى عامل من سلطة . فكما أن هذه السلطة لا تسقط حق الرئيس الأعلى ، ولا تخل بشرفه وسلطانه ، فإن معاقبة من يسئ استعمال هذه السلطة لا تخالف العدالة كذلك .

وعبارة « الأعمال مكتوبة في اللوح المحفوظ » : تدل على كون العلم الإلهي لاحقا ، ولا يجوز تصور ألواح في حضرة الله شبيهة بالألواح المستعملة في المدارس^(٥٠) ، فإن العلم الإلهي غير متناه في السعة والزمان . وكل مقدار محدد صغر بالنسبة لغير المتناهي ، فيلزم أن يكون عمر الإنسان ، بل حتى عمر هذه الأرض ، لحظة غير منقسمة في الحضرة الإلهية . وبعض الناس يكشف المستقبل القريب بالاستدلال ؛ فكون عمر بني آدم معلوما لعلام الغيوب ومسبب الأسباب ، بل حتى أعمار كافة الآثار والأحداث والأحوال المترتبة على كثير من الأسباب والعلل ، ليس مما يستحق إتعاب الذهن ، وتعذيب الوجدان^(٥١) .

ليست الإرادة الجزئية البشرية قادرة على تجاوز حدود النية والاختيار والسعى والتدبير . وفي اقترانها بالفعل يظهر تأثير قوة خفية ميسرة أو عاقبة . وهذه القوة الخفية هي ما يسمى القدر في ديننا . فسواء اقترن سعى المرء بنتيجة أو لم يقترن ، فهو مستفيد أو متضرر ، مُثاب أو معاقب ، على حسب حسن نيته أو سوءها : « إنما الأعمال بالنيات » .

إيضاح عقيدة القدر باللعب :

أستمد الجراء من قوله المنيف : « وما الحياة الدنيا إلا متاع » ، فأتى — مع الاعتذار — ببعض أمثلة من اللعب ، لإيضاح ماهية هذه الاختلافات . معلوم أن هناك نوعين من اللعب قد انتشرا في الدنيا ، هما الشطرنج والبيارد . وإن صُرف النظر عما يحدث للمرء من التأثيرات العصبية في أثناء اللعب بهما ، فضمان النصر فيهما ، للحذق والتدبير . ويبدو أن هذه الحال مؤيدة لعقيدة القَدَرِية والمعتزلة . وأما الألعاب التي من نوع الميسر ، فالعامل المؤثر فيها الزهر (الفصوص) والحظ ، ودخل المهارة فيها محدود ، بل مفقود . فهي شبيهة بمذهب التجبرية . وبين النوعين المذكورين لعبتا الورق والنرد . يتوقف النصر فيهما على الدقة والمهارة ، مع الحاجة إلى الزهر والورق . فحياة البشر شبيهة بهاتين اللعبتين الأخيرتين . ويبدو أن مناظرات الأسلاف واختلافاتهم التي لخصناها آنفا ، إنما نشأت من علة المنطق ولعب الكلام . فلو تأملوا رسائل حادثات العالم المنزلة من الملأ الأعلى ولاحظوها ، بدل أن يتخذوا قواعد منطق علماء اليونان دستورا ، لظهر وجود قدرة جزئية تمييزية وتنفيذية للبشر ، مع تحديد اختياره وحركانه من قبل إرادة كلية ، وصُدق قول أهل السنة .

وحقيقة التوكل لم تفهم عند كثيرين ، وهو من الأوامر الإلهية ، فأخذ بمعنى أن يترك المرء السعى والتدبير ، ويظل واقفا ويداه على خاصرتيه ، معتمدا على

عون الله ، فصار بذلك مؤيدا لعقيدة الجبرية في الأمور الدنيوية . والأمر ليس كذلك . فالتوكل ليس بمانع من السعى والتدبير ، ولا مروج للسكسل والبطالة . إن كلمة « اعقلها وتوكل » — وهى جواب مسكت وحكمة صالحة لتكون دليل النجاة للبشر فى الدنيا والآخرة وقد رد بها الرسول على شكاية أعرابي ترك ناقته وجبلها على غاربها ، متوكلا على الله — تؤيد هذا القول وهذا رأى .

فالتوكل حق . وفائدته العظيمة الدنيوية ، أنه حافز على الصبر والثبات ، مع الاعتماد على عون الله ونجده فى أوقات الحرج والعجز . فهو من هذه الجهة ترياق اليأس والفقر ، وهما سم زعاف للأفراد والأمم . إنه يقوى الروح عند شدائد الزمان ومهالكه ، ويزيد الهمة والثبات ، فيمنع بهذا كثيرا من السيئات والمخاطر . وما يجدر بالذكر أن شيوع حوادث الانتحار فى الأزمان المتأخرة ، ناشئ عن زوال الاعتقاد والتوكل من الأمة^(٥٢) .

وموجز الكلام أن التوكل ليس بمانع للتدبير ، وإنما هو بالعكس من ذلك ، عامل مؤثر يطرد اليأس ، فبشجع على السعى والاجتهاد ، ويقوى العزم والثبات . وغريب أن يعتبر الأوروبيون الشرقيين عامة والمسلمين خاصة ، من أتباع مذهب الجبرية ، الذى اختاره فريق ضال من المسلمين ، فيحملوا انحطاطهم فى الأزمان المتأخرة على الخمول والإهمال الناشئين من هذه العقيدة . وأما إرادة شباننا المتحذلقين الذين درسوا أطرافا من العلوم ، إنكار وجودهم التاريخي ، بذهابهم السقيم إلى أن الدين مانع للرقى ، وأن الدخول ضمن الأمم المتعدنة يقتضى الإلحاد ، فساد ناشئ من الإهمال فى تعليم العقائد ، ومن الغرور والأنانية الناجمين من الجهل المركب .

لا يتصور عى وجدانى كحسبان دين مانعا من الرقى ، وهو يحوى دساتير وحكما من مثل قوله تعالى : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » ، و « هل يستوى

الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، و « أعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، و « يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم » ، و « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . ومثل قول النبي صلى الله عليه وسلم : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا » ، و « اطلب العلم من المهد إلى اللحد » ، و « طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات » ، و « فضل العلم أحب إلى من فضل العبادة » . وأمثال ذلك . والواقع أن هناك فسادا وانحطاطا ، ولكن أسباب هذا الفساد والانحطاط الحقيقية ليست في الدين ، بل في إهماله .

الباب الثاني

الواجبات والأعمال

أسباب التطييف والواجبات

الأديان تُحمّل الأمم نوعين من الواجبات ، أحدهما يتعلق بالخالق جل جلاله ،
وثانيهما بالخلق ، وخاصة الإنسان . فتوحيد واجب الوجود وتعظيمه ، ونفع
الإنسان لبنى نوعه ، وتخلقه بالخلق الحسن ليم هذا النفع ، كلها واجبات أساسية
في الدين .

إن عدم حاجة الله سبحانه وتعالى لما تقوم به من التسبيح والتهليل ، أظهر
من الشمس . وإذ أن القدرة والعظمة الإلهية قد ظهرتنا بخلق الكائنات ، ثم
وُجد على هذه الكرة الصغيرة مخلوق عاقل مدرك لما في الخليقة من العظمة
والجلال ، فإن إجلال صاحب آثار هذه القدرة والعظمة وصانعها ، والتهليل به ،
واجب طبيعي على العقلاء ، فيدين عقلا وقياسا أن المراد الإلهي يتجلى في هذه
الصورة ، وأن بلاغ الأنبياء العظام في هذا الشأن حق وصادق وطبيعي .

وكلمة الشهادة والصوم والصلاة كلها لتعظيم الخالق المطلق وتمجيده وتوحيده ،
والشكر لنعمه وآلائه . وهذه العبادات نافعة كذلك للقسم الثاني من الواجبات
الدينية ، أي القسم المتعلق بأبناء النوع ، ولازمة له . فإن البشر المجلول بحسب
فطرته على تأمين حياته ومنافعه وملاذه ، على حساب سائر المخلوقات وحياتها ،
يقتضى أن يكون بطبعه غليظ القلب ظلوما . ومن مقتضيات الطبيعة أيضا
زيادة كل خلق وسجية قوة وشدة بالاعتقاد المديد . فلأجل إبقاء نزعاته وميوله

في حالة اعتدال ، يلزم أن يُلقَى في القلب نوع من الرقة والخوف والخشية من عدالة حاكم معنوى . وإني أقول مكرراً : إن الله سبحانه وتعالى لم يكن عاجزاً عن تأمين هذا المقصد بطريقة أخرى ، ولكن هذه الطريقة هي أليق بطبيعة سكان هذه الكرة ، وأوفق لهم .

فوائد الصلوة والصوم

إن قلباً وداغاً فارغين من الخواطر الدنيوية ، وموجهين إلى الله سبحانه وتعالى بخلوص في أوقات معينة ، ليكونان مظهرين للفيوضات المعنوية ، ومُظهرين من كثير من دنيا هذه الدنيا . وليس في الإمكان إنكار التأثيرات المعنوية الحسنة ، لعبادة في وقت الفجر ، لإنسان انكشفت فيه قابلية التأثر والانطباع والأعصاب تخلصت من تعب يوم سابق بعد نوم لذيذ ؛ وفي وقت الظهر والعصر حين ترهق النفس بمكاثفات الحياة ؛ وفي وقت المغرب والعشاء وقد استولى الكسل والارتخاء بانتهاء المشاغل اليومية ، وفوائد تلك العبادة البالغة كلها في صلاح الجمعية البشرية وسلامتها . وإن الاجتماع مرة كل أسبوع مع الإخوان في الدين ، والقيام بالتكبير والاستغفار ، والاستماع إلى نصائح دينية ودنيوية يلقيها أحد الأفاضل ، لا شك في أنه خدمة لإصلاح الخلق .

والصوم إذا روعيت شروطه ، فائدة في تزكية النفس من كل الوجوه ، وتهذيب الخلق . ومن منافعه اختبار المرء بعض آلام فقراء نوعه ، والتحقق منها ، والتنبه لها ، وبلوغه الكمال برياضة نفسه على تحمل المشاق ، وتلكم منافع مادية ومعنوية .

ومن الواجبات الدنيوية على كل إنسان ، إفادة المجتمع الذي ينتمي إليه بمخدماته ومساعدته ، ورفع شأنه بين سائر الأمم ، والسعى لجعله قوياً عزيزاً ، وهذا العمل واجب ديني أيضاً . وقد يتخذ بعضهم هذه النقطة وسيلة ليتحدثوا عن زيادة

ما يحتمل الدين الإسلامي معتقديه من العبادات والتكاليف ، ويقول بضرورة تنقيص بعض تكاليف ديننا ، بما يتفق مع مقتضيات العصر والمدنية ، مستدلين على ذلك بأن اليهود والنصارى قد خففوا التكاليف الدينية عن الأفراد ، توفيقا لما يقتضى الحال والزمان وسهلوها .

بيد أن الواجبات الدينية الإسلامية ، مع أنها لم تبلغ حدا يمتنع فيه تيسر المصالح الدنيوية ، فإن ثمة مسوغا شرعيا لتخفيف التكاليف في بعض الأحوال كالحرب مثلا ، وإسقاطها في بعض حالات القيام ببعض خدمات خيرية وإنسانية .
بناء على القول الرحيم : « وما جعل عليكم في الدين من جَرَح » ، أظن أنه لا مانع من اتخاذ تدابير عصرية — بفتوى العلماء بالطبع — في أمر العبادات في جوامعنا ، توفيقا لما تحتاج إليه قواعد الصحة . ومع ذلك فإن المسلمين إذا راعوا الطهارة وفقا للسنة السَّنيَّة ، فلن يحتاجوا إلى شيء آخر . ومهما يكن من شيء فإن ما يسوقه المعترضون من القيل والقال متظاهرين بالحق ، لا يحمل قيمة أكثر من عذر تارك الصلاة !

فوائد الحج والزكاة

الحج والزكاة فريضتان دينيتان لمن يستطيعهما وفي الوقت نفسه لازمتان من اللوازم الاجتماعية الدنيوية . ولما كانت جمعية مدنية لا تسير بلا مال فقد كفلت الزكاة حاجات الحكومات الإسلامية الإدارية [كان بيت المال في صدر الإسلام عبارة عن الجزية المأخوذة من غير المسلمين والزكاة] والإنفاق على فقراء الأمة . وإذا ألقينا نظرة إلى تاريخ الدول الأوربية وجدنا أن أصول جباية الضرائب لم يكن لها نظام مقرر حتى ثلاثة قرون خلت أو أربعة . بل كان فيها أنواع من الضرائب والإعانات الجبرية يطرحها الملوك المحتاجون إلى تنازع مستمر مع بعضهم

بصفة مؤقتة أولاً ثم يديمونها . فكون المسلمين مُلزَمين بمثل هذا التكليف الاجتماعى منذ بداية الإسلام حكمة محضة .

وكم من الفرائد العظيمة للأمم الإسلامية كان يمكن جنيها من اجتماع أغنياء المسلمين وعظماهم القادمين من البلاد الإسلامية المختلفة إلى مكة المكرمة فى أوقات معينة ، وتعارفهم وتشاورهم ، ولكن يؤسفنا أننا لم نقدر على الاستفادة من ذلك !

حكمه الحج وزيارة النبي

إن الحج المفروض هو القيام بأداء مناسك معينة فى الكعبة المكرمة وعرفات ، إلا أن زيارة المدينة المنورة والتبرك بزيارة المسجد النبوى والروضة المطهرة ، صارت عادة لأكثر حجاج بيت الله . فلذا أرى أن البحث قليلا فى عقيدة الوهابيين الخاصة فى هذا الشأن لا يخلو من فائدة . فزيارة القبور عند أتباع هذا المذهب ، أو بعبارة أصح عند الغلاة منهم ، معناها الاستمداد من الأموات ، وهذا شرك . وبناء على ذلك فكل أتباع الفرق والمذاهب الإسلامية الأخرى التى تبيح هذه الزيارة كفار . ونطق المرء بكلمتى الشهادة يعنى تعهده باللسان والجنان بالآل يُشرك بالله ؛ فلو فرضنا رجلا كالذى ذكرناه زار — ولو على اجتهاد خاطئ — قبر ميت تعظيما له ، فهل تثير هذه الزيارة غيرة البارئ تعالى ، الذى حاولنا جهد طاقتنا إثبات عظمته وجلاله مستدلين بآثاره ، من بعض عباده الميتين ، حتى يطرد عبده هذا المخلص المسكين من دينه الذى آمن به مقرا باللسان ومصدقا بالجنان ؟ أظن أن الذين يزعمون مثل هذا الزعم يشبهون أرحم الراحمين بأناس من درجة أفكارهم وطينتهم ، فيرتكبون شركا أبشع . إني مطمئن يقينا بأن الله سبحانه وتعالى ينظر إلى قلوب الناس . والآيات الكريمة كقوله تعالى : «أوليس الله بأعلم بما فى صدور العالمين» و«والله أعلم بذات الصدور» ، والأحاديث الشريفة

كقوله صلى الله عليه وسلم : « إنما الأعمال بالنيات » و « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وغيرها ، مؤيدة لهذه الحقيقة .

إن إجلال واضعى الأديان وخادميها ، وحتى القائمين بأعمال مفيدة لشعوبهم وأوطانهم في غابر الأزمان ، وزيارة قبورهم ، عادة مستحسنة ومقبولة عند الناس من قديم الأزمان . فلا يلزم أن تكون كل حال غير مأمور بها ممنوعة ، وكل ممنوع كفرا . فإن عدم نسيان أبرار الأمة بعد موتهم حافز للناس إلى القيام بحسن الأعمال . والله القادر المطلق لا يستكثر على عباده المصطفين ، ما يعمل لهم من التكريم ، وتصور عكسه إسناد أوصاف إلى الله سبحانه مكروهة فينا — حاشا لله !

وحتى لو فرض أن تعظيم تراب ميت محروم من كل قوى مادية إنم ، فإن هذا الإنم زلة جد خفيفة ، بالقياس إلى التعظيم المنطوى على الرياء والنفاق والتملق ، في زيارة الأمراء والوزراء وندمائهم والمقربين منهم ، أو على وجه عام في زيارة من يقدر على إيقاع النفع والضرف في هذه الدنيا . ويجوز لبضهم أن يعد الاستعانة بالقبور تعبلا بلا فائدة ، وإسرافا في الأنفاس المعدودة إلى حد ما . بيد أن عد مثل هذا الاستمداد البرى . جُرما وشركا تكفير للمؤمنين . وإذا اقترن بتعمد ، وقصد بدافع آمال دنيوية ، كالحرص على الرياسة وغيرها ، صار كفرا محضا . إن تكفير أهل القبلة والقيام لقتالهم ، ولو كان مبغيا على اجتهد مخلص — ولكن خاطى — وتشتيت الجامعة الإسلامية بهذه الطريقة ، وتعريضها للهوان ، لمن أكبر المعاصى والآثام .

ويظهر من مطالعة كتابى هذا ، أنى أنا أيضا أرى رفع البدع والضلالات التى سرت فى الجامعة الإسلامية بمرور الزمان ، وإرجاع معتقداتنا إلى صفائها وبساطتها الأصلية ، التى كانت فى القرن الأول . فأنا متفق مع الوهابيين اتفاقا تاما فى القضاء على بعض ما يدل على الضلال والحق ، مما نشاهد فى كثير من البلاد

الإسلامية ، من الحفاوة بأشجار وأحجار وقبور ومزارات لأصل لها ، والاستمداد منها . ولكن على شرط الاعتدال في الإجراء والتنفيذ ، وعدم البغض والعداوة للمخطئين ، ومحاولة إنقاذهم مما اتخذوه بإحساس مفعم بالشفقة والرحمة ، وجعل الإرهاب آخر ما يُبلجأ إليه من الوسائل ، وخاصة اجتناب المعاملات الشديدة المؤدية إلى التفرقة بين المسلمين ، وعدم الإهمال في تعظيم أولئك الذين يُقر المسلمون بعظمتهم واحترام ، أضرحتهم ومزاراتهم .

عناية الدين الاسلامي بترية الأهل :

إن الدين المبين الحمدي يبلغ ، عدا المواد الخاصة بالعبادات والطاعات ، وأوامر ونواهي فردية واجتماعية ، متعلقة بالعلاقات والمعاملات الجارية بين بعض بني البشر وبعض ، ويحتمل من اعتقده واجبات أخلاقية . فهو أمر بالتخلق بمحاسن الأخلاق بحكم قوله صلى الله عليه وسلم : « إنما بُعثت لأنعم مكارم الأخلاق » . وقد أمر كل مسلم ومسلمة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، بالعفة ، والحياء ، والأمانة ، والصدق ، والاستقامة ، والكرم ، والسخاء ، والصبر ، والشجاعة ، والتقوى ، والقناعة . والاجتهاد في العلم والعمل بكل معانيه ، والطهارة ، والنظافة ، والعدل ، والإحسان ، والروءة ، والعفو ، والرحمة .

وحرم مع أصداد الفضائل المذكورة ، الفحش على الإطلاق ، والبغى ، والخمر في صورة خاصة ، والميتة ، ولحم الخنزير ، والميسر . أليس إدراك أرق الأمم حضارة بعد ثلاثة عشر قرناً ، ما في السكر والمسكر من الأضرار ، وشعورها بضرورة منعها ، واكتشاف ما في لحم الخنزير من الجراثيم السامة المسماة بـ « تريشين » ، دليلاً على قداسة الأوامر الدينية ؟ ولا أرى حاجة لإيراد أدلة على مضرة القمار . فإن حال كثير من ورثة الأغنياء ناطقة بها مصدقة . وأما حكمة وجود هذه السيئة فلعلها صلاح انتقام العدالة المعنوية من أرباب الرشا وورثتهم في هذه الدنيا !

ويأسر الدين المحمدي زيادة على ما ذكرنا ، بالأدب والركة والتودد في معاملات المسلمين بعضهم بعضا ، والتوسط في حل الاختلافات بين الأفراد والجماعات ، والطاعة لأولى الأمر — ما دام الأمر مطابقا للمعروف والشرع — وتعظيم أكابر الأمة ، وأولياء أمور الأسرة ، وينهى عن سوء الظن والغيبة ، والتجسس والنفاق .

وإذ أن الإسلام أسس أسسا شرعية ومدنية ، فقد وضع عقابا ، وحدد حدودا دنيوية متكفلة بتنفيذ ما تقتضيه جمعية بشرية من الأحكام الأساسية والأوامر والنواهي ، وأرشد الناس إلى الغاية المطلوبة ، وهي المساواة في الجماعة ، والعدالة في الحكومة ، وثبت ذلك .

وقد دون علماء المسلمين وفقهاؤهم أحكاما وقوانين ، لتكون دستورا للعمل في حل المسائل الحقوقية والجرائية والاجتماعية ، مقتبسين من الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وباجتهادهم الشخصي .

ومع ذلك فثمة مسوغ شرعي لتغيير بعض الأحكام الشرعية بما يتفق مع الزمن ، على أن تبقى الأسس كما هي (٤٣) .

أكتفي بهذا القدر من البحث والتحقيق في العقائد والأعمال الإسلامية . وكان في الإمكان إيراد أدلة وإيضاحات كثيرة من الأدلة الفلسفية والكلامية ، والعقلية والنقلية في هذا المبحث . وقد أراق علماء الساف سيولا من المداد في هذا الوادي . بيد أن قلة بضاعتى تمنعني من الإكثار ، وقد التزمت اتباع هذه الحكمة : « في الإكثار عثار » ، لأنني لم أقدر على أن أخلي ذهني من الذهاب إلى أن التعصب لمحاولة تنفيذ الفكر ، بقياسات وأدلة منطقية فيما وراء حدود ما يلمق به علم البشرية ، وقدرتها في سر الخليفة ، كان سببا لما نشاهده من اختلاف المذهب ونفاقه .

إني أرجو ألا يستنتج من إفادتي هذه معنى نقد العلماء السابقين ومعارضتهم ، فقد كانت المحاولات الكلامية ستقع ، بل كان يجب وقوعها . ولكن كما أن

لكل عسر يسرا ، فإن لكل فائدة محذورا . فما أصدق قول الإمام الرازي في حكمته إذ يقول :

نهاية إقدام العقول عقال وأكثر سعى العالمين ضلال
فلعل هذه الملاحظات ، أحتار السكوت عن الخوض في الكلام عن المسائل
التي سوف تظهر وتنشعب . والتي ذكرتها هي المبادئ والأحكام الأساسية
للإسلام . وأما الروايات المنقولة إلى الكتب من أساطير الأولين بلا تحقيق ،
والمبادئ والمعتقدات الناشئة عن منازعات الفرق ومجادلاتها ، فليست لها صلة
بالواجبات البشرية ، من التصديق بالله وتكبيره ، وتكفل سعادة البشرية ، وكلها
حكمة وضع الدين وتنزيله . وبالعكس من ذلك يجب البحث عن الزوائد
والأباطيل التي ظهرت فيما بعد ، وجرحها بالأدلة القاطعة : نقلية وعقلية ، واقتلاع
الروايات المشوَّشة لأذهان شباننا من جذورها ، ومنعها عن الذيوع والانتشار .
ولكن أمرا عظيما كهذا يفوق طاقة عاجز مثلي .

فصل خاص

مقارنة بين الإسلام وسائر الأديان

يتبين مما سبق من البيانات والآراء التي أوردناها عند أرباب العقل والإنصاف، وجوب وجود مُسبَّب أول، ذي قدرة لانهاية لها وحكمة، وحافظ أزل لتكوُّن هذه العوالم ودوامها وتطورها. أقول عند أرباب الإنصاف، لأن بعض المنكرين المستكبرين يُغمضون عيونهم عن نور الحق معاندين، ويُفلقون أذهانهم دون كل منطق وحساب. ويُصرون على آراء سخيفة، قد استقرت في أدمغتهم بما لا مدري من الأسباب، وخاصة إذا كانت تلك الآراء متفقة مع المستحدث من الآراء — فليس ما يُقال لأمثال أولئك الظالمين. أما في نظر المؤمنين بالله، فليس في وجود كثير من القوى والوسائط اللطيفة، للمؤثر في جميع الخلوقات، للمحافظة على نظام العالم، والقوى المشخصة، وفي جعلها رجال مختارون رسلاً من عند الله، لإرشاد العباد إلى الطريق المستقيم وهدايتهم — ما يتعارض مع العقل والعلم والفن. بيد أن موضوع الدين يَمَسُّ كثيراً من الأمور ذات العلاقة بالخالق، وسر الخلقة، وكيفية الحياة، والحياة الآخرة، وكلها أمور متعذر إدراكها بأسلوب العقل البشري، ويتعسر التعبير عنها وفهمها بلسان الدنيا؛ فلذا يمكن حدوث اختلافات فرعية في أمور الدين، أو بعبارة أصح في تلقينها — بالرغم من الوحدة في الأصل — واشتداد تلك الاختلافات بمرور الزمن، وطول الأمد. ومن هنا ينشأ تعدد المذاهب في الدنيا. وقد بينا في الفصول السابقة لمناسبات، أن التضاد والاختلاف من مقتضيات الحياة الدنيا الطبيعية. فعلى ذلك لا محل للحق والشدة إزاء أرباب المذاهب التي لا تذهب إلى الشرك بالله وإنكاره، أى إزاء أهل الكتاب. وقد ثبت هذا الأمر كذلك بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية. ويخيل إلى أن اختلافاتنا المتولدة من نظرنا وفكرنا تجدد فرصة للائتلاف في عالم الإطلاق

والسرمدية ، في تلك الدار الفسيحة ، التي لا تحدها نهاية . ولكن نظرا إلى الفهم في هذه الدنيا أيضا تظهر في كل حال ، وفي كل محل وجد فيه التعدد والتنوع ، قضية الرُّجحان بطبيعتها .

رجمانه الاسلام على سائر الأديان :

إذا بُحِثَ وَحُقِّقَ بلا تحيز ، ثبت رُجحان الدين الإسلامي على سائر المذاهب بوجوه كثيرة :

فأولا : — إن المعبود الذي يصدِّقه ويبجِّله هو السبب الأول الحكيم . يؤمن المسلمون بوجود الخالق ووحديته ، ويقرّون له بالصفات الأزلية التي لا بد منها عقلا للمسبَّب الأول . بيد أنهم يُنزهون سرّ ذاته عن إحاطة العقول به ، ويرونه أعلى من ذلك . ودعك عن دعوى الوصول إلى قدس أسرارهِ ، فإنهم يرون مجرد البحث عنه شركا ، قال بعض الصديقين :

العجز عن دَرَك الإدراك إدراكٌ والبحث عن سر ذات الله إشراك

وهذه العقيدة هي عقيدة أكثر العلماء المنصفين ، على حين أن هذه المسألة مهوَّشة مضطربة في التعاليم المتداولة اليوم لسائر الأديان . أى أنهم يخلطون في ذات الله سبحانه وصفاته بعض عقائد متعارضة مع العقل والعلم . فيدعون مثلا النفوذ إلى قدس أسرارهِ ، والوقوف على أحوال أسرارته — حاشا لله — (٥٤) . وهناك خلاصة ما يورده أصحاب المذاهب من الأدلة لإثبات هذه المعتقدات ، وهي : « متى صُدِّقَ بالله ، فلا يُستبعد أن يُرشد عباده بالوحي والإلهام ، وأن يعرفهم بعض المقيّبات . وقد ثبت تاريخيا أن الأنبياء وعيسى عليهم السلام قد بعثوا ، وقاموا بالرسالة من قِبَل الرحمن . والتاريخ صحيح لأنه من العلوم

* الأب مورو : كتاب حدود الدين والعلم (ج ١ ص ١٠ — ١٧) وأواخر الجزء الثاني .

التجريبية . فيقتضى الثقة بهم^(٥٥) . وإن كانت عقولنا تقصُر عن إدراك بعض المعتقدات ، فإن مسائل الألوهية في حد ذاتها أعلى من إدراك عقولنا القاصرة . والحق أن الإسلام أيضا يُقر بالوحى والإلهام . ولم يكن ممكنا أن تُلقن الأجيال البشرية البدائية الحقائق الدينية ، بالأدلة المنطقية والرياضية . ولكن يُشترط أن تكون العقائد التى يقال عنها إنها أثر إلهام ، فطرية معقولة ، حتى تكون مقبولة . وإذا اعتمدت على دعاوى الوحى والإلهام تسليما ، فالمسألة تنتهى إلى الطاغوت والأصنام ؛ لأن الذين لَقَّنُوا أمثال تلك الظنون الباطلة وأشاعوها ، هم أيضا لم يكونوا يسلكون مسلك إثبات دعاويهم بالأدلة ، ولم يكن ذلك فى طاقتهم ، وإنما قالوا إنهم أُلْهِمُواها .

فلننظر الآن عقائد الإسلام ، وهو دين فِطْرِيٌّ استدلالى :

١ — الإيمان بالله : إن الناس يبحثون بفطرتهم عن مسبب الأسباب للكائنات ، وَيُجِلُّونَ المعالى . فالإيمان بالخالق وعبادة الله وهى أعلى للمعالى ، لا يمكن أن يكون أمرا مخالفا للعقل والحكمة .

٢ — الإيمان بالملائكة : إن امرأ حساسا يشعر فى روحه بوجود قوى خفية حوله ، فيبحث عقلا عن أسباب خفية لطيفة لكثير مما لا يقدر على تعليقه وتأويله من الأحوال ، فلذا لا يُحْسِصُ صعوبة فى الاعتقاد بالملائكة .

٣ — الإيمان باليوم الآخر : كل من له وجدان ، ومن هو واثق بحقه ، ومحِبٌّ للعدل ، يتمنى — متأثرا بما ابْتُلِيَ به هو ومن حوله من المظالم — عدالة أخروية ، وجزاء وعقابا ، فيؤمن بالآخرة .

٤ — الإيمان بالقدر : لا تجد رجلا عاقلا متأملا مُحَقِّقا فى حياته وحياته من حوله لا يعتقد بوجود تصرف خفى ، مساعد أو معاكس ، لاختياره وتديره فى شئون حياته . وهذه العقيدة مفيدة للبشرية ، ونافعة بقدر ما هى فطرية .

يُقرُّ الأب مورو وكل الآباء النصرى كذلك ، بلزوم عقائد دينية معقولة فطرية ، ويحاولون إثبات أن عقائدهم كذلك ؛ ولكن لا أدري كيف يرون ادعاء النفوذ إلى أسرار الله وحياته الخاصة معقولا وفطريا ، مع أنهم يعتقدون بأن الله فوق الإدراك . كيف يقدر البشر على دخول قدس خالق الكائنات ، وهم عاجزون عن الاطلاع على شئون جيرانهم البينية ؟ وما الفائدة والحكمة المنتظرة من مثل هذه العقيدة ؟ الإسلام يعظم عيسى عليه السلام ، بيد أنه يقول أيضا إن عيسى كان يَلْمَنُ عقيدة التثليث . ومجمل القول أن الدين الحق عقلا وعلمًا هو دين التوحيد^(٤٦) .

وثانيا — عقيدة الإسلام في خِلقة آدم وهبوطه عارية عن مبالغات أساطير الأديان الأخرى . قُصَّ في القرآن بعضُ قصص العهد القديم حول هذه المسألة ، ولكن ليس بها عجب كتغيير الزَّاة المعلومة لما في الخِلقة من العزْم الإلهي — حاشا لله . وإن الإرادة الإلهية بالنظر إلى العقيدة الإسلامية ثابتة لا تتغير ، فالأحداث السكونية كلها مُعلَّنة بما في يد المشيئة الإلهية من التقدير الأزلى . والمعلم الإلهي شامل كافة الشئون الدَّهرية . والإسلام لا يُقرُّ كذلك بنزول الغضب الإلهي على ذرية آدم ، من أجل تلك الزَّاة ، أى نظرية الخطأ الأصلي ، التى تقول بها النصرانية .

إن هبوط آدم وحواء من الجنة إلى الأرض من معتقداتنا الدينية . بيد أن العلم كذلك يقر ب ورود الحياة في حالة بروتوبلاسَم إلى الأرض من سائر الكواكب ؛ فمع أنه ليس في قيام آدم وحواء برحلتها الجوية بيدتهما الإنسانى ما يُعد خارجا عن القدرة الإلهية ، لم يذكر القرآن الكريم هذا الحادث بأية صريحة . وبناء على ذلك ليست ثمة استحالة علمية في أن يُخلقا في عالم آخر ، أى في الجنة ، في صورة البشر ، ثم يَهَيَّطَا إلى الأرض نطفة تندمج فيها سيرة البشر وصورته ، وأن يتلاقيا ويتشكلا ، وأن تدوم ذريتهما بعد ذلك . لقد ذُكِرَتْ سابقا نظريات

« سوينت آرينيوس » في كيفية ورود الحياة إلى الأرض من سائر العوالم . ومن جهة أخرى لو أمكن الانتفاع بالقوة الخارقة التي بين الذرات ، فإن رحلة الإنسان إلى السموات من الممكنات العلمية . فكيف يسوغ لامرئٍ مقرّ بهذه الفرضيات والاحتمالات ، ومؤمن بوجود مسبب أوّل قادر خالق أزلي لهذه العوالم ، أن يدّعى أن نزول آدم وحواء من عالم آخر إلى الأرض في صورة نطفة ، أو حتى هبوطهما بيدنهما الماديين ، يفوق قدرة خالق الكائنات ؟

وإفادتي السابقة جواب على أولئك المتفنيين المدّعين المعجبين بأنفسهم ، الذين يستهزئون بالنقول الدينية الواردة عن هبوط آدم وحواء ويستبعدونه . وإلا فهي لا تتضمن الادعاء بأن الهبوط قد حدث كما ذكر تماما ؛ إذ لا يلزم أن يكون ظهور بداية الحياة في السكواكب ، مطابقا لأسلوب التناسل المعروف اليوم وقاعدته . فالابتداء لا بدّ له من تجلّي قدرة المسبّب الأول اللدنيّة . وليست ثمة ضرورة أيضا للإقرار بنشأة الحيوان كله من بروتو بلاسم واحد ، كما يقول به بعض الحكماء ، لقبولهم ورود ذوى الأرواح إلى الأرض في حالة بروتو بلاسم . (Protoplasma) . وبناء على ذلك فليس هناك ما يتعارض مع العلم في الإقرار بظهور الإنسان في أسلوب آخر ، وصورة أخرى . ومن رأيي الخاص أن البشرية المتفكرة مولود رابع في الطبيعة ، فوق المواليد الثلاثة . لأنني أرى أن بين الإنسان والحيوان فرقا وتفاوتا بقدر ما بين النبات والحيوان على الأقل .

يقول بعض المفسّرين : إن الجنة التي خلق فيها آدم عليه السلام ، كانت في الأرض . ويستنتج من هذا حرمان آدم وحواء بزّلتهما المعروفة من نعيم كرتهما . وليس في هذا التصور ما ينافي العقل والعلم . تصوّر بيانات الكتب المقدسة عن خلق آدم ، الخسران الذي أصاب الشيطان وأتباعه من داء العظمة والحسد ، والنكبة والحرمان اللذين يصيبان من ينقاد لوساوس الشيطان ، فيخون الأمانة ؛ وتحتوى على أعمودج لعبرة في حياة البشر المستقبلية . ولو اعتبرنا شروع البشرية في مجادلة

الحياة ، بعد أن أدّبت تأديبا شديدا فعليا — ويمكن انتقالها إلى نسله عن طريق الوراثة — أثرا من آثار الخلقة الحكيمة ، فلا يعد هذا الاعتبار مخالفا للمنطق .

لقد ورد في القرآن الكريم : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر » . يتلقى المنكرون هذه الآية بالاستهزاء . ولكن إذا فكرنا قليلا ، فإننا نرى أن بنى آدم استفادوا منذ عهد بعيد عالمين أو جاهلين ، من قوى الجاذبية والحرارة والضوء والكهرباء والمغناطيس ، وغيرها من السيلالات اللطيفة : والرياح والمياه ، وسخّروها في الأزمان الأخيرة بتطور العلوم ورقبها ، واستعملوا المواليث الثلاثة كما يشاءون . فبينما جميع القوى اللطيفة ، والموجودات الأرضية المعلومة وغير المعلومة خاضعة للإنسان ، وساجدة له ، توجد قوى إغوائية معادية له عاصية ، تسمى الشيطان وإبليس في اللغة العربية ، وتسمى في سائر الألسن بما يقرب من هذا . فهذه القوى تعصيه وتعاديّه . أظن أن توجيهها كهذا لا يُعد عبثا عند العقلاء في مسألة سجود الملائكة لآدم . ولكن يجب أن نفكر منصفين أيضا : هل كان الناس في بداية نزول الأديان ، أى في عصور كان العلم البشرى جد محدود ، قادرين على إدراك ما سرّده من البيانات آنفا ؟ وإذا كانت الكتب الدينية أفهمت الناس رمزا وإشارة بأن هناك قوًى خفية معادية له في الدنيا ، فبأى حق يُعترض عليها ؟

وثالثنا — الإسلام دين فطرى ، أى أنه مُعَقَّب للشرائع والعقائد الخفية ، التى فُطِرَ البشر عليها ، وأمر بها منذ ظهوره . قال تعالى : « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » — سورة البقرة . وقال : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحا » — سورة الشورى .

وهذا الدين المبين يدل على الصراط المستقيم ، الذى يُوصِّلُ البشرية كلها دون استثناء الأشخاص والأقوام إلى السلامة فى الدارين . فهو ليس بخاص بشعب

واحد ، كما يدعى اليهود الآن ، ويصدق الأنبياء جميعا بدون تفريق : « لا نفرق بين أحد من رسله » — سورة البقرة (٥٧) .

ورابعا — الإسلام لا يؤسّس الناس من الحياة الآخرة . إنه وإن كان يعلم عقيدة البعث بعد الموت ، وخلود الروح ، إلا أنه لا يزودنا بمعلومات كثيرة عن الروح ، وعن حياتها التي قبل الحياة الدنيا ، والتي بعدها ، ويكتفى بأن يقول : إنها من أمر الله . وينذر الناس بالعقاب في اليوم الآخر ، بيد أنه لا يبعث فيهم اليأس . لقد ورد في الأحاديث القدسية : « سبقت رحمتي غضبي » وفي الآية الكريمة : « ورحمتي وسعت كل شيء » .

فهو يجعل النعم خالدا للأخيار ، ويجعل النار مؤقتة لعصاة المؤمنين . وليس للمسلمين رهبان يطهرونهم من آثامهم . فالله نظرا إلى تعاليم القرآن هو الرحمن الرحيم ، والغفار الكريم . يغفر بلا واسطة للمذنبين النادمين المستغفرين . والواقع أن الناس سيلاقون جزاء أعمالهم خيرا أو شرا ، ولو كانت أعمالهم مقدار ذرة . بيد أن حسنة تمحو عشر سيئات عند المحاسبة على الأعمال .

وخامسا — لا ينذر الإسلام معتنقي سائر الأديان إطلاقا بجهنم خالدين . وقد قال تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصّٰبِئِينَ من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » — سورة البقرة الآية ٦٢ . وقال : « ليسوا سواء ، من أهل الكتب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسرعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه . والله عليم بالمتقين » — آل عمران ، الآيات ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ . نظرا إلى هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الآتية : — « من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة » . و « من شهد أن لا إله إلا الله دخل الجنة » . و « من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة » ؛ فليس بعيدا احتمال عفوه سبحانه

وتعالى عن عملوا الصالحات غير منكرين وغير مشركين بالله شيئا عما ارتكبه من الذنوب، وادخلهم في جناته . الشرك والإنكار يستلزمان العقوبة الخالدة . ولكن لم يُرفع احتمالُ تخليص المشركين والمنكرين من أرباب الأعمال الصالحة أنفسهم من العذاب الأليم ، باهتدائهم بتصديق الوجدانية الإلهية في النفس الأخير^(٥٨) . إن القيام بأعمال صالحة في الدنيا يؤدي إلى ملاقاته الخير في الآخرة ، بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم : « من كان آخرُ كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة » . وقوله : « ما حسن الله خلقَ عبدٍ وخلقه ، فيطعمه النار » . وقوله : « الدنيا مزرعة الآخرة » . [شاهد كثير من ذوى أخلاق مستقيمة ، وأفعال محمودة ، عاشوا منكرين ، حتى إذا جاء أنفسهم الأخير صدقوا ما في ضمائرهم] .

أما الصبيان فمضونون من العذاب مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم : « ما من مولود إلا يولد على فطرة الإسلام » .

في نظير هذا التسامح الإسلامى ، لا يرى اليهود أحدا غير يهودى خليقا بالقرب الإلهى . أما النصرانية ، فإن فيها من يعتقد بأن أطفال النصارى الذين يلقون حتفهم بعد ولادتهم بيومين أو ثلاثة أيام ، دون التعميد النصرانى ، لا ينجون من العذاب الخالد ، طبقا لنظرية « الخطأ الأصلى » ، بله أمثال قونفوشيوس ونحى الدين ابن عربى ومعدى الشيرازى وابن سينا .

ولنتعمق قليلا في هذه النقطة من المسألة :

يعيش في الدنيا اثنا عشر مليون يهودى ، وخمسمائة وخمسون مليونا من النصارى بحسب الإحصائيات . ولما كان النصارى أيضا منقسمين مذاهب مختلفة ، يكفر بعضها بعضا ، فإن أكثر مذاهبها أتباعا لا يزيد على مائتى مليون نفس على أكثر تقدير . فلو أقرّ بصحة مذهب هذه الأثرية النسبية ، وعدّ نظرا إلى أحوال الناس نصف هذه النفوس على الأقل — على حساب منصف — من أصحاب الكبائر ، لوجب ابتلاء أربعة عشر من خمسة عشر من مجموع سكان

الكرة الأرضية ، المقدر عددهم بأكثر من ١٥٠٠ مليون نفس بعذاب خالد . وخاصة من جاء منهم إلى الدنيا قبل ألف وتسعمائة عام ، فإنهم جهنميون بلا استثناء ، من جرّاء سرقة جدنا الأعلى للتفاح ! فينتج إذن أن الرحمن الرحيم والخالق الكريم ، إنما خلق الناس لحكمة تموين النار بالوقود ، حاشا وكلا !

يعترض معظم الحكماء ، وفيهم حكماء إلهيون أمثال جوته وفلاماريون ، على الأديان من هذه النقطة ، ولكن لو حقق لعلم أن الإسلام قد سدّ باب مثل هذا الاعتراض بأحكامه وقوانينه السمحة العادلة الواسعة ، وبنقطة نظره البعيدة الغور . وكما أن حكمة الخلقة تحفظ الكائنات من كل أنواع الصّدّامات والمهلكات ، فإن الحكم القرآنية كذلك ، تحفظ الحقيقة الدينية من شوائب الاعتراض .

ومع أن الأمر كذلك ، يعتقد غير المسلمين أن الإسلام يُلقّن أتباعه بغض سائر الأديان . ومن العجب أن حكماء محقّقاً مثل كميل فلاماريون أيضاً تحدث في مقدمة كتابه « المجهول » عن هذا الرأي بلسان ساخر . وليس في الدنيا دين فيه سماحة نحو سائر الأديان بقدر ما في الإسلام ، فلا إكراه ممنوع في تلقين الإسلام ونشره . وهذه القضية ثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، كقوله تعالى : « أدعُ إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن » . وقوله « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » . وكقوله صلى الله عليه وسلم : « إتقوا دعوة المظلوم ، وإن كان كافراً ، فإنه ليس دونها حجاب » ، فكلّها براهين ناطقة بصحة دعوانا . فتحت مكة بانتصار المسلمين على قريش ، وسمح لمن يرغب منهم في البقاء بمكة على وثنيته ، بل سمح لبعضهم بالاشتراك في حرب حنين . مع جيش الرسول ، وأغض العين عن بقاء اليهود بالمدينة وهم يعيشون فيها فساداً . فهل يُتصور تسامح أكرم من هذا ؟ .

ظلت بين المسلمين وبين النصارى مخاصمات شديدة قروناً عديدة ، بيد أن بادئها الأول كان دعايات الصليبيين . شرع فيها « بيترلرميت » ، ثم زاد هذا

الرأى قوة بتظلم وشكايات وصراخ من الشعوب النصرانية ، التى أدخلها ملوك المسلمين ولا سيما العثمانيين فى حكمهم بالحرب . ومن الجائز أن يكون قد نجم بعض مساوئ مما وصفت بدأها من العداوة ، ولكن الشر بالشر والبادى أظلم . وقد يجوز سرد بعض وقائع تاريخية مثالا لما وقع على الرعايا من ظلم بعض الأفراد واعتسافهم . بيد أنها مساوئ وفضائع شخصية لا علاقة لها بالدين . فى حين أن مظالم محاكم التفتيش قد ارتكبت باسم الدين ، وبتحريض من الرهبان ومعرفتهم وحمايتهم . لقد ذكرت فى ذيل هذه الصحيفة صورة عهدين ، أحدهما من الرسول صلى الله عليه وسلم لرهبان ونصارى سيناء ، والآخر من أبى بكر الصديق للمجاهدين المرسلين إلى الشام ، دليلا على ما عامل به الإسلام سائر الأديان من التسامح الكريم^(٥٩) .

وسادسا — أبطل الإسلام الفروق والامتيازات بين الشعوب والطبقات ، ودعا إلى الأخوة والمساواة بين جميع المسلمين ، بل بين الناس كافة . لقد ورد فى الآية الكريمة : « إنما المؤمنون إخوة » ، وفى الأحاديث الشريفة : « الخلق كلهم عيال الله ، فأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله » ، و « كونوا عباد الله إخوانا » . ونظام الطوائف (Caste) أى تقسيم الناس إلى طبقات وأصناف ، وتمييز بعضهم عن بعض قوام ديانة « براهما » ، التى هى أساس العقائد الشرقية . والموسوية تجعل بنى إسرائيل شعب الله المختار ، والنصرانية لا تحتوى على نظرية التفريق بين الطبقات ، ولكن لو أقيمت نظرة إلى اختلاف الطبقات والتعصب الذى كان بين الشعوب النصرانية ، أيام أن ساد التعصب الدينى بلاد أوربا فى القرون الوسطى ، وغرور القومية الخاصة والطبقات السائد اليوم فى أمريكا وأوربا ، لحكم بأن التعاليم الإنجيلية الحالية لا تنفقد بالوقوف أمام هذه الفروق والاختلافات . وسابعا — الإسلام يحفز الناس للتمدن والرقى والتطور . وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة مؤيدة لهذه الدعوى ، وتبركت بذكر بعضها فى الفصول السابقة

والحديث الشريف : « من استوى يومه فهو مغبون » ، يدلنا على ما أبداه الرسول صلى الله عليه وسلم من الاهتمام بالرق والتطور ماديا ومعنويا . وهذه الحقيقة مؤيدة بالوقائع والآثار . فإن انتشار ديننا بسرعة البرق في صدر الإسلام واستقراره في معظم أقسام العالم المتمدن ، لا يُحْمَلُ على شيء سوى أنه دين فِطْرِي ، وأن أحكامه حافلة بالحكمة والعدل والحرية والمساواة . لأن القسم الجنوبي من بلاد العرب المتمدن نسيبا (اليمن) كان قبل الإسلام تابعا للأحباش حينما ، والابرايين حينما آخر ، والقسم الشمالي كان متقلبا بين النصارى والزردشتيين ، أى كان أيضا في حماية روما وإيران . وأما القسم المركزي وهو مهد ظهور الإسلام ، فكان سكانه من الوثنيين عامة . وهم أهل بعض المدن المعتادون الاشتغال بالتجارة ، وقبائل من البدو الرحل الذين لا يفترون كثيرا عن بدو اليوم ، ضعاف قد وقعوا في تأثير التغلب الفكري والاقتصادي لليهود الذين حلوا فيهم . فهذه قبائل مشتتة كهذه مرة واحدة ، وظفرها بالفتوح بقوة السلاح وحدها ، ليس في الإمكان مادة . وإذا كان الأمر كذلك ، فلا بد من الحكم بوجود قوة جامعة وتمديدية في رُوح الإسلام ، تدفعهم إلى نهضة سريعة ، واتحاد قوى .

إن ما أظهره الإسلام من الرقي والتقدم في كل أنواع العلوم والفنون والصناعات في القرون الأولى من الهجرة ، خلّيق بالدهش . فقد كانت تيارات الفلسفة والعلوم الحكيمة والرياضية التي أوجدها المصريون واليونان والرومان في أزمان طويلة ، قد توقفت بل نُسيبت من جراء الاضطرابات والانقلابات السياسية في الدولة الرومانية ، وما حدث من المناظرات والمنازعات بين النصارى ، وسائر الشئون التاريخية ، ففتح الإسلام هذه التيارات بقوة مرة أخرى ، وأضاف إليها مخترعات فكرية وحكيمة جديدة .

ودخول أنوار العلوم والمعارف بلاد أوربا عن طريق الأندلس والحروب الصليبية وانتشارها فيها ، حقيقة ليس في وسع أعداء الإسلام تعصبا إنكاره .

لقد ورد في مبحث الإسلام في معجم لاروس الجامع : « كان من المسلمين متصوفون ولفويون ومؤرخون وجغرافيون ورحالون وفلكيون وصناع ؛ بيد أنهم لم يُنجبوا علماء خليقين بالذكور في الحكمة والكيمياء والعلوم الرياضية » . ولعلماء المسلمين اكتشافات في الكيمياء ، كما أن الجبر إن لم يكن من مخترعاتهم ، فإن الذين كَمَلُوهُ وأدخلوه أوربا هم المسلمون . واسمه المستعمل في اللغات الأوروبية (Algebre) دليل ناطق على مجيء الأصل من المسلمين . وذكر أسماء ابن سينا والفارابي وابن خلدون دليل كاف على نصيب المسلمين في كافة شُعب العلوم . نشر عمانوئيل دويسن من علماء اليهود مقالا في « كوارترلى ريفيو » الإنجليزية ، قال فيه : « دخل الفينيقيون أوربا تجارا ، واليهود قوميين ، ودخلها المسلمون حُكاما ، وحملوا بفضل القرآن قَبَسَ العرفان إلى أوربا . والحق أن المسلمين علموا الشرقيين والغربيين الفلسفة والطب والفلك والشعر . وأحيوا تراث اليونان وعلومهم الميئة . لقد كانت الدنيا مُحاطة ببحر من ظلمات الجهل ، فأغرقوا كل أرجائها في النور . فهم بهذا الاعتبار واضعو أساس العلوم الحديثة » . وقال جاستون كارمن من مستشرقى فرنسا المشهورين ، في سلسلة مقالات نشرها في جريدة فيجارو عام ١٩١٣ : « إن القرآن وهو منبع هذا الدين العقلي ودستوره ، قد احتوى على أسس تستند إليها حضارة العالم . ففي إمكاننا أن نقول إن هذه الحضارة نشأت من امتزاج الأسس التي نشرها الإسلام^(٦٠) . وكل ما في الأمر أنهم لم يقدرُوا على مسابقة الغرب في ساحة العلم في الأزمان الأخيرة . بيد أن جعل الدين مسئولا عن هذا التأخر خطأ فاحش . لأن جزيرة العرب وما حولها كانت عند ظهور الإسلام في ظلام دامس ، ولم تنعم بالعلوم والفنون إلا بفضل الإسلام . والتاريخ شاهد عدل بصدق ما أقول . والانحطاط السياسي الذي نشأ من الإدارة السقيمة المستبدية ، التي أسستها الحكومات والجماعات الإسلامية مخالفة للأحكام الدينية ، كانت مانعة للرقى العالمى أيضا . والنصرانية نشأت في بلاد كانت مهد العلوم والفنون ،

ومع ذلك أدت إلى زوالها ، ولم يمكن نهضة تلك العلوم مرة أخرى إلا بانكسار التعصب النصراني ، باستيلاء المسلمين على إسبانيا ، كما ذكرناه سابقا . وبينما الحال كذلك إذ نرى جماعة من المسلمين المتسمين بالثقافة يشدقون بأن الإسلام مانع للرقى . فلا أدري كيف يُقابل هذا ، أبالضحك أم بالبكاء ؟!

وثانمًا — وأسلوب عبادة المسلمين أسمى بوجوه كثيرة من مراسم سائر الأديان وأصولها . فالمسلم ليس في حاجة إلى واسطة ليعبد الله ، وهو حرٌّ مطلق من السلطة الرهبانية . والإمامة واجبة في حالة الصلاة بالجماعة ، يقوم بها الأرشد والأليق من الحاضرين ، وتُلقى في الجوامع خطب ومواعظ ونصائح ، يُفوّض بإلقائها لمن يكون أهلا لها . وأما العبادة فكل فرد يتوجه إلى ربه بنفسه . يتلو القرآن والأدعية بنفسه ، أو يستمع إلى تلاوة غيره لها . وليست في العبادة الإسلامية المراسم والتشريفات ، من ذكريات الوثنية ؛ والتوسل بالكوكب والسجود — وهما أكبر آداب التعظيم والعبودية عند الناس — أمر طبيعي في التوجه إلى الله سبحانه وتعالى . والاعتراض عليه سفسطة . فلو كان في صدر الإسلام مراسم غيرها للتعظيم لأمرنا بذلك .

والتطوُّر لأجل الصلاة من أعظم الحكم الإسلامية . ويختار عكس ذلك في بعض المذاهب ، فيتكاسلون في الطهارة والنظافة بدعوى ترك ما سوى الله . وبما أنه قد أعطيت معلومات كافية عن الفوائد الدنيوية للعبادة في فصل خاص ، فقد اكتفيت هنا بهذا القدر .

وتاسعا — في الأديان الأخرى عقيدة تقول بتحصار ذوى الحياة في أرضنا هذه ، واختصاصها بها . وهذا الرأي ليس في استطاعة علماء الفلك في هذا الزمان هضمه ، فلذا يميلون إلى وادى الإنكار . ولما كانت الآية الكريمة : « ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة » ، تقول بأن في السموات — أى في الأجرام الفلكية دواب ، يعنى ذات حياة قابلة للحركة والمشى ، فالإسلام

سليم من فكر غير علمي كالذي رأيناه . فمَرَّ بعض المفسرين القدماء بأن المراد من الدوابّ في السموات هم الملائكة ، ولكن هذا التفسير يتعارض مع آيات أخرى في شأن الدوابّ والملائكة . ولما كان عهد أولئك المفسرين لم يكن قد اكتشف فيه بعد ، لأبعاد السيارات التي في المجموعة الشمسية ولاجساماتها ولا حال مليارات النجوم والكواكب وشأنها ومجموعاتها ، لم يستطع أولئك العلماء الإحاطة بإمكان وجود ما يشبه عوالمنا في السموات أو مخلوقات شبيهة بنا إلى حد ما ، فلجئوا إلى التفسير المذكور ، بيد أن ترقيات العلم الحالية ، أثبتت صدق القرآن الكريم وحكمته بهذه الصورة أيضا .

إنني أعتقد أن «دين العلم والفلك» الذي يتمناه حكماء المذهب الإلهي للمستقبل ، سيظهر قريبا أو بعيدا أنه هو الإسلام . وأسرد بهذه المناسبة رأي المؤرخ الإنجليزي إدوارد كيبون حيث قال «إن موحدًا ذا دماغ فلسفي لا يتردد لحظة في قبول وجهات نظر الإسلام . فالإسلام دين أعلى من تطورنا الفكري اليوم»

(أخذ قول كيبون من كتاب «قرآن نه در = ما هو القرآن» لعمر

رضا بك)

الباب الثالث

الجواب عن الاعتراضات المنكرة

ليس في الإمكان سرد اعتراضات مبرهنة مقبولة ومعتبرة عقلا وحكمة ضد الأسس الدينية . وإذ أن الماديين ، بعد هذا القدر من البحث والتحقيق والمناقشة ، لا يقدرّون على إدراك ظهور الكائنات إدراكا بعيدا عن الشبهة ، وإثباته وإيضاحه ، ولا الكشف عن أصل المادة والقوة وماهيتها ، وكيفية تشكل المادة وتفسيره ، فلا يمكن أن يكون إنكارهم الخالق فوق الإدراك الذي تقر به الأديان ، معتمدا على أساس منطقي . وإذ أنه تُشاهد دائما مكتشفات جديدة ، ويثبت اليوم بطلان نظرية كان يُظنّ صحتها بالأمس ؛ ويتحقق حادث بنظرية حديثة كان يُظنّ فيما مضى مستحيلا ؛ ولا تزال دائما تتكشف أشعة مجهولة الماهية ، وقوى وأحداث ؛ فليس في طاقة المنكرين أن يجدوا أساسا ثابتا متينا صالحا لجرّح عقيدة أهل الدين بعالم غيب ممكن أن يكون مبدأ ومنشأ لهذه الظهورات المتوالية كذلك — كما هو أساس لعقائدهم — ونفيها .

ولو أن الإيمان بالغيب هو الشرط الأساسي للدين ، والمعيّيات أمور ليس في طاقة الحواس الخمس البشرية التعلق بها ، وإنما تُحسّ ويُفهم وجودها بما تدل عليه آثارها ، ويمكن الاقتناع بها عقلا كذلك . إلا أن ذواتها وحقائقها وحالاتها وشؤونها ، أعلى من إحاطة علم البشر بها ، فلذا يُؤمن بها دائما كما وردت في نقول الأديان . ومع ذلك لا سبب ولا محل لإظهار العجز باختيار السكوت والاستغناء على زعم « أنه لا يمكن المناظرة في مسألة أعلى من إحاطة عقولنا وعلمنا » ، إزاء ما يدعى الملحدون بأن المعتقدات الإسلامية من قبيل العبث والمستحيلات . وصحيح

إنه لا يمكن إثبات جميع النقول بالحساب والتجربة . ولكن العقائد الإسلامية الأصلية من جملة المسكنات ، وليست عبثاً ومحالاً . وهذه الجهة يمكن إقناع أرباب العقول السليمة بها عن طريق القياس والاستدلال العقلي . فلماذا يجب على كل مؤمن مثقف أن يبذل جهده وكفائته في هذا الشأن ، لوقاية شبابنا من الضلال^(٦١) . وكل فرد متفكر منصف ، يسلم مثلاً بأنه لم يكن في طاقة عالم أو جاهل قبل قرن من زماننا هذا أن يتصور إمكان إرسال نبال واسطة ، في لحظة غير منقسمة ، من طرف الدنيا إلى طرفها الآخر ؛ فلو ادعى أحد ذلك لحكم بأن به مستأ من الجن .

ومندبضة أعوام من قبل أن تصير الطيارات والمطاوئد المسيرة قابلة للاستعمال ، كانت تنشر في المجلات العلمية مقالات العلماء الفنيين عن عدم إمكان استعمال الدفة في الجو ، وتسيير المراكب الخفيفة إلى حيث يراد في أجواء السماء . والآن يمكن الاتصال بأمریکا والشرق الأقصى ، وتبادل المحادثات في لحظة واحدة ، ويتم الدوران حول الأرض في بضعة أيام بالطائرات . وبيننا هذه الأمور أمام الأنظار ، فإن إنكار ملائكة الله وموجوداته اللطيفة التي يتكفل بها نظام العالم ، بدعوى أنها خارجة عن الإمكان — لعدم فهمنا بإدراكنا الضيق — لبلادة كبيرة .

وأما المنكرون ، فبعد إنكارهم لذات الخالق وأمر الخلقه والأنية البشرية والروح ، يرون أن في ظهور العوالم أمراً يعجز العقل البشري عن الإحاطة به ، وأن الهوية البشرية نشأت من تركيب بعض الذرات المادية وتحللها ؛ وأن السجاياء البشرية كالشجاعة والقوة تتم عن طريق التيارات الكهربائية العضوية ؛ وأن الفكر عبارة عن تركيب مماثل لمحض الفورميك ، والتفكير تابع للفسفور وأمثالها من دعاوى . والذين يقولون بأن النقول غير معقولة وينكرونها ، ملزمون بإثبات دعاويهم — كاثني سبق ذكرها — عقلاً وحساباً وتجربة . وقد مضى نحو قرن على ظهور هذه الأفكار الدجيبة ، وظهرت منذ ذلك الزمن مخترعات محيرة للألباب

كالخاكي (فنوجراف) والتليفون واللاسلكي وأشعة رونتجن والراديو ونظريات الكهربي، وأمثالها من المكتشفات العلمية، ولم تكتشف وسيلة واحدة مدعّمة لتلك الدعوى المجردة، ولم يستصوبها مخترع أو مكتشف جاد. وأظن أنه كما لم يأت إلى الآن صاحب عقل سليم يُسلم بإمكان حدوث الفكر والملاحظة بالإفرازات الجسمية والتركيبات الكيميائية، وإمكان حدوث الخصلة والسجية بالتأثيرات الكهربائية، فإنه لن يظهر بعد الآن أيضا. فليثق شبابنا بأن التطورات العلمية سوف تؤيد الإيمان بالمعنويات والمقنّيات، وخالق الكائنات، كقول هرشل المذكور في الباب الأول من هذا الكتاب.

ومن جهة أخرى يجب على علماء الدين أن يجتنبوا في التفسير وإيضاحاتها، البيانات الواهية المغيرة للعقل والعادة، المتعارضة مع المحقّقات والقوانين المثبتة للمادية، متجاوزين حدود عالم الغيب والاحتمال، حتى لا يُعطوا أعداء الدين وسيلة الاعتراض، ويشحذوا سلاح اعتراضهم.

ليست في الدين الإسلامي أحكام وقواعد يمكن علميا إثبات مغايرتها للقوانين الطبيعية. بيد أن في كثير من الأديان والمذاهب التي نشأت من الباعث المعنوي والاحتياج الطبيعي للبحث عن خالق وإجلاله، وتهذيب الطباع والأخلاق البشرية وتحسينها، والتي يلزم أن يكون كلها صحيح الأساس بهذا الاعتبار، ظهر أشخاص حاولوا شرح المعتقدات الأصلية، وتوسيعها حسبما يزعمون، فجعلت بدعهم وعلاواتهم، تلك الأسس الاعتقادية مخالفة للعقل والحكمة، وفتحت بابا لكثير من الظنون الباطلة^(٦٢).

ولما كانت التطورات العلمية والحكّمية تحدث منذ عصور عديدة منحصرة في عالم النصرانية^(٦٣)، فإن الاعتراضات الجديدة كانت ضد العيسوية. وإذ أن المعتقدات النصرانية المعترّض عليها قد اكتسبت القطعية بأحكام وقرارات البابوات والبطارقة، الذين يُعدّون معصومين من الخطأ، والقناصل (Conciles) الذين يعدّون

مُتَمِّمِينَ من روح القدس ، فمن الجائز أن يُعْتَرَضَ عليها حين تظهر مَقَارِئُهَا
للبديهيات العلمية . إلا أن العقائد الإسلامية التي أَوْضَحْتُها في الفصول السابقة ،
ليست فيها عجيبة كذلك . فليس في الإسلام لا بابا غير مخطئ ، ولا قنَاصِلُ مُتَلَهِّمُونَ ،
ولا مَنْعُ المناظرة والاستدلال في الأمور الاعتقادية ! وعلى ذلك ، ليس من الحق
في شيء أن نحمل على عوانقنا بعض الاعتراضات الصريحة أو الضمنية ، التي يوجهها
بعض علماء الغرب على مذاهبهم غالبا ، وأن نضم إليها ما ينشرها بعض الناس ضد
الإسلام ، بدافع من نيات سياسية ، أو خصومات مذهبية ، رَأَى نَقْرَها دون أن
نرى لزوما لسماع الجواب عما اعْتَرَضَ به عليها ، والدفاع عنها ، فنترك ديننا الذي
هو تراث آبائنا وأمهاتنا المعنوي ، ونهينه بدون اكتراث .

كنتُ منذ خمس وأربعين سنة طالبا في مدرسة أركان الحرب ، وكان أحد
زملائنا يكرر دائما هذه العبارة : « هَإِنَّا ذَا أَنْكَرَ اللَّهُ ، وَإِذَا كَانَ موجودا وقادرا
فليضعفني وليقهزني » ! والواقع أنه لم يُقَهَرْ وَحِيًّا . بيد أنه ارتحل من هذه الدنيا
بعد خمس سنوات أو عشر ، في ضروب من العلل والأمراض والفقر والإهمال
والمذلة . ليت شعري من أين تأتى مثل هذه الأفكار الفاسدة لشبابنا ؟

بِسُورِيَّةٍ قوم يعيشون عيشة المسلمين على آراء باطلة . وقد تقرر في عهد السلطان
عبد الحميد إنشاء مدارس ابتدائية لإصلاح عقائدهم ، وتعليم أطفالهم الدين ، على أيدي
مدرسين سُنِّيِّين . ولما كنت في ذلك التاريخ موظفا بسورية ، وكنت أجول في تلك
الجهات ، بحكم عملي ، اتصلت بهؤلاء القوم ، وبالذين سُلِّطُوا عليهم باسم المرشدين .
ففي ذات يوم سألت مدرسا : ما مبالغ تعلمك ؟ فأجابني بأنه تعلم حتى الإظهار .
فقلت له : ما الإظهار ؟ ففكر مليا ، ثم قال : « هو الفعل الماضي ، والله أعلم » .
أرجو ألا يُظَنَّ أني مبالغ ، فقد ذكرت الجواب عينه ! لقد بينت في اللامحة التي
قدمتها إلى المُشْرِفين عدم إمكان الإفادة من أمثال هذا المدرس ، وحتى من مُمِّ
أعلم منه ، لأن المبادئ والعقائد التي تدرس في تلك المدارس ، لتلاميذ في الثامنة أو

العاشرة من أعمارهم ، تَمَحَّى وتزول بما ينلقونه في أسرهم ؛ فلو أنشئت في هذه الجهات مدارس ثانوية يدرس فيها قليل من علم الفلك الوصفى (Cosmographie) والجغرافيا ، مع دروس عملية مفيدة ، لنتفتحت أذهان الشباب بفهمهم الدنيا ، ونجوا من المعتقدات الباطلة ، وسهل بعد ذلك إرجاعهم إلى طريق الحق . [وأفكر اليوم ، يا تَمَحَّى ، هل تعمل أشخاص متعصبون تعصبا دينيا ، أو ذوو أغراض خاصة ، أو جماعات أو جمعيات خفية ، على توهين عقائدنا في حدود ما اقترحت ، ولكن مغرضة لا مخلصه ؟ إنى أرى أن الجامعة الدينية تمنح الأقوام قوة ومنعة ؛ فلذا يجوز أن يكون في هدم هذه القوة المتساندة ، منافع ومقاصد لكثير من الأشخاص ذوى المطامع والأغراض والجمعيات المعادية] .

ظهر منذ مدة كتاب ألفه ن . سيمون بالفرنسية ، عنوانه « سياحة مضحكة بين العقائد والأديان » ذهب فيه المؤلف من حيث الأساس مذهبا ضد فكرة التدبى إطلاقا ، ولا سيما الموسوية والعيسوية ، مع عدم الضن بالتعريض بسائر الأديان ، وأورد بعض جل تهكمية فى حق جنات الدين الحمذى ومعراجه ليس إلا .

إن هذا الكتاب الذى حضر البابا على الكاثوليك قراءته ، راج فى بلادنا منذ خمس وثلاثين سنة رواجا عظيما . لأنه استطاع أن يضلل الأفكار كما ينبغى بكلمتين أو ثلاث كلمات قالها عن معراج الإسلام وجنانه ، وهو دين متشعب من ملة إبراهيم وموسى ، وذلك بعد أن هيا الأفكار ببياناته الصحيحة والخطائنة ، ونقده لسائر الأديان .

فلسفة شو بنهور ونيتشه :

وخليق بالذكر أيضا أنه قد راجت عندنا أيضا فلسفتا شو بنهور ونيتشه المتعارضتان ، تلقن إحداها اليأس ، والأخرى الحرص والتهور ، كأن الدنيا خلت

من فلاسفة سواهما — وهما متضادان فكرا ويتساويان من حيث ضررها على الأمم — . ولما لزم في الزمن الأخير ترجمة كتاب في تاريخ الإسلام من اللغات الأوربية ، اختير كتاب « دوزي » ، وهو الد أعداء الإسلام ! إن حملنا مثل هذه الحالة على تشويق وتلقين ، فهل نكون مخطئين ؟

مهما يكن من شيء فإن ما ذكرت من الفلسفات والكتب ، أتحدث مع بعض أخطاء داخلية ، فقلبت مجتمعتنا رأسا على عقب . ويتضح بأدنى تأمل وتحقيق أن ديننا وعقائدنا أسمى في الحقيقة بكثير من إسنادات ن . سيمون ، ومن تلك المذاهب الفلسفية المتناقضة ، وأهدى إلى طريق السداد والسلام ، في الدنيا والعقبى . فالالتفات إلى أمثال تلك المفتريات المغرصة ، والتهكمات الوقحة ، والميل بلا بحث وتحقيق إلى أفكار باطلة ، ليس كفرا حسبا ، وإنما هو عيب وذلة في هذه الدنيا أيضا .

استطراء

معاقبة العلماء

أوهام الجبرال :

لو فُكِّرَ بالإنصاف حقاً لَتَوَجَّهَ بعض هذا العيب وهذا الإثم على علماء ديننا ، وخاصة إلى الخلافة الإسلامية المنقرضة ، والشيخة الإسلامية الملقاة . فإن إهمال تلك المقامات هياً فرصاً موانية لتلك المهجمات الخارجية . وما كان ينبغي أن يكون معنى سام كالدين ، العوبة في يد مؤلفين جهال ، ووُعاظٍ أجهل منهم ! إنى ألتمس من العلماء الحقيقيين عدم التأثر مني ، من أجل ما ذكرت ، وما سيرونه من الملاحظات ، فإن ما انتزعته من أعماق قلبي ، وثبتته في الصفحات ، إنما هو نية بث الشكوى إليهم باسم الدين ، من بعض علماء رسميين يَلْبَسُونَ أنوارهم وعمائمهم فارغين ، محرومين من علومهم وأعمالهم .

ففي الأناضول كتب لا تزال متداولة ، ملأ بها الإيرانيون آسيا الصغرى ، خلال المنازعات المذهبية والسياسية بين السنيين وبين الشيعة ، أو بين العثمانيين وبين الصفويين لاستغلال العوام — ولعل الإيرانيين نسوا تلك الكتب وأهملوها — ومما ورد في تلك الكتب ، أن ضربة من ذى الفقار ، بيد علي الكرار ، اجتازت طبقات الأرض السبع ، وكادت تشطر نور الأرض ، لولا أن وصل جبرائيل ، فأمسك بذلك السيف القهار ، ومنع المهرج والمرج ؛ وأن الرعد والبرق ينجمان من غضب علي ، الذي عَرَّج إلى السماء بعد وفاته ، ومن صياحه . والفرق بين هذه العقائد السخيفة وبين أساطير الأولين ، هو أنها أغلظ من الأساطير . ويفهم بأدنى ملاحظة ما يمكن أن تبلغ هذه المعلومات المستنبطة من تلك الكتب في

لسان أولئك الوعاظ والمرشدين ، الذين يسمون كلمة « الإظهار » الفعل الماضي .
 لقد سمعت واعظا في صباى يقول : إن الأرض معتمدة على قرن ثور ، والثور
 واقف على ظهر حوت ، والحوت يعوم على سطح بحر ، والبحر قائم على القدرة
 الإلهية . وهذه الحكاية وهى تذكرنا بحكاية « مئذنة فوق مئذنة » ، جائز أن
 تكون فى بدئها متفرعة ومتشعبة من كون الأرض فى بُرْجِي الثور والحوت .
 وكانت نظرية فلك بطليموس المتداول فى أيام البعثة الحمديدية ، تفرض الأرض ثابتة
 فى مركز العوالم ، والقبعة السماوية دائرة حولها . وأما القرآن الجليل ، فقد قال فى
 صورة موجزة معجزة : إن الشمس مستقرة فى مجموعتها ، والأجرام سابحة فى فلك .
 وبنا الأمر كذلك ، أليس تلقين الناس ما حكيته من الأباطيل مختلطة مع العقائد
 الدينية أثر جهل وحق يحير العقل ، ويضيق به الصدر ، والإذن به من أكبر
 الكبائر ؟ لقد ورد فى الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، أن الغيب لا يعلمه
 إلا الله ، وأن مجرى الأمور لا يتغير ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وبناء على
 ذلك منع الرمل والتنجيم والعيافة والتشاؤم والتطير وغيرها ، منعاً باتاً ، ومع ذلك
 لا يزال كثير من الجهال يُتَلَقَّنُونَ تلك الأمور الباقية من الوثنية فى صورة وصايا ،
 بل فى صورة الضروريات الدينية . وكلما بحث الإنسان ودقق النظر ، شاهد بكمال
 الأسف والدهش أن كثيرا من الناس كانوا يتلقون الحقائق الدينية الإسلامية فى
 داخل البلاد الإسلامية وخارجها ، على عكسها ، ولا يزالون يتلقونها كذلك !
 وكل صاحب دين ومذهب مكلف الدفاع عن دينه واعتقاده — ولو بوسائل
 لينة وحسنة — والجهاد فى سبيل نشرها وإعلاء كلمته . فهل كانت مقاماتنا الدينية
 ودوائرها المذهبية تقوم بهذه الوظيفة تحقيرا لديننا فى أفواه الجهال !
 إن حسابان كل من يؤلف كتابا معصوما من الخطأ ، وترك كل من يذهب
 إلى قرى يعظ الناس مطلق العنان ، قولا لما يريد ، قد أنتج لأمتنا ومجتمعا أضرارا
 ومساوىء جد خطيرة . فإن الهديانات التى ذكرت أمثلة منها آنفا ، إذا قرئت فى

كتب أو سمعت في جوامع وزوايا ظننت في خارج إستانبول ، بل هي في الأسر للقيمة بالأحياء المتطرفة بإستانبول نفسها ، من العقائد الدينية . يسمع الأطفال هذه الخرافات من أولياء أمورهم ، ولا سيما أمهاتهم ، ثم يذهبون إلى المدارس ، ويتلقون قليلا من مبادئ الجغرافيا والسكرنوجرافيا والكيمياء والطبيعة ، فيدهشون في بادي الأمر . وكلما زاد عجزهم عن حل ما يشكون فيه وشاهدوا وجها عبوسا من أئمة المساجد ، الذين يظنونهم علماء قادرين على حل شكوكهم ، ازدادوا شكا ورغبة ، ومالوا إلى وادي الإنكار ، وصاروا من أعداء الدين .

أوهام الخواص :

فلندع الآن ما يدور من القيل والقال بين الجهال ، ولننقل الحديث إلى بعض الأوهام السارية ، في الطبقات العالية . فعندنا رجل من المعتقدين يدعى « يازيجي أوغلي » وقبره بكليبولي مزار الجميع ، وله كتاب منظوم عنوانه « محمدية » . وقد ذكر فيه بلغة رقيقة مثيرة للحنن ، أن من بواعث شهادة الحسنين رضى الله عنهما ، « أن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الحسن صبيا من فيه ، والحسين من جيبه ، فغضب الله على إظهار نبيّه حبه لغيره ، فقدّر موت الحسن مسموما ، والحسين مذبوحا » .

لا أدري كيف يعجب امرؤ يضع نصب عينيه ما وضع شرع الله من الحد لعاشق حسود قتل حفيدي حبيبه لحبه إياها ممن يُسند فعلا مثله إلى الله سبحانه وتعالى ؟

إنه وإن كان مما يلزم الاعتراف به مع الشكر والثناء ، أن علماء السلف قد ألفوا كتبنا ناقضة ومُبطلة لتلك السخافات المبنية على الأوهام ، وحتى على روايات ضعيفة ، إلا أن تلك الكتب ظلت مجهولة للسواد الأعظم . وإذا كان الناس ،

ولا سيما الجهال منهم ، مبالغين إلى الضلالات أكثر من الأمور الجدية ، فقد تشعبت هذه الخرافات بين أكثر الناس .

وإن التجأ أحد إلى بعض العلماء اللابسين كسوة العلماء لإزالة ما بذهنه من شبهة إزاء ما في هذه الرواية وما يشبهها من الروايات المضادة للعلوم والفنون ، المغايرة للحكم والأسس الدينية ، ردّ عليه بأجوبة كلها عتاب وتوبيخ ، كفولهم « لا يتدخل في أمور الله . فهل يعجز الله أمر ؟ ألسنت بمؤمن بالمعجزات ؟ » وقد نسوا أن أحد أولى العزم من الأنبياء العظام طلب إلى الله برها ما ليطمئن قلبه . وقد يكفرون من لجأ إليهم بنية خالصة^(٦٤) !

لا ينكر عاقل ما لله سبحانه من قدرة مطلقة ، لأن قطعة من حجر قد يتجلى في ماهيتها الحقيقية أثر قدرة وحكمة أعلى مما يتصوره البشر في خياله باسم المعجبة والخرافة ، والمعجزة ، ويقدر على إظهارها من الوقائع والأحداث . إذن فتصور المعجز خالق السموات وما تحتوى ، وصانعها ، لا يكون سوى جهل وحق . فليست النقول الدينية لا يردّها مؤمن موحد حسب ، بل لا يردّها متفكر متفنن أيضا بلا دليل ، كما يردّها الملحدون الجهال . إن العلماء الحقيقيين الذين يشاهدون إمكان حدوث الثلج من بعض مواد كيميائية على ألواح معدنية بلغت حرارتها البيضاء مئات الدرجات ، وإمكان عدم احتراق الأعضاء البشرية التي دخلت قضاء وقدرا في هذا المعدن المذاب لتبخر العرق ، ويطبّقونه على العلم ؛ ويشاهدون أيضا كثيرا من الحوادث والمسائل التي كانت من المستحيلات في النظريات العلمية القديمة وصارت من الأمور الطبيعية والعادية — لا ينكرون أمرا ما بسهولة وبلا تأمل . قال آراجو (Arago) من أشهر حكماء القرن التاسع عشر : « إن من ينطق بكلمة « غير ممكن » خارج الأبحاث الرياضية البحتة — أى ما دام لا يخالف الأحكام الرياضية — يكون ناطقا بلا تدبّر ؛ إنه لقول حكيم حقا .

لودخلنا ساحة الروحيات والوجدانيات والحسيات لصادفتنا حالات كثيرة

لا سبيل لتفسيرها وإدراكها بالعقل والعلوم الموجودة . فهناك حالات كثيرة يظهرها سالكو الطرق العلية الصوفية منذ القدم ، ولم يمكن حتى اليوم إسنادها إلى حيلة مثبتة — برغم ما بُذِل من التحقيقات — وليس في الإمكان بلوغها عقلاً (٦٥) .

وخلاصة القول أنه إذا نظر امرؤ في نفسه وإلى من حوله بدقة ، وتذكر حياته الماضية ، وتفكر فيها ، فهم أنه محاط بكثير من غرائب وأسرار ، وآمن بوجود عالم غيب مصدرا لتلك الأمور وأصلا . بيد أن إدراك تلك المظاهر والحوادث والتفرس فيه في حاجة إلى الوقوف العلمي مع استعداد خاص : فعبارة « المعلومات القليلة تخرج الناس من الدين ، والتتبع العميق يعيدهم إليه » لروحي باكون من حكماء الإنجليز ، قول جيد حكيم :

وبرغم كل هذه التصديقات لا بد من وجود تناقض في تلقينات العلماء بين بعضهم وبعض وبينهم وبين الحقائق العلمية ، ولا سيما للإسلام ، فإنه شرط أعظم . فكلمة « أومن به لكونه مستحيلا » تعتبر دستور إيمان في سائر الأديان . وأما في ديننا فالمرجح هو الإيمان الاستدلالي ، وأبواب المناقشة مفتوحة على مصاريعها .

معجزات الأنبياء :

أما في مسألة المعجزة فبعد الاقرار بتعلق قدرة الله بكل شيء ، يجب النظر إلى الفكرة الآتية : إن إظهار الأنبياء العظام المعجزات لاقتناع الناس برسالاتهم — موافقة لاستعداد القوم الذين بُعثوا فيهم ، والزمن الذي بعثوا فيه — من جملة النقول الدينية . فقد كانت المهمة في زمن موسى السحر والكهانة ، وفي زمن عيسى الطب والحكمة ، وفي زمن محمد الفصاحة والبلاغة ؛ فظهرت معجزات هؤلاء الرسل العظام ، وتجلت في صورة التفوق العظيم في العلوم والصناعات المرغوبة بين الناس في زمانهم . وأما القرن الذي نحن فيه فالأهم فيه والمقدم ، هو العلوم العقلية

والطبيعية . فالأذهان لا تستطيع أن تقبل القول المتعارضة مع العلوم . كان الأوائل يطالبون بمشاهدات خارقة للعادة ، حتى يقتنعوا بالأمور المعنوية . وأما الآن فيبحث عن توافق القول مع العقل والمنطق .

فالقرآن المجيد يعجز دائماً العلماء المتبحرين ، كما يعجز الفصحاء والبلغاء بمعجزاته الباهرة — في صورة إقناع الاحتياجات الفكرية لكل زمان .

رد الرسول صلى الله عليه وسلم على من طالبوه بالمعجزات لاثبات رسالته بقوله تعالى : « سبحان ربى هل كنت إلا بشرا رسولا — الإسراء الآية ٩٠ — ٩٣ » وقوله « قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول إنى مَلَكٌ ، إن أتبع إلا ما يوحى إلى — الأنعام الآية ٥٠ » . والحق أن الأصحاب الكرام لم يطالبوه بالخوارق للآيمان بنبوته ، وعدّوا بلاغة القرآن وما بلغ من الحقائق برهاناً كافياً . ولكن ما الحيلة ، فقد جاء بعد عصور فريق ممن لبسوا زى العلماء ، وحشروا ماسمونه فى الكتب ، وصاحوا من فوق كراسى الدروس ، فحَمَلُوا وجدان الشباب أحمالاً من تلك الأراجيف التى لا يطبق حماتها .

إن الرسول أظهر بعض معجزات أيضاً برغم اجتنابه : وفى جملتها انشقاق القمر . ويعترض الحكماء وعلماء الفلك على هذه المعجزة كما يلى : « القمر كرة قريبة الحجم من الأرض (قطر القمر يزيد قليلاً على ربع قطر الأرض) على بعد وسطى مقداره نحو ثلاثمائة وستين ألف كيلومتر ، وتدور حول الأرض فى مدة معينة . وتؤثر بقوتها الجاذبة فى حادثى المدّ والجزر ، وكثير من التحولات الطبيعية الأخرى . فانشقاق كرة عظيمة مثلها فجأة كان يقتضى أن يؤثر تأثيراً خطيراً فى ظهر الأرض ، ور بما فى النظام الشمسى كذلك . ومن جهة أخرى يشاهد القمر فى وقت واحد على ارتفاع مختلف من نصف الكرة الأرضية . فظهور حادث خارق للعادة كهذا فى نقطة واحدة فى الحجاز — مع وجود مراعصد لدى أم

كثيرة متمدنية إذ ذاك — وعدم مشاهدته في بلاد الفرس والهند والصين مثلاً ، مناف للعقل والعلم^(٦٦) .

ومع أن دليل المنكرين الآنف الذكركوى جداً وواضح فإنى أرى أنه يفقد قيمته وخطره بازاء دليل واحد وارد فى الصورة الآتية : « يكون كل حادث بمثابة لاشئ بالقياس على ما تشاهد من القدرة فى خلقه الكائنات » . بيد أن أدلة الحكماء هذه العلمية المؤلفة من الصغرى والكبرى أكثر ملاءمة للأذهان العامة من برهان بسيط مبنى على العقيدة ، وأشد تأثيراً . وليست غاية المعجزة إضلال الناس ، بل إيصالهم إلى طريق الحق .

وبناء عليه ألم يكن أوفق لعلماء الدين محاولة إقناع من يرجع إليهم فى حل المشكلات بمثل ما سئذ كر من مباحثه بدل ردهم عليه بخشونة ؟ هاك تلك المباحثة :

« يُروى أن المشركين قالوا للرسول مجادلين : إن كنت نبيا حقاً فشق هذا القمر الطالع ، فأشار الرسول إلى القمر فرُئي شِقان .

وشاهد الحادث كثير من المؤمنين وغير المؤمنين ، وانتقلت الرواية إلى الخلف . وإذ أن الرواية مشهورة فلا بد من قبولها . وليست فى كيفية الرؤية هذه ما يخالف قانون الطبيعة أى السنة الإلهية التى لا تتغير — لم يكن انشقاقاً كما صورّه بعض الجهال — :

أولاً : لأنه يمكن أن يُحدث بعض الأحداث الجوية والنسيمية ، بعض مناظر فى الأفق ، وخاصة فى المناطق الحارّة ، تشاهد فى مناطق محدودة ولا تشاهد فى غيرها . .

وثانياً : لأن الكرة القمرية قد ظهرت فيها اختلالات كبيرة وانفجارات جبال بركانية ؛ فليس من المستبعد علماً أن يظهر انفلاق^(٦٧) أثناء تلك المناقشة ، وأن يظهر فى شكل هائل ، بانكسار الضوء ، لوجود القمر إذ ذاك فوق أفق

الحجاز المواتى جدا لأحداث السراب . فظهور الحالتين المذكورتين ، أو أى حادث من الأحداث الطبيعية الممكن حدوثها بالقدرة الصمدانية ، بإشارة من الرسول صلى الله عليه وسلم حين سؤال الناس عنه ، معجزة . فمثل هذا الرأى مبرهن ببراہین كأداة دعوى المنكرين ؛ فلذا ينبغى لعلائنا أن يتحملوا مشقة مثل هذه المباحثة لإرشاد الناس .

بيد أن المعجزة القرآنية تظهر وتتجلى فى صورة أخرى ، وإذا كان المتظار المقرَّب لم يُخترع فى عصر السعادة [عصر النبوة] فإن معلومات علم الفلك عن القمر ، كانت منحصرة فى تعقب صفحات هذا الجِرم ، وتعيين خسوفه وكسوفه . ولم يكن معلوما لا حجمه ولا بعده عن الأرض ، ويتضح الآن من مطالعة مَصَوِّر القمر المرسومة بصحة تامة ، وقوع كثير من الاختلال والإنشاقاق فى القمر .

القمر محروم الماء والهواء النسيى ، وسطحه ، من أوله إلى آخره ، مَحْم بُر كانية خامدة . لقد فهم الآن أن هذه البراكين ثارت فَشَقَّتْ قشر القمر ، ودفعت المواد المشتعلة إلى الخارج ، فجعلت الكرة محرومة الرداء الحارس النسيى خارجا ، والحرارة المركزية داخلا على أغلب الاحتمالات . إن بيان القرآن حالة كهذه بيانا موجزا فى زمن لم يكن فى الدنيا أحد يتخيل مثله ، لمعجزة باهرة .

ذكرنا سابقا بالمناسبة ، وجود عالمين اثنين ، عالم الشهود والمادة ندركه بحواسنا الخمسة ، وعالم الغيب الذى لا يُعلم إلا بآثاره ، أو على الأقل نحس ونمقل عالما أثير يا غير مادي . لقد تعمق علم البشر فى العالم المادى ، فاستطاع أن يثبت بالعلوم اليتيمية والتجريبية كثيرا من قوانينه ، وأغلبها من القوانين الطبيعية ، وموضوعات وسنن إلهية ، فلذا لزم عدها غير متغيرة^(٦٨) . على شرط ألا ينكرها العقل وينفها .

أما العالم المعنوى وهو أصل حقائق الموجودات ، وخاصة العالم الأثيرى ، فلم يوصل إلى كشفه بعد . فقد توسم فيه الذكاء البشرى من بعض آثاره ،

ونفذ في بعض أسرار ما أمكن ، إلا أنه لم يقدر على إدراك كنهه ولا يزال متوقعا أن يُدرَك بعض آثاره ، ولكن لم يتمكن الوصول إلى غايته وماهيته الأصلية والنفوذ فيهما . فعلم البشر ، كما يقول الفيلسوف هيربرت سبنسر ، يتوسع إلى كل الجهات ، على صورة كرة محدودة داخل أسرار معنوية غير متناهية ، إذ أنه كلما توسع كبر سطحها المماس لأسرار هذا العالم المعنوية ، فقد زادت حيرته ، وبان عجزه .

وبناء على هذا القول الحكيم ، إن المنحرفين بلا تفكير إلى إنكار الأمور الاعتقادية ، هم أولئك الذين لم يفهموا عجزهم ، أي الذين لم تسكمل كرة علمهم بعد .

هكذا يمكن دائما وقوع حالة خارقة للعادة متعلقة بعالم الأثير . وإنكار هذا الإمكان والاحتمال ما هو إلا مكابرة . فكل رواية ونقل لم يدخل في نطاق العلوم اليقينية ، ولم يثبت بها بطلانها ، يحتمل الصدق والكذب . ولكن ينبغي التأمل والاحتياط في تلقين الأمة روايات مفسيرة لبعض القوانين الثابتة لعالم المادة والشهود .

وبناء على ذلك :

أولا — يجب ترجيح الشق المعقول بلا تردد في المسائل الاعتقادية المختلف فيها . ففي كل صحيفة من القرآن الكريم آية أمرة بالتعقل والتفكير . والأحاديث النبوية في المعنى نفسه جد كثيرة . فنحن إذن مضطرون ديننا للتفكير ، واختيار الشق المعقول .

رأى المؤلف في المعراج :

أريد بهذه المناسبة أن أقول بعض كلمات حول المعراج ، وهو موضوع يتخذه خصوم الدين وسيلة للظلم على ديننا . إن ما نُكلف الإيمان به بنص القرآن هو

السير في ليلة واحدة بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى . وإن الادعاء بعدم إمكان تعلق القدرة الإلهية للتسيير بوسيلة مَّا لِمَا يَتَكُن الآن ميره بطائرة ، خَلِيق بالاستهزاء أكثر من الإيمان بوقوع السير . وقد ثبت تواترا مشاهدة بعض الناس في أماكن مختلفة في وقت واحد ، وتأييد ذلك بتحقيقات كليل فلا ماريون^(٦٩)

أما وصوله إلى الله ، وهو القسم الثاني ، فليس بمستبعد على الروحانية النبوية ، أن يفوز لحظة بوصاله تعالى في الدنيا ، وقد وعد به المتقون ، ليكون لهم جزاء أوفى في الآخرة . وكل ما فيه أنه إذا صُوِّر جسمانيا تعارض مع كثير من القوانين الطبيعية ، وحدثت مخالفات للأحكام الدينية ، كإسناد محل معين لله ، فيكون سببا لاستخفاف كثير بالدين وكفرهم . ومن المعلوم أن كثيرا من الصحابة والتابعين اختلفوا في وقوع المعراج : كان جسمانيا أم روحانيا . وقد اختارت عائشة رضي الله عنها الرأي الثاني . وفي رأيي — ورأيي قاصر — أن الروايات والأدلة المسرودة في كونه روحانيا أقوى وأقرب للمنطق^(٧٠) . ثم إنني عثرت في تفسير سورة « والنجم » لخواجه وهبي أفندي من فضلاء زماننا ، على حديث « رأيت بفؤادي » ، وهذا أيضا يؤيد الرأي الثاني . في حين أن أكثر الناس عندنا يعتقدون بوقوع المعراج جسمانيا . ومنظومة المعراج لسليمان جابي مُشَوَّشة للأذهان ، فينبغي للعلماء قبول الشك الثاني وإذاعته للناس .

وثانيا ، من العبث ذكر بعض الإسرائيليات غير الواردة في نص القرآن ، في صف المعتقدات الدينية ، لورودها في كتب بعض المفسرين ، وينبغي منع هذه الحال الخليقة بالأسف ، ولا جرم أن المفسرين حين يذكرونها يشيرون دائما إلى ضعفها . وثالثا ، لا ينبغي اجتناب تفسير بعض المسائل التي تبدو في الوهلة الأولى كأنها مستحيلة ، تفسيرا علميا ، كانشقاق القمر الذي سرده آتفا .

ورابعا ، إذا شُوهد تعارض في القول ظاهرا — يلزم أن يكون ناشئا عن عدم الفهم — فيجب العناية بإزالته على أن يُصحَّى بالفرع للأصل .

وخلاصة القول : إنه يمكن استمالة الناس اليوم ، وجذبهم إلى طريق الحق بالمعقول . فيجب البحث عن الزوائد والأباطيل التي أُدْخِلَتْ في الدين حيناً بعد حين ، وطبَّها ، وبحث تعارض النقول بعضها ببعض ، وبعض موضوعات العلوم ، تعارضا ظاهريا وحله بعد التمهيص والنقد علميا وعقليا :

أذكر هنا بمناسبة ، أن إرهاب بعض العلماء أهل الإيمان لأخطائهم الخفيفة بشدائد عذاب الآخرة ، ولعنهم وتكفيرهم ، يوقع كثيرين في يأس وانفعال ، ويدفعهم للالحاد . فلبس القبة وإبداء عدم الحب ببعض ما كان يحبه النبي ، والأسر بكل هذا ، واشرب ذلك ، كلها كُفْر ! وأنا أرى عدم انكسار الرابطة الدينية والإيمان بمثل تلك الصِّدَمَاتِ التافهة . وإذا قصد اسرؤ تلك الأقوال تحقير الدين ، والاستهزاء به أو إنكاره فهو غير مؤمن . وقد كفر دون حاجة إلى تلك الأفعال . وقع نظري على قول : « ملعون من لعب « بالشطرنج » بين الأحاديث الشريفة المندرجة في رسالة عنوانها « كنز العرفان » ! على حين أن الإمام الشافعي رضى الله عنه إكتفى بأن عدّه مكروها . وما كان لإمام مجتهد كمثل الإمام الشافعي أن يخفف ما نهى عنه النبي مشددا . فتناقض كهذا يغير كثيرا منا . وكل أمة ملزمة تنشئة أفرادها ، وتهبشتم لمنازعات الحياة في هذا العصر . فكل رجل من رجال الدولة ، بل حتى من أفراد الأمة في حاجة إلى الاشتغال ببعض أمور مسكّنة أو منبهة أو مثيرة ، لشحذ الذهن ، وتسكين الفكر وإثارة الإحساس ، وتنبيه الأعصاب ، وتمرين الأطراف ، بعد الفراغ من عبادته المفروضة ، ومشاغله الدنيوية . ولا يمكن مطالبة كل إنسان في هذه الدنيا ، وفي هذا الزمان ، بالتخلق بأخلاق الأصحاب والأسلاف ، والتطبع بطباعهم ، والحياة المدنية الحاضرة لا تشبه حياة البدو في هذا العصر ، بله الحياة البدوية في الأزمان القديمة ؛ فالممارسة المكتسبة في ذلك الزمن وفي تلك البيئات ، يمكن حصولها الآن تقليدا في بيئة مدنية ؛ فمن الأوفق عدم التشدد في بعض الألعاب ، اعتمادا على

روايات ضعيفة . و « الحلال ما أحلَّ الله في كتابه ، والحرام ما حرَّم الله في كتابه ، وما سكت عنه فهو مما عفا لكم » ، و « إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان ، فلا تبحثوا عنها » صدق رسول الله .

رأى المؤلف في الروايات النبوية :

بهذه المناسبة أتجراً لإبداء رأيي ، ورأيي قاصر ، في الأحاديث النبوية :
 « منع الرسول صلى الله عليه وسلم من كتابة أحاديثه الشريفة بقوله : « لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن ، ومن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحُهِ » ^(٧١) » والحق أن الأحاديث التي لم تصدر منه صلى الله عليه وسلم على صورة خطبة أو موعظة ، من الطبيعي أن تكون متعلقة بأبحاث جرت في ذلك الزمن . فلذا لا يجوز أخذ جملة من الكلام بدون علم ما قبلها وما بعدها ، واعتبارها نصاً لقداسة قائلاً ، وقد يؤدي هذا إلى التناقض أحياناً . مثل قوله « كاد الفقر أن يكون كفراً » و « أستعِذ بالله من الفقر والعيلة » وبين قوله « الفقر شَيْنٌ عند الناس ، وزينٌ عند الله يوم القيامة » ، فإن هذه الأدب ينقض بعضه بعضاً في الظاهر إذا وضع بجانب بعض . على أن كل واحد منها حكمة في موضعه . فكل حديث إذا اعتبر أمراً ونصاً ، يمكن أن يؤدي إلى مشاكل ، ما عدا الأحاديث الصحيحة ، التي اتخذها الأئمة العظام لتأييد آرائهم ، وتنوير مدّعاهم . والأحاديث الشريفة أمثال « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشيء من دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فإنما أنا بشر » . و « إنما أنا بشر مثلكم ، إن الظن يخطئ ويصيب ، ولكن ما قلت لكم قال الله ، فلن أكذب على الله » . و « أنتم أعلم بأمور دنياكم » فكلها إشارة إلى تلك النقطة الدقيقة ، وأما ما تحويه من التواضع وإنكار الذات فحجة بالغة لعظمة شأن قائلاً ، وعمق نظره .

وبهذه المناسبة أستمِر في سرّده بعض آراء عن الأحاديث للوضوعة . حفظت عددا كبيرا من العبارات العربية ، باسم الأحاديث النبوية ، سواء جرّت عن لسان العظماء الذين فُزّت بحضور مجالسهم منذ نعومة أظفارى أو من مطالعة كتب قيّمة . ولما شرعت في تأليف هذا الكتاب ، وقت بالتمحيص والتحقيق ، اتضح أن ما يقرب ، من نصف محفوظاتى أحاديث موضوعة . وإن كان بعضها جُمَلا وجيزة مزينة مفيدة لفظا ومعنى ، وحاوية نصائح وعظة ، إلا أن بعضها مُضِرّة ، وخليفة أن تغلب عقئدنا الإسلامية رأساً على عقب . فمنها « لولاك لولاك ، لما خلفت الأفلاك » الذى ذكر فى بحث « رؤسائه » فى الباب الأول ، و « أزل ما خاق الله نوري » و « أول ما خلق الله العقل » وأشباهها . بيد أن أعجب العجب ، هو أن يقتبس شاعر عظيم كالشيخ غالب من هذه العبارات ، الضعيف بعضها حقاً ، وبعضها مشكوك فيه وضعيف ، فيقول « بما أن هذا النور أول ما خلق فإني معذور لو سمّيته ثانى الله » ، ثم يأتى أديب متبحر ، وهو ضياء باشا ، فيضمن منظومته فى النعت الشريف هذا البيت . وهكذا تنشأ عقيدة تثليث مؤلف من الله وثانيه والعقل الأول ! ويبدو أنه لا مانع عند أدبائنا من الكفر والشرك إذا كان منظوما ! لأن هذه الأبيات تُنشَد فى مجالس العلماء وتُسمع بلذّة وسرور . ومما يستلزم الأسف أن يُسمح بدوران هذه الأقوال الباطلة فى أفواه الصغار والكبار وتأسيس عقائد مبنية عليها ، بعد أن جمع أعلم علماء الإسلام ، نور الله مراقدهم إلى يوم الدين ، الأحاديث الصحيحة ، وألقوها ، وبحجوا عن موضوعاتها ، وأشهروها بين الناس وأشاعوها . وحديث الرسول « من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وأمثاله ماثل أمام الأعين !

رأيه فى الشروح والحواشى :

وإذ أن المناسبة مُواتية أريد أن أبحث قليلا فى موضوع مهم كذلك . وهو

أن الخلف اعتادوا شرح كثير من مؤلفات العلماء العظام وتفسيرها . وفي هذه الشروح يُخْتَرَع ضُروب من التأويل والتفسير للمتن ، وتُسندُ إليه معانٍ مجازية . ويشاهد كثيرا إتيانُ الشراح أذهانهم بالبحث والتعقب عن معانٍ باطنية ، مع أن المتون صريحة معقولة ، ومقارنة للذوق السليم . وفي إمكانى أن أذكر شرح كتاب المنوى وديوان الحافظ الشيرازى مثالا لذلك . إن الانهماك في التأويل ، قد يشمل آيات كثيرة في التفاسير وأحاديث كثيرة في الآثار . وبينما صار التفسير والتأويل وتوجيه المعانى المجازية عادة متبعة ، فإن بعض العلماء على النكس من ذلك يُصِرُّون متعصبين على أخذ بعض الأحاديث بمعناه الظاهري ، في حين أنه يدلُّ ذوقا وحكمة بل صراحة ، على قصد قائله معناه المجازي . وهكذا يجعل العوام للأحوال الغيبية والأخروية أشكالا وصورا مادية مستقرة في الخيالة ، ثم تبلغ هذه التصورات الشعبية ألسن خصوم الدين ، فتصير وسيلة تستعمل ضد ديننا وسلاحا . وليس في الإمكان التأليف بين الحكمة البعيدة الغور ، والسماح الذى يحويه قول الرسول « لا تكتبوا عنى شيئا إلا القرآن » وقوله « إنما أنا بشر ، إن الظن يخطئ ويُصيب » وأمثالهما وبين الألفاظ المضطربة التى يتفوه بها بعض المتعصبين من العلماء . وخلاصة القول أن من الأصوب لمن يريد قلب الأمور الدنيوية ببعض التفسيرات والتأويلات إلى أمور معنوية ، ألا يصِرَّ على تشويش الأذهان بتصوير الأمور الأخروية في أشكال مادية دنيوية .

ثم إن تشويق بعض علمائنا أهل الإسلام للتجرد من عالم الحضارة ، والاستغناء عنه ، اقتفاء لبعض الأقوال والتفسيرات الضعيفة ، واتباعا لما حرَّم ديننا من العُجب والغرور ، قد استوجب أضرارا مادية ومعنوية في العصر الأخير . إذ استلزمت هذه العزلة المبنية على الغرور حرماننا الرقى العصري ونُفُرة عالم المدنية منا ، وما مُنِّينا به من الانحطاط . على حين أن الآيتين : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » ، و « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم

أَنْ تَبْرُؤَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » حافظتان على الاختلاط ضمنا
وصراحة . كما أن الحديث « اطلبوا العلم ولو بالصين » وحسن معاملات الرسول
مع النجاشي والمقوقس ، وأعماله الحكيمة ومنافقته ، والعلاقات السياسية التي قام
بها هرون الرشيد والمأمون من متقدمي خلفاء المسلمين ، مع الملوك المعاصرين لها
من النصارى والمجوس ، تخالف ما اتخذته العلماء المتأخرون من مسلك التعظم والعزلة .
ولو أن العداوة التي تعادينا بها النصرانية بتعصب ليست مما يمكن إخفاؤه ، إلا أننا
ينبغي أن نقول بحق الإنصاف : إنه لا يمكن إنكار أننا بأعمالنا السيئة شير
هذه الخصومة ، وندعوها إلينا ، ثم نكبرها في مخيلاتنا أكثر مما ينبغي . فثمة
وقائع تاريخية كثيرة مؤيدة لقولي هذا . فاتفاق فرنسوا الأول ملك فرنسا ، وشارل
الثاني ملك السويد ، وفريدريك الأكبر ملك بروسيا ، ونابليون الأول ، ودول
أوربا المختلفة مع الدولة العثمانية ، على أبناء جنسها في حرب القرم ، ورغبتهم في
الدفاع عنها ، وبخاصة اتفاق الإنجليز مع اليابان في مُستَهَل هذا القرن ، يدل على
أن هذا التعصب ليس شديدا كما يُظن .

إنا نشاهد شعوبا مشتتة ، وحكومات غير نصرانية ، قد استولت عليها الدول
التمدينة استيلاء فعليا ، وأدخلتها تحت حمايتها السياسية أو الاقتصادية أو كليهما
معا ، بيد أن حمل هذه الحال على تفوق الدول التمدنية في الحضارة والحرب
والاقتصاد تفوقا غير متناسب مع تلك الشعوب الضعيفة ، وطمعها في الاستفادة من
ثمرة مساعيها وخيرات بلدانها ، أصبح من حملها على التعصب الديني . كانت اليابان
قبل نحو نصف قرن مغולה بأغلال الامتيازات الاقتصادية كالصين ؛ حتى إذا ارتفع
مستواها المدني والصناعي ، ولا سيما صناعة الحديد ، عدتها الدول التمدنية معادلة
لها ، وأبدت رغبتها في عقد معاهدات معها .

وكان من واجبات علمائنا بذل أقصى مجهود وهمّة في المحافظة على الأسس
الاعتقادية والعنوية ، والأخلاق الإسلامية ، بل حتى إظهار البطش والتجلد

والعنف حين الضرورة ، وليس لأحد اعتراض في هذا ؛ بيد أن التعلق بالزئى
والعادات الموروثة من الأكَسرة والقياصرة إلى هذا الحد من التعصب ، واعتبار
معنى سام كالدين مربوطا بزر طربوش مثلا^(٧٢) ، مع إبقاء المسلمين في جهالة وعزلة
عن القسم الأعظم من العالم ، وإيجاد مخاطر ومخاوف لجماعتنا ، جدير بالنقد والمؤاخذة .
واهتمام علمائنا الكثير بالجسمانية وهيئة البشر في الأمور المعنوية ، يستدعى
الشبهات والاعتراضات^(٧٣) ، فلو توقفنا في كثير من العقائد عند دائرة النفسيات ،
لما وقع التعارض والتناقض في كل خطوة . إني لا أعرف كثيرا عن قوة الأدلة
النقلية المسرودة للتمسك الشديد بالجسمانية المادية . ويجوز أن يورد عدم إمكان
ظهور الروح دون تعلق بجسم كما في الضوء . ولكن ما الضرورة لأن يكون
هذا الجسم كثيفا وماديا ؟ وما دام يُعترف بوجود أجسام لطيفة ، فلم يُنكر تعلق
الروح بجسم كذلك في عالم الآخرة واللاهوت^(٧٤) . وعلى كل حال ليست هوية
المرء — لوجاز التعبير — وأنيته هو جسمه المادى المتغير في كل لحظة^(٧٥) .

إن التأثيرات الواقعة على أعضاء البشر ، تصل بواسطة الأعصاب إلى حجيرات
الدماغ ، فيحسها حسا فجائيا ، فتحث الملاحظة والبت . فمن يفعل هذا ومن يحس
به ؟ ثم إن الأعضاء والأعصاب والدماغ تظل على ما هي عليه عقب الموت الفجائى ،
ومع ذلك لا تبقى لها قابلية لأى نوع من التأثير والإحساس والشعور .
فالهوية اللطيفة التى تحس بالذلة والألم ، وتبت في الأنعال ، وتدفع الأعصاب إلى
الحركة والتنفيذ ، وتنظم الدورة الدموية ، والفعالية الحيوية ، والى تنقطع عن التدبير
والتصرف عقب الوفاة مباشرة ، يقتضى أن تكون سرا من أسرار اللاهوت ،
وأمر إلهيا^(٧٦) .

خقيقة هذه السيفية لم نفهم فهما يقينيا ، ولن نفهم . وبيانات الحكماء المتقدمين
وفروضهم فى الروح ، من قبيل الأقوال المجردة . وليس فى هذا الباب دستور حكمة
يطمئن العقل والوجدان أكثر من قوله تعالى : « قل الروح من أمرى » .

ولما كان ارتباط العلماء بالمسائل الدنيوية الجسمانية ، واهتمامهم بها إلى درجة نسيان اللطائف الروحية ، في المسائل اللاهوتية والأخروية ، يُسبب خدش الأذهان ، وزيادة الاضطراب ، وجب أن يصدر قرار في هذا الشأن بإجماع العلماء . ومن أسباب المسئولية ، غرور بعض علمائنا وتعصبهم الزائد ، وتهوّرهم في أثناء المناقشات العلمية . فقد سمعت من كثيرين وشاهدت أحيانا أن بعض رجال العلم ، حين يعجزون عن الإجابة عن أسئلة بريئة موجهة إليهم ، لدفع الشك والشبهة ، وتحصيل اليقين ، يُنهَوْن الموضوع بالاستكبار ، والامتناع عن المناقشة ، مكفّرّين أصحاب السؤال . على حين تظهر كل يوم حقائق علمية بتطور العلوم ، إن رأياروِّج سهوا منذ نيف وألف عام ، أى بعد وفاة الرسول بمئتين أو ثلاث مئة سنة ، كنقطة نظر معترف بها ، يحوز تصحيحه فيما بعد . ولن يؤدي هذا إلى تنقيص مجد العلماء والمجتهدين السابقين . بيد أن التعنت في المحافظة على الآراء العتيقة ، والدفاع عنها بـ « إيانا وجدنا آباءنا » ، مضر ضررا بليغا . إننا مع إيماننا بكرامة الأولياء ، نعتقد بعدم وجود معصوم من الخطأ في الإسلام .

أخذ السلف من علماء المسلمين العلوم المدونة في عصرهم ، من الهند ومصر واليونان ، وتبعوها ، ثم مزجوها بالحقائق القرآنية ، وأسسوا فلسفة إسلامية . لقد اكتسبوا ببذل مجهوداتهم الخالصة شكرا خالدا من أخلافهم . ولكن العلوم قد اتسعت منذ ذلك الوقت ، فتبدلت موضوعاتها وتنوعت . فمن الطبيعي تغير بعض نظريات مبنية على معلومات ذلك الوقت العلمية . فإسناد قوة قدسية لكل صاحب تأليف ، ورفعها إلى درجة العصمة من الخطأ ، يكون قيда للتقدم^(٧٧) .

ومن أجل ما استمر من انتشار أغلاط الاجتهاد والمعتقدات الباطلة ، لم يكديتم قليل من الاستثناس في بلادنا بمقدمات العلوم ، حتى استقر الكفر والإنكار والإلحاد في الأذهان .

إن الباطنية التي أرادت فيما مضى إحراق غاليلى بالنار حيا ، لقوله بدوران

الأرض ، حين أدركت عجزها عن مقاومة سيل الترقيات الهائلة ، طاوعت التيار ، فأنشأت سمر صدا بقصر الفانكان ، ولم يمض زمن وجيز حتى ظهر بين الرهبان رجال من أمثال « پرهاجن » و « الأب مورو » اللذين وضعاً نظريات حول خاقة العالم . ففدرة عالم النصرانية على مزج النظريات الغريبة المزججة كعقيدة التثليث ، وقضية الثمرة الممنوعة ، والقربان المقدس ، إنما كانت بهذا التسامح .

وأما الدين الحمدي ، مع أنه خال من عقائد وتكاليف مغايرة للعقل والحكمة ، وفيه من الرفق والتسامح الكريمين مصداق قوله : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق » ، فإن ما أظهره علماء المسلمين من العنف والخشونة والعصبية سبب ضلال كثير من الناس . فبالرغم من دلالة الأحاديث الشريفة على حرية الرأي والضمير ، كقوله « استفت نفسك وإن أفتاك المفتون » ونحو « استفت قلبك وإن أفتوك » ونحو « ما أنكر قلبك فدعه » ، فإن تحمل الإصر الذي رزحت الأمة الحمدية تحته منذ عصور ، يدعو إلى التعجب والأسف . إن بذل ما يُستطاع من مجهود للدفاع عن العقائد الدينية ، والأخلاق الإسلامية ، والحفاظة عليها ، حق طبيعي لعلماء الدين . ولكن لا ينبغي البلوغ بهذا الحق درجة لعن الناس وتكفيرهم لأنفه الأمور ! فمثل تلك المعاملات هيأت فرصة لأحداث اليوم وانقلاباته . فلم لم يقع علماءنا أحكام الأحاديث كقوله : « عليك بالرفق ، وإياك والعنف والفحش » ، و « علموا ويسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ، وإذا غضب أحدكم فليسكت » وغيرها من الأحاديث ؟ ولم لم يقتدوا بالسَّير والمناقب النبوية ؟ ولم لم يمتثلوا الحليم والرفق والصبر الذي أظهره الرسول في إرشاد الأعراب والمعارضين والدهريين ؟ وموجز الكلام أنه إذا كان من ترك دينه ، ودفع إخوانه في الدين إلى الإلحاد والكفر ، آثما مجرما ظلما ، فإن مسئولية من حرّف أسس الدين ، وشوّه المسائل الاعتقادية ، وشوش الأذهان ، بادخال خرافات وأساطير باطلة في المعتقدات الدينية ، من أصحاب المآثم ورؤساء الدين السامحين بهذا ، بقدر مسئولية أولئك سواء بسواء .

كانت صيانة الدين والعقائد من التغالى فى الأخطاء ، أقدم واجبات الخلافة
والمشيخة الإسلامية والهيئة العلمية . بيد أنى مضطر للاعتراف وقلبى يحترق من
حزن ؟ أن مشيختنا وخلافتنا لم تبدلا جزءا مما بذلت البابوية وسائر الهيئات
النصرانية — فى العصر الأخير خاصة — من مساع مبنية على الوقوف التام
والعقل والنضحية ، فى نشر العيسوية وتعيمها وتحكيمها ، مستندة إلى نظم مؤسسة
خير تأسيس . وربما تكون الخلافة والمشيخة قد عملتا على اتجاه معاكس ،
جهلا منهما . [انتهى الاستطراد]

الوعراضات الموجهة على القرآن :

أشد تعريضات خصوم المسلمين ، موجهة إلى عقيدة المسلمين بقدم القرآن . وهذا
التعريض غلطة نجمت عن جهل حقيقة المسألة ، وعن اعتبار المجادلات الكلامية
صورىة ولفظية ليس غير . إن كثيرا من الكتب التى ألفها الغربيون عن المسلمين
تبين بكثير من التهمك أن المسلمين تسودهم عقيدة أن القرآن كان مع الخالق منذ
الأزل ، فى صورة رسالة محفوظة ، حتى إذا بعث محمد أنزل عليه آيات متفرقة .
ومسألة خلق القرآن التى ابتدعتها الجهمية وأيدتها المعتزلة ، وقلبها المأمون
والمعتصم من الخلفاء العباسيين إلى فجعة ، قد قيل فيها وكتب أمور كثيرة غير مجدية ،
وغير ذات معنى ، بيد أن القرآن كلام نفسى عند متكلمى أهل السنة ، أى أنه قديم
روحا ومعنى . والألفاظ المركب منها الكلام تحوى معانى ومدلولات من محسوسات
ومعقولات . فحقيقة الكلام ليست ألفاظا ، بل هى المعانى والمدلولات . وقد أطلق
أهل السنة على معانى هذه الألفاظ ومدلولاتها كلاما نفسيا ، وأقروا بقدم هذا
الكلام النفسى فى القرآن الكريم . وكما أن وحدة الله وسرمديته وقدرته وعلمه
وحكمته ورحمته ومشيتته وإرادته قائمة بنفسه ، فلا يسع عاقلا أن ينكر قدم ما يتضمنه
كتاب مبلغ حقائق وإرادات إلهية .

يبد أن الجهمية أصلا والمعتزلة تبعها لها ، أنكرت صفات الله الثبوتية ، وزدت الكلام النفسى ، وقالت بعدم الكلام سوى المركب من الأصوات والحروف ، فحدثت بذلك بدون مناسبة مسألة خلق القرآن وحدوثه . أما أهل السنة الذين أدركوا مقاصد مضمرة من وراء هذه السفسطات الفارغة ، فردوا هذه الدعوى ، وقاوموا فى اجتهادهم ببذل النفس ، اضطهادات المأمون والمعتصم الظالمة ، وثبتوا فى امتناعهم عن المجادلة فى كلام الله . ومن هذا نجمت أساطير خصوم الإسلام ، فى مسألة قدم القرآن التى ذكرتها آنفا .

ليست دعوى الجهمية والمعتزلة إلا مفسطة . فإن ألفاظ الكلام ما هى إلا شكل وواسطة للتفاهم بين البشر ، ودليل لمزاولة الآراء ، تتبدل عند كل قوم وفى كل مكان . فدلول لفظة « الماء » مثلا واحد فى جميع اللغات والأماكن ، ولكن يندر من يفهم هذا اللفظ فى مدينة بكين . فلو صاح رجل من الصباح إلى المساء « الماء ، الماء » فلن يجد ما يروى ظمأه ، على حين أنه يقدر على تفهيم مراده بالإشارات والرموز . فحقيقة الكلام ليس شكله الظاهرى بل معناه . لأن اللفظ متغير ، وفى المعنى حقيقة ثابتة غيبية . وهذه الحقيقة المكنونة منقوشة على النفس والروح والفكر :

إن الكلام لى الفؤاد وإنما جُعل اللسان على الفؤاد دليلا
إذن فدعوى أن القرآن مخلوق ، المبنية على إنكار الكلام النفسى ، مفسطة خالصة .

ونظرا إلى عقيدة أهل السنة ، الله متكلم ، وصفة الكلام ثبوتية ، فهى قديمة ، بيد أنه يتكلم بلا حروف وألفاظ وأصوات . أى أن كلمات الله معان ومضامين وحقائق ، فالقرآن قديم بهذا الاعتبار .

وبين الطاعنين فى القرآن الكريم من يحاولون تنزيل قيمته ، بأنه لا يحوى أمورا جديدة ، إذ أنه يصدق الأديان المتقدمة ، والصحف والكتب المقدسة .

وكيفية التصديق هذه ، أحد أدلة صحة القرآن وعظمته . فكل كتاب مقدس وكل دين إلهي ، إنما نزل لتلقي حقائق ثابتة غير متبدلة ، إذن فكلها حق . ولكن أكثر الصحف والكتب المقدسة ضاع أو حُرِّفَ لطول الأمد . والقرآن يبين تصحيح هذا التحريف . فهل ثمة حقيقة أعظم من هذه ؟

ومن الاعتراضات الواهية كذلك كون سور القرآن باحثة في مواضيع مختلفة ، وتكرار الآيات . فهل كان المعارضون يرغبون في أن يروا السور القرآنية على صورة لوائح إصلاحية ؟! ومعلوم أن القرآن نزل آية آية ، ثم جمعها ككتاب الوحي بإشارة من الرسول في سور ، على حسب مناسباتها . والواقع أن المواضيع متنوعة في بعض السور ، بيد أن وجود علاقة ورابطة منطقية بين الآيات متفق عليه ، أما التكرار فقسيمته بالتأكيـد أصح من تسميته بالتكرار . وأما أنا فأعتقد أن تعليم وحدة الله وعظمته ، وعلمه وحكمته ، ورحمته وقدرته ، وترغيب الناس في العالي ، وتحذيرهم المناهى ، خـليـق بكل أنواع التكرار والتأييد ، وهؤلاء المعارضون أنفسهم يصدقون احتواء عبارات القرآن على فصاحة وبلاغة معجزتين ، إذن فهلا كان يقدر الرجل الذى أنشأ هذه الآيات العسيرة التقليـد ، على تجنب التكرار ، وهو إحدى قواعد البلاغة البسيطة ؟ وهذه الملاحظة أيضا تثبت أن القرآن لم يصدر من بين شفـتى محمد باختياره ، وإنما صدر بإيحاء غيبي .

ليس في إمكان كتاب بعيد عن القيود والقواعد الموضوعية ، أن يجتذب ويفتـن بـيـلاغته الأصدقاء والأعداء ، ويجعلهم حيارى مبهوتين ، إلا إذا كان كتابا سماويا فوق طاقة البشر .

وللمفكرين اعتراضات أخرى على السور والآيات القرآنية . وهى موجهة خاصة إلى القصص الواردة في عبارات موجزة معجزة ، عبرة للإنسان وبصيرة . ومن المعلوم أن الآيات كانت تنزل غالبا بحسب المناسبات . وكذلك هذه القصص تكررت لحكمة التذكير والإنذار ، استدلالا بالوقائع التى كانت معروفة لديهم ،

والتي قد أخذت من التوراة ، وردّا على التلقينات الضارة التي قام بها يهود جزيرة العرب في أزمان مختلفة . فلذا يجب التنبيه إلى الغاية المقصودة بالتكرار ، أكثر من العناية بالبحث والتحقيق في تكرار الوقائع التي قُصّت رمزا في الشُور والآيات القرآنية^(٧٨) .

ثم إن بعض المفسرين حين يفسرون آيات التذكير ، يأتون ببعض ما ذُكر في التوراة عن خلقه العالم من معتقدات الكلدانيين ، وهي أهم أدلة الحكماء المنكرين للأديان المنزلة . كانت التوراة الحقيقية قد ضاعت في أثناء استيلاء مُخْتَصِر على القدس . والكتاب المؤلّف باسم التوراة بعد جلاء بابل ، محتمل جدا أن يكون مؤلفا على العقيدة الكلدانية . بيد أن التفاسير التي لا تتفق مع نص القرآن ، لا يصح عدّها من العقائد الإسلامية .

ثم إن من أهداف الاعتراضات ، بعض كلمات القرآن التي لا يمكن تفسيرها بحق . بيد أن تكشف معانيها يجب انتظاره بصبر . فمثلا لم يكن من استطاع تفسير « والشمسُ تجري لمستقر لها » و « كلٌّ في فلك يسبحون » تفسيراً حقا حين كان فلك بطليموس يُظنّ في نظر العلماء حقيقة . فقد ظهرت الآن معانيها حقيقةً ساطعة ، ومعجزة قاطعة .

وينبغي ألاّ يعزّب عن النظر في هذا المبحث ، أن مدلولات بعض الكلمات والتراكيب ، لا تزال غير معلومة ، وغير ثابتة ثبوتا قاطعا حتى اليوم . فما المقصد من سماء الدنيا ؟ أم هي الكرة النسيجية^(٧٩) ؟ أم هي شبه كرة متصورة الحدوث من مدار الأرض حول محورها ؟ أم المجموعة الشمسية التي تدخلها الأرض كذلك ؟ أم المجرّة التي تنتمي إليها الشمس أيضا ؟ أم المجرّات المختلفة التي لا ريب في حساباتها من السموات السبع ؟ ما الفرق بين الأفلاك والسموات ، وبين المصباح والنجم والكواكب ؟ وما مقدار زمن يوم الخلق ؟ لقد استعملت كلمة « يوم » مصطلحا لعهد تاريخي ؛ فتركيب « أيام العرب » يدور في الألسن على هذا المعنى .

فإذا فُكِّرَ علمياً فعنى اليوم دور بالقياس على الأرض . لقد بُدِّت اليوم بآلة التصوير خمسمائة مليون من الثوابت على صفحة السماء . ويُقدَّر عدد نجوم الجرة بـ ١٠٠ مليار وخمسمائة مليون نجم . ومُدَد أدوارها وأيامها مختلفة . فليس ثمة منبب لقياس مقدار ملك الخليفة بـ مقياس الأرض ومساحتها . فيوم الخلقة على هذا أهو دور من أدوار الجرات التي تدور مليارات السنين ؟ أم لحظة غير منقسمة لدورة ذرة من ذرات إيدروجين الكهربية حول البروتون ؟ ولا فرق بين هذين الزمنين بالنسبة إلى الأبدية . أما قياس أيام الخلقة بأيام أسبوعنا ، وترك أحدها لاستراحة الخالق ، — حاشا لله — فضحك ، وقد يبلغ درجة الكفر في الدين الحمدي ، قال تعالى « وما مسنا من لغوب » و « ولا تأخذه سنة ولا نوم » ، وهكذا لا يفهم معنى كثير من الآيات الكريمة دون تعيّن مثل هذه المدلولات . فعلى أرباب العقل والإنصاف المؤمنين بالله أن يؤمنوا بأحكام الآيات المحكمات ويتبعوها امتثالاً لقوله المنيف : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب ، وآخر متشابهات » وينتظروا صابرين ما لم يمكن تفسيره إلى الآن من التشابهات ، حتى يفسرها بإذن الله العلماء الراسخون ، أو تنوّرها الاكتشافات الجديدة ، مصداقاً لقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » .

قياساً^(٨٠) على ظهور الحقائق الفرقانية مع الترقيات العلمية الأخيرة ، واعتراف عالم المدنية ببعض الأحكام الإسلامية ، يُحكّم بأن حقائق هذه الآيات سوف تتكشف واحدة واحدة مع مرور الزمان ، ويتجدد إعجاز القرآن مستمراً مادامت القرون « كل يوم هو في شأن »^(٨١) .

آراء علماء الغرب في القرآن :

أنقل هنا مقتطفات من أقوال علماء الغرب الواردة في كتاب « ماهو القرآن ؟ » لعمر رضا بك ، ملاحظاً أن تأييد الدفاع عن القرآن بأقوال حكماء سائر الأديان ، يكون أشد تأثيراً في إقناع المعارضين وإقحامهم :

قال إدوارد جيبون من مشاهير مؤرخي الإنجليز : « إن موحدًا ذا دماغ مفكر لن يتردد في الاعتراف بنقط نظر الإسلام . فقد يكون الإسلام دينًا أعلى من تطورنا الفكري اليوم » .

قال المستشرق كارلايل وهو من أساتذة جامعة كمبريج : « إن علوية القرآن في حقيقته العالمية ، فهو حافل بالعدل والإخلاص . والدعوة التي بلّغها محمد إلى العالم ، حقٌ وحقيقة » .

من ستيفاس مؤلف قاموس عربي إنجليزي : « القرآن واحد من أهم الكتب التي انتقلت إلى الناس ليفيدوا منها . فهو سجل جامع لأسس الأخلاق والعقائد الكفيلة للناس بالتوفيق والهداية في حياتهم » .

أما ديود أو كهارت وهو مؤلف كتاب عنوانه « روح الشرق » فيقول : « الإسلام يقدم براءة النجاة للتابعين ، وسجل أخلاق للمتبعين ، ويؤيدها بالدين » .

من محاضرة عن الإسلام ألقاها مانويل كنجج ، من أفاضل علماء الإنجليز ، سنة ١٩١٥ في كنيسة البرمستيان ، قال : « إذا كان في عالم الإلهام أمر يُدعى وحيا ، وكان للوحي وجود كامل ، فلن يُشك في أن القرآن كتاب منزل » .

من عدد ١٣ أبريل سنة ١٩٢٢ لجريدة نير إيست : « القرآن كتاب معجز ، وخلق بالإعجاب من حيث التنزيل والترتيب . مع أن لسان القرآن مخالف للساننا ، وآراءه تخالف آراءنا ، فإن إنكار قدره وقيّمته ، وفضله وجماله من جهات كثيرة يكون حرمانا من العقل والمنطق » .

قال سديو المستشرق في كتابه تاريخ بلاد العرب : « القرآن جامع لكل أسس الأخلاق والفلسفة . فالفضيلة والرذيلة ، والخير ، والشر ، وماهية الأشياء الحقيقية ، كلها مبينة في القرآن . فقد أوحيت آياته إلى محمد (صلم) . بحسب احتياجات الزمان ، وحوادث العهد » .

من كتاب حياة محمد للفيلسوف الفرنسي آل كسي لوازون « خلف محمد للعالم

كتاباً هو آية البلاغة ، ومنجل الأخلاق ، وكتاب مقدس . وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثاً أو المكتشفات الحديثة ، مسألة تتعارض مع الأسس الإسلامية . فالانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية ، مع ما نبذله من المساعي للتأليف بين النصرانية وبين القوانين الطبيعية .

قال الكاتب الأمريكي واشنطن إيروينج : « يحوى القرآن أسمى الآراء وأفيدها وأكثرها إخلاصاً » .

وعن المستشرق والفيلسوف الألماني يوحان ، يعقوب رايس (توفى سنة ١٧٧٤) : « ما إن يتعلم بعض الناس قليلاً من اللغة العربية حتى يقوموا بمحاولة الاستهزاء بالقرآن . ولواستمعوا إلى قدرة القرآن الثيرة ، الفصيحة المؤثرة ، وأحسوا باللسان الحير للألأباب ، الذى استخدمه الرسول حين أفهم القرآن أصحابه ، لوقعوا فى الحضرة الإلهية ساجدين صائحين يارسول الله ، أعثنا ولا تحرمنا من شرف الدخول فى أمتك ! » .

تلكم نماذج من آراء علماء الغرب المدققين المحايدون فى القرآن .

بىس الإسلام مانعا المرفى :

ومن الطعون الموجهة إلى الدين المحمدى ، أنه مانع للرقى والنقدم . ومثل هذا الطعن جد غريب ، لوجود أوامر إلهية ، وسنن نبوية ، مرغبة فى السعى والجهاد ، مانعة من العطل والكسل ، وحائثة على تحصيل العلم ، واكتساب الثروة المشروعة ، ومؤثرة للأغنياء الشاكرين ، على الفقراء الصابرين ، كقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة » ، وقوله : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وقوله « ولا تنس نصيبك من الدنيا » ؛ وكقوله صلى الله عليه وسلم : « الحكمة ضالة المؤمن أخذها حيث وجدها » ، وقوله « اطلبوا العلم ولو بالصين » ، فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وقوله « العلم للعامة ، والعبادة للرجل

وحده . وقوله « واحرث لدينك كأنك تعيش أبدا » ، وغيرها .

يريد المعارضون اتخاذ بعض الزوايا والتكايا أمثلة للكسل . وإذا كان منها ما يدفع إلى الكسل كما يقولون ، فإن حالتها هذه إنما نشأت من طروء الفساد على نظامها القديم بمرور الزمن ، ومن إهمال الخلافة والدوائر الخاصة بها وظيفته التفطيش والمراقبة . لقد كانت حكمة وضعها وإنشائها أن تكون دورا للخير ، وموثلا مؤقتا لأبناء السبيل ، ودورا للإرشاد الديني . ليس الإسلام يمنع العطل والبطالة حسب ، بل يأمر الأمة بالوقاية من الفقر أيضا . فتقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا » و « أستعِذ بالله من الفقر والعيلة ، ومن أن تظلموا أو تظلموا » دليل واضح على ذلك . والواقع أن الإسلام ، كجميع الأديان ، يأمر بالتفكير في الآخرة ، بيد أن هذا الأمر لا يعنى إهمال الدنيا ، بل يتبادر من النصوص القرآنية الكثيرة والأحاديث النبوية صراحة ، أن غايات الدين هي ضمان حسن المعاشرة ، وأمن الناس وسعادتهم ، وسطوة الأمة وقوتها : « خيركم من لم يترك آخرته لديناه ، ولا دنياه لآخرته ، ولم يكن كلاً على الناس » . صدق رسول الله .

أين الدليل الذي استخرجه المخالفون من القواعد والقوانين الإسلامية لإثبات دعواهم ؟ إن المساوى الناجمة من عدم تطبيق قانون ، أو سوء تعديله فيما بعد ، لا يجوز حملها على القانون نفسه .

تأسيس الأسرة في الإسلام :

النصوص والقوانين الإسلامية صريحة ثابتة في أمور تأسيس الأسرة والوراثة ، والحفاظة على النسل والذرية ، وضمنان العفة التي يترتب عليها حفظ النسل . وليس للمعترضين حق في اعتراضاتهم على الإسلام ، لإباحته الطلاق وتعدد الزوجات ، زاعمين أنهما من موانع تأسيس أسرة سعيدة ؛ فالأصل في الإسلام وحدة الزوجة ،

وتعدد الزوجات ليس مأمورا به ، بل أمر مأذون به ؛ ولا مساغ له إلا في حالة الضرورة .
لقد نشأ الدين الحمدي عند قوم لا يأبهون كثيرا لأمر الزواج ، وكان الزمان يوجب
نقص الذكور عن الإناث ، بسبب الغارات والغزوات ، وقد دفع التفاوت العظيم
بين الذكور والإناث أكبر العرب إلى وأد بناتهم ، وتقديمهن قربانا للآلهة غداة
ولادتهن ، زاعمين أنهم يحفظون بذلك عرض الأسرة وشرفها ، فجاءت الشريعة
الحمدية ، وقيّد النكاح بقانون ، وحدّد عدد الزوجات ، وعيّن في الوقت نفسه
حدا متوسطا يمنع نقص الذكور ، ويحفظ عددا كبيرا من النساء من الفساد . ثم
إن القواعد والشروط الشرعية الموضوعة في شأن تعدد الزوجات ، لوروعيت رعاية
حقا ، لكان وقوعه — ولو ممكنا — عسيرا ونادرا في عصرنا هذا .

أما الطلاق فهو وسيلة محضة للخلاص ، إذا استعمل في حدود قواعده الشرعية ،
فليس من العدل في شيء أن تحمّل أمة برمتها حالة ضرورة ناشئة من عدم الألفة
والامتزاج ، تقاسمها أسرة مدى الحياة من سوء العشرة ، أو قلة العفة . إن اعتراف
عالم المدنية — بلا استثناء تقريبا — بالطلاق والعمل به بعد ثلاثة عشر قرنا ،
يؤيد كون الشريعة الإسلامية حقا وحكمة . ومع ذلك فما هو خليق بالذكر أن
الإسلام وإن كان مسوّغا للطلاق حين الضرورة ، إلا أنه يستقبّحه ، حيث يقول
الرسول : « أبغضُ الحلال إلى الله الطلاق » . وهناك أحاديث تخبر بأن الطلاق
يُحزن حتى الملائكة . ما جاء دين كالإسلام ، ولا بُعث نبي كمحمد ، وضع أحكاما
صريحة لحماية حقوق المرأة . وقواعد المسيحية في الزواج وتحيده إنما وضعت فيما
بعد . والإسلام كما أنه في كثير من الآيات والأحاديث النبوية أمر بحقوق المرأة ،
فإن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أوصى برعاية حقوق المرأة خاصة في خطبته
بمحجة الوداع^(٨٢) .

الإسلام لا يروج الرق :

لقد افترى الأوربيون على الإسلام ، بأنه مروج للرق والأمر ، حينما شرعوا في السعى لمنع الرق . على حين أن لحمد أحاديث كثيرة مبينة ثواب عتق الرقيق ، ومن وصاياهم في خطبة حجة الوداع معاملة الرقيق في طعامه وكسوته كمعاملة الأحرار . وكان يُعتق كل رقيق ينتقل إليه بسبب من الأسباب . وإذا رأى في أحدهم أصالة في الرأي والروية ، رفعه إلى أسمى المقامات الإدارية والعسكرية . ومن أولئك الأرقاء المعتقين زيد بن حارثة ، وسلمان الفارسي . بلغ مسامح حارثة وهو من علية قبيلة بني كلب ، وجود ابنه زيد بمكة ، فحضر إليها ، لا فتدائه بالمال المعتاد في مثل هذه الحال . ولكن زيدا آثر قرب محمد وخدمته ، على عطف أبيه وشفقته . ولم يكن محمد قد أعلن رسالته بعد ؛ فإن نظريات الرسول في شأن الأسر ومعاملتهم للأسرى كانت رحيمة أولا وآخرا . بيد أن عرفا وعادة جارية في كل العالم ، وأمرأ معدودا من اللوازم الاجتماعية في ذلك الزمن ، لم يكن في الإمكان تغييره وهدمه بالنص في صورة حاسمة . فالمسيحية نفسها لم تقدر على إلغاء الرق ، حتى زمن قريب جدا . ومنذ ستين أو سبعين عاما شَبَّت في هذا الشأن حروب عظيمة بأمريكا ، كلَّفت إراقة دماء مئات الألوف من الناس .

ومع ذلك فقد فتح رسولنا طريقا إلى هذه الغاية الإنسانية ، بما أجرى من الوصايا ، وأبرز من أمثلة^(٨٣) . وإذا كان بعض المتوحشين أحيوا عادة خطف الأرقاء والأسرى بعد قرون عديدة منه ، فالمسئولية ليست واقعة على الدين الإسلامي ، ولا على محمد .

نظام الحكم في الإسلام :

كان نظام الحكم في القرن الأول مقتربا بالحرية والمساواة والعدالة . ومن المشهور أن عليا كان في خصومة مع رجل يهودي ، فنأدى القاضي عليا بكنيته

احتراما له ، والذي باسمه ، فتأثر على من ذلك . وعده منافيا للمساواة .
كان الخليفة أى رئيس الحكومة ، يُنتخب من قبل عظماء الأمة على قيد الحياة ، توفيقا لشروطها المعينة . والتشاور فى أمر الإدارة والحكم مفروض ومسنون فى الإسلام . وكانت القرارات المهمة التى تخص الجمهور ، تتخذ فى القرن الأول باستشارة أكابر الأمة . وكان إلغاء معاوية بن أبى سفيان هذا النظام خطأ كبيرا . فقد ضحى بنظام حكم تبحث عنه البشرية إلى اليوم بإراقة الدماء فلا تجده ، فى سبيل مطامع الأمويين فى الحكم والسيطرة . إن القلاقل والاضطرابات التى بدت فى الحكم منذ أواسط حكم عثمان — بدون تلعبه بالطبع — من التعامى إنكار كونها ذات وجهين ، أى أنها حدثت حسب خطط نظمها الأمويون من جهة ، والمنافقون من جهة أخرى .

وأما تحميل الشريعة الفراء مسئولية المظالم والاضطرابات التى أحدثها الملوك من ذوى الأطماع فيما بعد ، فلا يتفق مع المنطق والإنصاف . فلنلاحظ العدل والمساواة اللذين سادا أيام خلافة الشيخين المكرمين . فأما عمر فقد حُكى أن عربيا سئل سيفه مُهددا فى المسجد على الملأ بأنه يقوم به إن ظلم . فلما بلغ الخبر عمر دعا الله أن يكثر من أمثاله من أرباب الشجاعة والجلد . فلينظر إلى هذا ، ثم إلى رفقته وشفقته لدرجة حمل طعام الأيتام والمعجزة على ظهره ، وهو خليفة ، — كما وصفه الشاعر الحلو اللسان محمد عاكف — وعزمه وقدرته ورويته الحيرة للألباب . ثم يطوّل اللسان فى الشريعة المطهرة بالتشنيع !

والتعريض بأن مثل هذا الحكم وإن كان كافيا لأقوام بدائيين ، ليس بكاف لسد حاجات المدينة الحالية خطأ محض . فقد تكونت فى خلافة عمر دولة إسلامية عظيمة فى الإمبراطورية الإيرانية ، التى كانت مؤلفة من شعب ذى مدنية قديمة ، والولايات الكائنة بسورية وأفريقية الشمالية للإمبراطورية الرومانية ، التى لا تزال قوانينها مقتدى بها فى أوربا . فقبول تلك الأمم البالغة أوج

المدنية في زمانها ، الديانة الإسلامية بهذه السرعة والسهولة ، إنما كان بتأثير الشرع الشريف ، ومعدلة الحكومة المتمسكة به وحكمتها ، أكثر من تأثير سطوة السيف العربى . ومع ذلك فليس فى الشريعة الإسلامية ما يمنع من وضع قوانين ولوائح كفيلة للاحتياجات المدنية المتزايدة ، على شرط عدم الانحراف عن القوانين الأساسية حسب ، بل قد أوصى الشارع بذلك حيث قال : « إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة من يجدد لها دينها » . وهذا إشارة إلى لزوم التجديد بحسب الحاجات العصرية ، وتصويب ، بل أمر بذلك .

مسألة الربا :

يبد أن بعض الأحكام الشرعية والمعاملات التى يميزها المتأخرون ، باسم التأويل الشرعى ، أو الحيلة الشرعية ، فيها مساع للكلام والمناقشة . فالمصارف (البنوك) المؤسسة على معاملة الإقراض والاستقراض بالربا ، وصناديق التوفير والتأمين وغيرها ، كلها من العوامل المهمة للمدنية الحاضرة . ولما كان الربا حراما شرعا فقد يُلجأ إلى حيل شرعية لاستحلاله ، حتى إن اتقائمين على أموال الأيتام يحتالون للتخلص من حرمة الربا بأصول غريبة ، كنقل الأموال من يد إلى يد بالإيجاب والقبول . وفى رأى أن مثل هذه الأفكار والأحكام الغريبة ، إنما هى لعب بالألفاظ^(٨٤) . ولو بُحث المراد والغاية والأسباب الغائية التى فى النصوص والأوامر ، ونفذت الأحكام الفقهية بمقتضاها ، لما بقى محل لمعاملات وقرارات غريبة كالتى رأيناها . لاشك فى أن الأرباح الفاحشة ، لاسميا المركب منها ، كالذى ورد ذكره فى القرآن من الربا المركب ، الذى يبلغ أضعافا مضاعفة للدين ، يمكن أن يؤدى إلى غبن المدين ، وضياح كثير من الثروات . وهذه الحال مُضرة بالمجتمع ، كما أنها مضرة بأصحابها^(٨٥) . فالأوامر الدينية الرامية إلى تخليص الناس من المراكبين المحتكرين الظالمين ، حكمة محضة . ولكن هذا يقتضى من جهة أخرى انتفاع

امرى* بإيجار ماله من عقار وأملاك وضياع ، وحرمان آخر من الانتفاع بما له من نقود . وفى إمكان الحكومات أن تضمن للمقرض ربحاً تُدرّهُ عليه المبالغ المستقرضة ، قياساً على الأجور وغيرها ، وتعيّن مقدار هذا الربح ، وتعتبر الأرباح الزائدة عليه ربا ، وتمنعها . فهذا يمكن منع إخفاء الذهب تحت التراب ، بعد أن استخرج منه ببذل مجهودات وأموال ضخمة ، وإنقاذ الثروة القومية من الضياع بعدم الاستخدام . وأما عدم حل المسألة حلا معقولا ، والتوصل بعمامات غريبة ، كالتي ذكرناها ، فيدعو بحق إلى الاعتراضات^(٨٦) .

ومسألة الربا هذه ليست مسألة هيئية ، بل هى أمر قد فتح منذ تديم بابا لمناقشات واختلافات متناسبة مع أهميته الاجتماعية . ولما كان مقصدي من ذكرها الإتيانُ بمشال مأخوذ من المسائل الاجتماعية المهمة ، الدائرة حول الغرائب التي دفعت إليها فكرة الحيلة الشرعية ، فإنى أتخشى التعرض للمسألة الأصلية ، مكتفيا بهذا القدر .

لا يسلّم المنكرون بفوائد الأديان فى شؤون التهذيب الأخلاقى . قال ن . سيمون فى كتابه الذى ذكرته سابقا ، إن ما ألقه سقراط وأفلاطون وشيشرون من الكتب ، ليس أقلّ من القواعد الأخلاقية التى وضعتها الأديان . وآتى ببعض أمثلة منها . وموضع السؤال هنا : ترى ، هل وضع هؤلاء الشخصيات ما وضعوا من القواعد الخلقية من تلقاء أنفسهم ، أو هى قواعد دينية عتيقة انتقلت فى أزمان مجهولة من الآباء إلى الأبناء ، وإلى الأحفاد ، ثم سقطت عن العمل رويدا رويدا ، وبقيت محفوظة فى الأذهان والأقوال ، حتى جمعوها فى كتب ؟ لا جرم أن سقراط وأفلاطون كانا موحدّين مؤمنين بالربوبية . وأما شيشرون فقد كان رجلا ، مع أنه ألق كتابا فى الأخلاق ، يتلذذ بمشاهدة مصارعة الأسرى المساكين بعضهم مع بعض ، أو مع بعض الحيوانات المفترسة ، وسماع أناتهم وهم يحتضرون ، نتيجة لتلك المصارعة . أورد نابليون الثالث فى كتابه « مغامرات شيزار (قيصر) »

أن شيشرون ذكر في رسائله أنه كان يتأثر بصياح الفيلة المجروحة في أثناء مصارعها في الملاعب العظيمة ، التي أنشأها كراسيوس وپومپه وشيزار من عظماء روما ، ولكنه لم يذكر تأثره أو حزنه من أنين الأسرى ! فمن المستحيل المقارنة بين مدرس أخلاق كمثل و بين الأنبياء العظام !

يتصور بعضهم إمكان تقويم الخلق وتصفية النفس بقوة القانون . فلنترك عدم ثبوت هذه الدعوى بالحوادث والمشاهدات إلى جانب ، ولكن مما لا ريب فيه أن الحاجة ماسة لتربية النفوس للوقوف أمام بعض سيئات خفية ، ليس في استطاعة القانون والشرطة النفوذ فيها — وهى سيئات تفسد الشباب والجهال في البنية الاجتماعية .

ويبلغ ببعضهم الكرم لحد عدم استحسان الانقاء عن المنهيات ، خشية عذاب يوم القيامة ولزوم ذلك بتحلى الناس بالأخلاق الفاضلة والوجدان . إنى أحيل إلى رأى العام تقدير مبلغ تصديق أعمال أغلب هؤلاء لأقوالهم . والحق أن عظماء من الواقفين على أسرار « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » قد حصروا أفكارهم وأعمالهم فى الله بلا خشية عذاب الآخرة ، ولا أمل الجزاء ، أوفنوا فى الله بتعبيره الدينى . بيد أن أولى درج هذا الطريق ، التصديق بالله والإيمان بالدين . خلق الإنسان مجبولا على الحصول على قوته من محيطه . فلو لم تلطف هذه الجيلة وهذه الضرورة ببعض معتقدات ومعنويات ، لزادت الخشونة والقسوة زيادة متصلة ، وفسد نظام العالم .

إن معظم الحكماء والرؤساء ، عدا الأنبياء العظام ، من واضعى القوانين الملهذبة للأخلاق ، كانوا يؤمنون بما فوق الطبيعة ، أى يقرون بقوى وأحوال غيبية . أما نظريات من لا يؤمنون بها وفلسفتهم فتوصى دائما بالألانية والغرور . فقد فُسِّرت نظرية تنازع البقاء ، وبقاء الأصلح تفسيرا أنانيا ، وتُبَّتت فى صورة « الحكم لمن غلب » .

بناء على ما ورد من النظريات في كتب نيتشه ، التي قلبت عقل شبابنا رأسا على عقب ، ينبغي للإنسان أن يحصل على منافعه بقوة عزمه ، ضاربا بالقيم الخلقية عرض الحائط ، وأن يعيش لنفسه دون تفكير في غيره ، وأن يكون أترأ متجردا من الإحساسات والشعور الرقيق الخاص بالضعاف ، ويستخدم الضعاف في آماله الخاصة ، وأن يقهر كلَّ أحد وكلَّ مانع يحول بينه وبين تلك الآمال . وبهذا يكون المرء إنسانا عاليا ^(٨٧) (Ueber. mensch-Superhomme)

إن هذه الفلسفة التي حلت بالجيل الجديد بألمانيا ، والتي يحتمل أن تكون هي الدافع بذلك الشعب العظيم ، وتلك الدولة العظمى إلى المصائب والهلاك ، قد بدت تأثيراتها كلها في أفعال شبابنا أيضا . ونظرية كتلك ، برغم جميع وعودها ، ترويج لنصر غرور الأقلية وأثرتها على الأكثرية . في حين أن البشرية عصت على هذه الحال دائما ، ومن أجلها كان معظم الثورات والاضطرابات التي بدت فيها . فهي ليست فلسفة ، وإنما هي تصوير غريزة مرتكزة في الفطرة البشرية بلسان الفلسفة . وقد جاءت القوانين الوضعية والمنزلة كلها لمنع المساوى والتخريبات ، التي يمكن أن تنبعث من شدة تجلّي تلك الغريزة . إن هذه النظرية المحركة للطمع والحرص ، والزائدة فيهما ، ينفرد بها بضعة أشخاص ، ويتطلع بعض المالبين ثروات العالم كله ، ليستأثروا بكثيرين من الناس ، ويستخدمهم العوبة في سبيل ملاذم وشهواتهم . ولكن الحسد والانفعال اللذين ينبجمان عن هذه النظرية ، يدفعان إلى ظهور الشيوعية أيضا ، فتصير الدنيا حينئذ في اضطراب وقلق . فالوقوف أمام مثل تلك المصائب ، وانقاذ البشرية من الانحطاط ، إنما يكون بوضع حد ، وإقامة سد أمام تلك النظريات ، بقوة دينية تلتقي الرقة في قلوب البشر .

إن العهد الأخير الذي أيقظت فيه الحرب العالمية (الأولى) كثيرا من انفعالات وأغراض وأطماع من جهة ، واكتشفت التطورات العلمية وسائل تخريبية ، يمكن بها تخريب مملكة ، وإهلاك أمة برمتها في لحظة واحدة ، من جهة أخرى ، ففي

إمكان نظرية أخلاقية كالتى ذكرناها، أن تدفع البشرية إلى الانقراض والهلاك. ولذا فالبشرية فى عصرنا هذا أحوجُ إلى الإيمان بالآخرة ، والتقوى من العقاب المعنوى ، منها فى الزمن القديم . فيجب على النشأ الجديد أن يتحلَّى بالمقائد الدينية ، والقواعد الأخلاقية المتعارفة من القديم ، وأن يفتح صدره رحبا لإحساسات الرقة والرحمة ، وإلا فالعاقبة وخيمة . ولا ينبغي أن يظن أن القوى يقهر الضعيف ، والعالم يقهر الجاهل ، فتم الموازنة بتحكمُ الغالب وسعادتِه ، وتنحلُّ المشكلة . وإذا لم يطف الهياج العصبى الناشئ من المنازعات برقة دينية ، استلزمت هذه المنازعات زيادة الخصومات والانفعالات زيادة مستمرة ، حتى تنقلب المدينة إلى البداوة ، والبشرية إلى الهيمية .

وهذه الحقيقة أدركت فى عالم المدينة ، وأخذ الناس يسلّمون بضرورة دين مستند إلى التصديق بالله والتوحيد . ولكن هيهات ! فى أثناء ذلك يظهر الإلحاد فى بلاد التوحيد ، « سبحانهك يا محوّل الأحوال » .

الفرآة لابروج الحرب :

ومن أهم الاعتراضات والمفتريات الواهية على القرآن ، قولهم بأنه روج الحرب والضرب ، ونشر مبادئه وعمّمها بقوة السلاح ، هذا فى حين ظل المسلمون ثلاثة عشر عاما من الثلاثة والعشرين عاما التى ثابر فيها محمد على نشر دعوته بمكة ، غير قادرين على دفع الأذى عن أنفسهم . وأما الغزوات التى وقعت بعد الهجرة ، فبعضها دفاعية محضة (كغزوتى أحد والخندق) وبعضها دفاعية هجومية (كغزوات بدر وخيبر وخيبن) . وأما فتح مكة فنسميته بالفتوح والصالح ، أولى من تسميته بالحرب . وأما من جهة انتشار الإسلام فى جزيرة العرب ، فكانت رغبة محمد فى فتح مكة ، وهى أقدس مدينة بتلك الجزيرة ، ومسقط رأسه ، وموطن أسرته منذ ألوف السنين ، رغبة طبيعية جدا . ومع ذلك لم يحدث فيه قتال . بل بالعكس من

ذلك ، لم يكذب محمد يدخل مكة حتى أعلن العفو عن كل من أهدر دمه ، لما لحقه منه من أذى أو إهانة للإسلام إذا أسلم ، وفيهم من قتل عمه ، ولاك فلذة من كبده ، ومنهم من شجَّ رأسه ، اعتدى عليه بالضرب ، وبسط جناح الرحمة عليهم جميعا . ويمكن أن يقال إن محمدا ما اكتفى بتنفيذ ما تضمنت شريعة عيسى مراسم العفو والرحمة قولاً ، وإنما أيدها وطبقها فعلا .

كانت المعاملة التي عوملت بها قبيلة بنى قريظة اليهودية شديدة قاسية ، بيد أن هذه القبيلة التي سببت بتلوئنها ونفاقها مشا كل ومشاق كثيرة للمسلمين ، نصبت بعد قتال الأحزاب ، سعد بن معاذ الأنصاري حكما ، ليصدر حكمه فيهم ، فأصدر عليهم حكما حسب أوامر التوراة ، ونفذ^(٨٨) . أما القبائل اليهودية التي دخلت في حماية محمد بلا واسطة ، فعاملها بالرفق والشفقة دائما .

أما الحروب الشمالية التي بدأت في أخريات حياة محمد ، واستمرت في عهد الشيخين ، فقد نشأت من إهانة وقتل رجال البعثة السلمية ، التي بعثها الرسول إلى كسرى إيران ، وأمراء الفسانيين ، الذين هم عرب جنسا ، ونصارى ديناً ، ورومانيون حكما . ثم تكررت هذه الحروب فيما بعد لقيام الفساسة والمناذرة (وكان هؤلاء من أتباع الفرس) بحركات غير مرضية ، على حدود سورية والعراق ، واشتدت حتى جرت إلى حروب فتوح معلومة .

وحروب الاستبلاء والاستعلاء التي وقعت بعد وفاة النبي ، في عهد الشيخين لم تنشأ من التعاليم الدينية . إنها وإن جاز عدها نتيجة القوة والسلطان الذي زوّد به الدين العرب ، إلا أنها تولدت في أصلها من أسباب سياسية . ومع ذلك فقد كانت تلك الأحداث نتائج مقدرة لذلك العصر ، وذلك المحيط وتلك الأقوام . إن قدرة شرذمة مقاتلي العرب على هز دولتي الفرس والرومان ، العظيمتين للمدنيّتين باضمحلال إحداها ، وانقراض الأخرى انقراضا تاما ، هو برهان ساطع على صدق الديانة الإسلامية وحقيقتها . وإن لم يحمل انتصار المسلمين على المعجزة ،

مع توافر العدد والقُدود والمهارة الحربية وغيرها من وسائل النصر وشروطه في جهة الخصم ، فعلى أى شىء يمكن إسناده سوى التأثير المعنوى لرفق المسلمين وعدمهم في قلوب الناس ؟ ولا يجوز تشبيه توسع المسلمين واستيلائهم على البلاد ، بما قام به البرابرة الذين ضاقت بهم أرضهم ، من غارات مدوخة للأُمم المتمدينة ، والبلاد المعمورة ، فانتصروا بالطغيان وكثرة العدد .

والحق أن في القرآن آيات كثيرة تأمر بالاستعداد للحرب . وتحريضُ الناس على الرجولة ، وتحذيرُهم الجبن والكسل ، حكمةً بالغة . وليس يمكن تصوّر رجل سياسى أو فرد عاقل يفكر اليوم هذه الحقيقة . بيد أن ثمة آيات كثيرة مانعة عن الحرب دون سبب كقوله تعالى : «وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين » سورة الروم . وقوله : « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يُخرجوكم من دياركم أن تبرؤوهم وتُقسطوا إليهم إن الله يحب المُقسطين » سورة الممتحنة .

يعتقد المنكرون الأديان إطلاقاً ، أنها كانت سبباً لسفك الدماء . بيد أن الإنسان إذا تعمق في البحث ، تبين له أن جميع المنازعات والحروب ، نشأت من تعارض حقوق الناس ومنافعهم بعضها ببعض ، أى من عدم اتباع الأوامر الدينية وقد تولد أكثر هذه الاختلافات منذ القدم ، من العجز عن تقسيم الغنائم والمصايد والمرامى والمزارع ، أو الثروات عامة . ولو استعرضنا أسباب أحداث العالم العظيمة ، من حروب الصيغ والتتر ، وإيران وطوران ، وغارات الفراعنة والإيرانيين ، والكلدانيين والآشوريين ، والإسكندر والرومانيين ، وهجرات الأقوام ، وهجمات البرابرة ، وغارات آتيل وجنكيز وهولاكو ، وحروب المئة العام ، وحملات نابليون ، والحرب العالمية (الأولى) التى سببت أكبر التخريبات ، لعلمنا بأنها ليست في الدين ، وإنما هي في المنفعة والسياسة .

لم يكن توسع المسلمين سبباً لسفك الدماء بمقياس كبير ، لأنه لم تحدث ملاحم

كبيرة دموية سوى موقعي يرموك والقادسية . ولم ترتكب المظالم في أى مكان ، وقد دخلت الأراضي المحتلة كلها في حوزة المسلمين مع تبعية أهلها بلا قتال تقريبا . والواقع أن حروبا كثيرة وقعت بين الفرق الإسلامية ، بيد أن الاختلافات الأولى منشؤها المنافسة القديمة بين الهاشمين والأمويين ، وأشد الحروب الواقعة بين الشيعة وبين السنين نجمت عن تغلب الأسرتين العثمانية والصفوية ، وأطاعهما في التوسع .

وأقصى الحروب الدينية وأكثرها إراقة للدماء هى الحروب الصليبية ، وقاتل الكاثوليك والبروتستانت ، وحروب الثلاثين عاما . ولكن هذه الحروب كذلك ليست كافية لإثبات مسئولية الدين عن الحروب ، وهى من مقتضيات الجيلة البشرية ، لأنها لا تُعد شيئا في الملاحم العالمية .

ومن الحقائق التاريخية أن عدد النفوس نزل في نهاية حرب الثلاثين عاما إلى نحو الثلث . ولكن ما مضى قرنان على تلك الحروب حتى اكتسبت النفوس كثافتها القديمة ، وبلغت في بداية الحرب العالمية (الأولى) حدا لا تسعها البلاد . ونظرا إلى هذه الحالة ، فلو لم تحدث الوفيات التى استلزمها تلك الحروب ، ودامت ذرية المقتولين في الزيادة ، فأى مكان من ظهر كرتنا كان يكفل لهم حاجاتهم بآثرى ؟

ربما كانت « جمعية الأمم » التى أنشأها ولئن خادِم الإنسانية ، مانعة لأطباع توسع الدول واستعلائها مدة من الزمن . ولكن إن لم تتكون جمعية أخرى من الأطباء والعظماء ، وتتمكن من وضع حد معقول لزيادة النفوس وتكثُرها ، فلن يمكن الوقوف أمام الاعتداءات والحروب ؛ لأن الشعوب والأمم التى لم تقدر على تقسيم ظهر الأرض في الماضى ، سوف تتنازع لتقسيم بطيها ، من أجل ما فيها من الكنوز المعدنية .

الطعن في الاسلام لمادية ثواب الاخرى :

وأكبر طعون الزُهَّبان والحكماء على الدين الإسلامي ، موجه إلى أن القرآن ذكر ثواب الآخرة في صور جدِّ مادية ، بل في صورة شهوانية على زعمهم ، ويبدو أن رجال الطبقة العليا من هؤلاء المعارضين ، يقومون بمثل هذا الطعن ، مقارنة الطبائع البشرية في كل زمان وفي كل مكان ، بإدراكهم هم وعرفانهم ، ولا يفكرون في أن القرآن لا يخاطب المدرسين وحدهم ، وإنما يخاطب الجمهور كذلك . وأما في أيام نزوله فقد كان القسم الأعظم من المخاطبين مساكين ، يطلبون الماء من السَّراب ، ويتحسرون على الحضارة طول العمر ، ويحاولون وقاية أنفسهم من حرارة الشمس ، وبرودة الليل ، بالكهوف والأخبية من الشعر ، ويثدنون بناتهم تقربا إلى آلهتهم ، زاعمين أنهم يحبون النساء^(٨٩) . وجزاء الإنسان نيله مرامه ومآربه . فما ذا يكون التعويض لمن مُنِع عنه نعيم الدنيا ، غير أنهار الجنة وأشجارها الوارفة الظل ، وشراب الكوثر ، والقصور والحُور والغلمان ؟ فماذا يتصور سكان بريطانيا وبوميرانيا من قُرى أوروبا المتمدينة في هذا العصر ، وشبان شوارع المدن الكبيرة ، لذَّة ونعيم أكثر مما ذكر ؟ بله البدو من الأعراب قبل ثلاثة عشر قرنا ؟ ! فكلُّ مخاطب بلغة يستطيع فهمها ، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم « كلوا الناس على قدر عقولهم » .

يُقبل من النصرانية تصويرُ الجزاء الاخرى بأشد آلام الدنيا ، فلم يُعترض على تصوير القرآن جزاء الآخرة بنعيم الدنيا ؟

ثم إن اللطائف الأخرى التي يعسر على الناس فهمها بعقولهم الدنيوية ، يُفهمونها تشبيها — ولا سيما الجهال — ، ولكن لا ينبغي أخذ الألفاظ والتشبيهات كما هي^(٩٠) . وليس من شك في أن قسُس الكاثوليك والأرثوذكس لا يعتقدون الله في زِيّ شيخ قد انقلبت لحيته الطويلة نهرا ، كما يصوِّر على جدران الكنائس !

إن كان القرآن ذكر أنهار الجنة وكثرها وحورَها ، فإنه قد بشر خواص الأمة بأن رضوان الله فوق كل الملائكة « ورضوان من الله أكبر » سورة التوبة ٧٢ . وأن النفس لا تدري ما قدر لها من نعيم وملاذ خفية . « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون » السجدة الآية ١٧ . فالآيات المبينة لثواب الآخرة تبشر كل امرئ بنيل ما يراه غاية للسعادة . فخواص الأمة يفهمون منها ما يتصورونه من نعيم علوى فى الآخرة . والأمنية الأخرى لعظماء المسلمين هى تجلى نور جمال الله . وقد عبر سالكو الطرق القلبية عن السعادة الحقيقية الأخرى بالفناء فى الله . ولكن ما التأثير الذى يتركه مثل هذا التبشير فى العوام ؟

فصل خاص

النتائج المحصلة من التمهيدات التي ذكرت في المباحث المتقدمة

إذا لخصنا البيانات التي سبقت حتى الآن حصلنا على النتائج الآتية :
أولاً : — لا بد من خالق ، قديم ، حكيم ، غير مُدْرَك الذات ، واجب الوجود . ويوجد كذلك عالم غَيْب ، لا يمكن إدراكه بالخواص البشرية ، ولا تمييز حقيقته بالعقل^(٩١) . وحقائق الأشياء في ذلك العالم .

إن تضمن كل شيء خاصّة خفيّة ، وقوة غيبية ، من البديهيات عند أرباب العقل . إن كان الشكل الظاهري للإنسان والحيوان والنبات والمعاد مادياً ، فإن لطائف الخليفة كالنفس والروح ، وخاصّة النمو ، وقوة الجاذبية ، هي من عالم الغيب . فهي تظهر لنا بآثارها ، ولكن حقائقها لم تظهر لنا في هذا العالم الجسّامى ، ولن تظهر . بيد أن الظواهر كلّها قائمة بتلك الإحساسات الباطنة . فلو تصورنا انتزاع النفس الناطقة من الإنسان ، والنفوة الحيويّة من الحيوان ، وخاصة النبت والنمو من النبات ، وجاذبية المعاد ، وقوة الذرّات — وكلها من المغيبات بالنسبة إلينا — لحظة واحدة ، لا خفت الصور والأشكال قاطبة ، وصار العالم خليطاً (Cahot) . وأغلب الاحتمال أن كل شيء ينقلب إلى قوة ليست لها نقطة استناد ، أى إلى عدم . ولا يبقى إلا « وجه ربك ذو الجلال والإكرام » .

وليست إفاداتى هذه من التخيل ، بل هي من الحقائق العلمية . إذن فشمّة عالم غيب كذلك . وإذا صدّق بوجود ذلك العالم ، فلا يمكن الادعاء باستحالة وجود موجودات لطيفة ، كالملك ، والجنّ ، والشيطان ، مهما كانت أسماؤها .
وأما جواز العبوة ولزومها ، فيكفى لإثباته ما ذكرت من الأدلة والملاحظات

في المبحث الخاص ، ولا سيما ما شوهده من الاعتماد على النفس والإيمان والتقناعة في دعوة محمد ، وما جمع في نفسه من الفضائل الخلقية ، والصدق ، والحكمة ، في أمر التبليغ .

فالإيمان بالله وبالغيب والنبوة والوحي يعنى الإقرار بالدين . فالدين حق من هذه الجهة . وذهاب البشرية إلى دين وعقيدة مذ عرفت نفسها ، إثبات لكونه فطريا طبيعيا .

إنى شئت في أثناء مدار بينى وبين الماديين في بلادنا من المباحثات ، أنهم يأخذون تعبير «الماديين» بمعنى «الطبيين» ، وعقيدة «الروحانيين» بمعنى المعارضة للطبيعة . وقد نشأ أصل الخلاف مما في هذا الفهم من خطأ . والواقع أن في المصطلحات العلمية تعبير «ما بعد الطبيعة» ؛ ومبحث الخلقة في الفلسفة يُعد من مباحث ما بعد الطبيعة . ولكن لا يُستنتج من هذا التعبير الاعتبارى المحض ، كون فكرة الديانة مخالفة للطبيعة . إن تكن هناك معنوية وروحانية خارج المادية في نظر الإسلام ، فكونها غير مادية لا يستلزم كونها غير طبيعية . وقد رُوى أن تعبير «ميتافيزيقا» نشأ عن كون أرسطو قد درس مبحث الألوهية والخلقة بعد العلوم الطبيعية ، كما أنى رأيت في كتاب أنسيت عنوانه ، أن هذا الاسم نشأ من وضع كتب العقائد وراء كتب العلوم الطبيعية ، في تنظيم إحدى مكتبات اليونان .

لا يُعد الإسلام تبليغاته أسورا فوق الطبيعة ، بل بالعكس من ذلك يؤيدها بأمثلة مأخوذة من الآثار والأحداث الكونية الطبيعية^(٩٢) ، فوجود خالق واجب الوجود لهذا الكون أمر طبيعى . والبشرية مقتنعة بهذه الحقيقة كذلك بسوق طبيعى مع الوحي الدينى ، والتحقيق العقلى . إن اعتراف الفرنسيين بإله خالق ، وتبجيلهم إياه ، بعد أن ألغوا العقائد النصرانية في ثورتهم الكبرى ، وعجزهم عن التخلي عن عقيدة خلود الروح ، لدليل قاطع على أن هذه العقيدة فطرة بشرية

طبيعية . بيد أننا لا ندرك حقائق الألوهية وعالم الغيب في عالمنا الجسماني هذا . وقد أثبت في مقدمة هذا الكتاب بأمثلة بسيطة ، أن في الطبيعة خواصّ وحدودا يعجز علم البشر عن التعلق بها وتجاوزها .

وثانيا — الدين كما أنه حقّ في نفس الأمر ، فهو نافع أيضا لهذا العالم الفاني ولازم له . والنصيحة وحبّ الخير للناس غاية الدين في الدنيا : « الدين النصيحة لله ولرسوله » . والدين يضع القواعد الخلقية ، ويؤيد اتباعها ورعايتها بالتبشير والإبذار . فالتعاليم الدينية كانت أكثر نفوذا من أى أمر سواها في قلب البشر وفكره حتى اليوم . وإن كان الدين قد استُعمل أحيانا في أيدي بعض الأشرار وسيلة لارتكاب المظالم ، إلا أنه أنتج على وجه عام بقاء الشريعة ودوامها .

يقر بنفع الدين ولزومه أعظم الناس ، ممن بلغوا أرفع المقامات بكداً وإيمانهم ، من أفراد أكبر الأمم وأقواها . أنقل في هذا الشأن فقرات عن كتاب عنوانه : « هل يمكن أن يكون المنفثون دينيين ؟ » لمفكر أمريكي يدعى مستر ورومن ، وهو مترجم إلى التركية بقلم محمد شكرى بك . قال المستر كولج الرئيس الأسبق لجمهورية الولايات المتحدة بأمرىكا في إحدى خطبه : « إن البلاد في حاجة إلى التدبّر أكثر مما هي عليه الآن . وإني لا أتصور دواء أنجع وأكثر تأثيرا من الدين في إزالة المساوىء والشُرور التي تلوّن بها شعبنا . فليس في الدنيا نظام تربية أو نظام حكومة غير معرض للزوال . كما أنه ليس هناك جزاء أو عقاب لم يفقد تأثيره فيما بعد ، إلا ما جاء عن طريق الصلاح والتضحية ، وأساس الدين النصيحة ، فلا سبيل إلى دوام هذه الحضارة المضيئة ما دمنا محرومين من الإيمان » .

واقبَس المستر ورومن من آخر مؤلّف للدكتور ولِسْن رئيس الجمهورية الأمريكية الأسبق الجمل الآتية : « وخلاصة المسألة كلها أن حضارتنا إن لم تنقذ بالمعنويات ، فلن تستطيع المشاورة على البقاء بماديتها . ولا يمكن أن تنجو إلا إذا سرى الروح الديني في جميع مساهماتها ، فتحررت وسعدت بما ولد فيها هذا الروح

من الحركات . ذلك هو الموضوع الذى يجب أن يجادل فيه كنائسنا ونظمتنا السياسية ، وأصحاب رؤوس أموالنا ، وكل فرد خائف من الله محب لبلده » . وذكر روبرت ميلسكان وهو من مشاهير علماء الفيزيقا بأمرىكا — وضع أحدث نظريات الذرة ، واكتشف البروتونات والألكترونات ونال جائزة نوبل — فى مؤلفاته المختلفة ، الجمل الآتية : « أهم أمر فى الحياة هو الإيمان بحقيقة المعنويات ، وقيمة الأخلاق . وكان زوال هذا الإيمان سببا للحرب العامة (العظمى) . وإذا لم نجتهد الآن لاكتسابه أولتقويته ، فلن تبق للعلم قيمة . ويصير العلم نكبة على البشرية أكثر منه سعادة ، فى حين يكون العلم تحت حكم الدين مفتاح الرقى ، وأمل المستقبل . وكل رجل مفكر يؤمن بالله ، ولكن يختلف أسلوب هذا الإيمان » . وقال شارلز آ . ألود رئيس جمعية الاجتماعيين بأمرىكا ، ومؤلف عدة كتب فى الروحانيات والاجتماعيات : « العلم بلا دين عَدَم » ، ثم قال : « إذا كان العلم مفيدا للإنسان ثقافيا واجتماعيا ، فلن يقدر على ذلك دون معاونة الدين . فالدين محتاج إلى العلم ، لتتعلم منه خير الوسائل الموصلة إلى غاياته ، والعلم فى حاجة إلى الدين ، لىكى يستعمل الناس حقائقه القوية استعمالا صحيحا ، فالدين خير الوسائل لحل الناس على الحركة على هذه الطريقة » .

وأنا أضيف هنا حكمة (وجيزة) من حكم جوته ، قال : « وذو العلم والمعرفة يكون دينًا ؛ وإنما يجب التدين على من حُرهما » .

هكذا يرى كثير من العلماء الذين ذكرتُ أسماءهم بالمناسبات فى فصول مختلفة ، أن الدين حق ومفيد فى إصلاح البشرية ، وضرورى لا بد منه . وأما الماديون فليس فيهم رياضيون وفلسكيون وعلماء وحكماء اكتسبوا ثناء العالم وغبطتهم أمثال نيوتن ، وهاميلتون ، ودكارت ، ولاپلاس ، ولافوازىيه ، وباستور ، ولا شعراء عباقرة ، أمثال شكسبير هوجو ، وجوته ، فجميع هؤلاء يؤمنون بالله الواحد ، ويعتقدونه مقتنعين ، ولو أنهم لا يصدقون كل ما فى النصرانية^(٩٣) . وكل

ما للماديين من قوة ، ففي لسانهم وأقلامهم . فهم يقدرّون بمرائهم وجدلهم استغفال بعض أنصاف العلماء والسفهاء ، ممن يرغبون في التخلص من القيود الدينية .

وثالثاً — الحقيقة الدينية واحدة ؛ لأن غايات كل الأديان من الإيمان بالله والغيب والوحي ، وإحسان الإنسان إلى بني نوعه ، وتحلية الذات والجنان بمحاسن الأخلاق — كلها غاية واحدة . ومع ذلك نجد فروقا ، قليلة أو كثيرة ، بين عقائد الأديان الموجودة ، وقواعد أخلاقها . فمن أين ينشأ هذا ؟ هذه الاختلافات ليست في أصل الدين . وإنما نشأت من وقوع الانحراف بحسب البشرية ، عن القواعد والعقائد الدينية وأسسها ، مع مرور الزمن وطول الأمد^(٩٤) . إذا أنعمنا النظر في محيطنا ، شاهدنا التأثيرات الكيميائية والفيزيائية المختلفة تحدث تحولا في كل شيء ، وفي كل حال في هذه الدنيا . فمثلا تخرج قذيفة من فوهة مدفع أو نحوه ، مندفعاً على خط مستقيم ، ثم ما هي إلا لحظة حتى تحوّلها الجاذبية الأرضية ومقاومة الهواء ، من اتجاهها ، فتسقط على الأرض . وأثر هندسى معمارى خشبى أو حجري ، وآلات فنية أو حربية ، مصنوعة من الصلب تبلى وتتعفن وتصدأ بتأثير بعض الجراثيم والرطوبة والتأثيرات الجوية ، فيزول بسرعة متناسبة معكوسا مع ما يُبدّل من العناية للمحافظة عليه . كذلك الأحوال الفكرية ، فطبعى جدا أن تتأثر ببعض الإحساسات والميول والشهوات الثابتة في الجليّة البشرية ، فتتحرف عن الجادة بالصورة عينها .

لقد أنبأ القرآن بانحراف الأديان ، لطول الأمد ، وبلوغ الناس الهداية ببعث محمد صلى الله عليه وسلم ، ونزول كتابه عليه .

يقول المشكرون إنهم لا يعقلون استثناء الدين المحمدي من قانون الانقلاب الشامل لكل الأديان والأشياء . ولو أنعمنا النظر في الاختلافات المذهبية الخطيرة ، التي بدت في الإسلام ، والظنون والمبادئ الباطلة التي شاعت بين العوام ، دون العلم بأسبابها ، لوضح لنا تأثير القاعدة الكلية في ديننا أيضا ؛ ولكن كتاب

الإسلام ظل محفوظاً — في حفظ الله — وما في ذلك شك ، وقد أجمع الناس على ذلك . فلذلك يمكن تطهير العقائد الإسلامية وتخليصها من انحرافات والتحرّفات التي حلتّ بالعوام ، وبعض الفرق الزائفة . « ما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذي اختلفوا فيه ، وهُدًى ورحمة لقوم يؤمنون » — سورة النحل الآية ٦٤ . [انظر الخاتمة] . ثم إن عدم مغايرة الأسس الإسلامية للبرهنة العقلية والموضوعات العلمية ، وموافقتها لأحدث الآراء الفلسفية ، يُثبت صحة ديننا ، حتى لدى أشدّ المعقّدين ، وعُباد الظواهر .

ورابعا — فليكن شبابنا واثقين من أن الدين الإسلاميّ لم يكن قط مانعا من التّفنّن والتّقدم في هذه الدنيا . فقد فتح الإسلام مسالك جديدة للعلم والفلسفة ، بعد أن منيا بالتوقف بل بالنسيان ، فليست ثمة قاعدة ولا وجيزة إسلامية مانعة من النّقد المديوني ، وإن صدر بعض هذيان من أفواه بعض من يظهرون في زيّ العلماء ، كقولهم : « حذار من الاعتماد على الهندسة ، حتى لا تقع في دائرة تلك الوسوسة » ، إلا أنه لا يستند على أي أساس ديني . ولكن موضع التعجب الحقيقي هو عدم تقدير هذا الشاعر الظاهر ورعُه وتقواه من بيته المذكور ، لأثر هندسيّ عظيم كجامع السلمانية ، الذي دخله ليصلي فيه ، بعد أن أنشد ذلك البيت ! لقد بُنيت في أثناء حياة هذا الشاعر مَخَلّدات دينية قريبة من هذا الجامع ، وعُبدت طرق خارج المدينة ، وبُنيت جسور ، وصُنعت الأسلحة والسفن في مصانعنا ، بالأيدى التركية . فهل أهتم هذا المحترم وسأل عن تلك الآثار كيف أوجدت ؟ أكان يحسبها قد أنشئت بخنّة اليد ؟ !

ومما يؤسف له أن خراب دولتنا وهيئتنا الاجتماعية وانحطاطها وتشتتها ، قد وقع من أمثاله من الناصحين . ولكن ليست لهفوات كهذه علاقة بالدين . بل بعكس ذلك ، كان رأى علمائنا السابقين أمثال الغزالي « إن طلب ما تحتاج إليه الأمة من العلم فرض كفاية » .

وكذلك ليست في ديننا كلمة واحدة تنهى عن التمتع بالدنيا ، على شرط عدم التجاوز لحقوق الغير ، وعدم الخروج عن القواعد الخلقية . فهناك آيات كقوله تعالى : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » وقوله : « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » و « كلوا من رزق الله ، ولا تغمثوا فى الأرض مفسدين » . و « ولا تنس نصيبك من الدنيا » . وأحاديث كقوله عليه السلام : « من عَشِقَ وَعَفَ ثم مات مات شهيدا » وكقوله « الدنيا حُلوة من حُلوة خَضرة ، فمن أخذها بحقه بورك له فيها » . و « الدنيا خَضرة حُلوة من اكتسب فيها مالا من حِلِّه ، وأنفقَه فى حقِّه ، أنابه الله عليه ، وأوردَه جَنَّتَه » . فكلمها تبيح الملاذ الجسمانية والروحانية ، فى حدود العِفَّة والاستقامة ، وتحفز على التقدم الدينى .

وأما الأقوال الماثورة كالدنيا جيفة ، وطأبها كلب . فكلمات متغالية ، غير مستندة إلى أى أساس دينى . قد قالها السلف لتحذير الناس من المساوىء ، كالفسوق والحرص والطمع .

إن الأديان تأمر بالإحسان والإنفاق من جهة ، وبالتقناعة والإمساك من جهة أخرى ، وتنهى عن الحرص والطمع والخسَّة . وهذا حكمة بالغة . لأن الإنسان المضطر للحصول على أسباب معيشته من محيطه ، مجبول على الحرص والأنانية . فلو ترك أفراد البشر على حالهم ، لتجرءوا على ارتكاب ضروب من التغلب والظلم ، لجلب منافعهم على حساب الغير ، وكان هذا مبعث فتنه وفساد . وغاية الأديان الدنيوية منع المساوىء والفضائح ، وتأمين حقوق العباد ، واطمئنان الضمير ، وسلم العالم وصلاحه . فالتعاليم الدينية تحفز لا إلى زيادة الحرص والطمع المركوزين فى الفطرة البشرية ، بل إلى تعديلها وتليينها .

لا يوجد دين مروج للإسراف والكسل والإهمال ، مستحسن للفقر والدُّلَّة المترتبين عليها ، ومانع عن السعى والكسب ، ولا عن الثروة والغنى المترتب عليهما ،

كما يفهم المنكرون خطأ ، أو كما لا يريدون أن يفهموا . والواقع أننا قد ذكرنا بالمناسبة في مبحث « ورُسُلِهِ » زهدَ النبي في الدنيا حامدين شاكرين . إلا أن نبينا لم يحمل أمة الضمير الذي غلبه على نفسه . لقد تيسى وجوده كله ، وضجى بنفسه في سبيل واجبه المقدس ، ورفاهية أمة وسعادتها . بيد أن أمة قد بلغت بفضلها غاية العظمة والشوكة في زمن وجيز ، واكتسبت الثروة والرفاهية من كل الوجوه . فالفقر والضييق اللذان مُنِيتَ بهما الدولة العثمانية ، وربما ابتلى بهما كثير من بلاد المسلمين في العصور الأخيرة ، يجب ألا تحمل الأحكام الدينية مسئوليتها ، كما يزعم الملحدون ، وإنما يتحملها إرتكاب المنهيات الدينية ، والفساد الخلقي ، والمساوىء الاجتماعية ، كالحرص وحب النفس ، والطمع والرشوة ، والدسائس والظلم ، وما يترتب عليها من الفتن والفساد ، وفقدان الأمانة والأمن ، وكلها ناشئة من إهمال الأحكام الدينية .

وموجز الكلام أيها الشباب : إن أردتم التفتن والتقدم ، وإفادة أمتكم وبلادكم بما اكتسبتم من العلوم والفنون ، فكونوا دينيين ، ومتخلفين بالأخلاق الإسلامية الكريمة ، حتى تكتسبوا القوة المعنوية والمثانة القلبية ، اللتين يمنحهما الدين ، لتكونوا في أعمالكم ناجحين .

تلخيص التلخيص :

أستخرج خلاصة الخلاصة من تمهيداتي ، فأقول مكررا :

أولا — الدين حق .

وثانيا — الدين نافع في الأمور الدنيوية ، ولازم لها .

وثالثا — الحقيقة الدينية واحدة لا تتغير . والاختلافات التي بين الأديان

نشأت من الانحراف عن أساس الدين ، بمرور الزمان . ولما كان القرآن وحده لم

يمسسه التغير ، فالحقيقة الدينية القديمة الثابتة ، هي الحقيقة الإسلامية . وعدم تعارض

المقائد الإسلامية والأمور العقلية والمكتشفات العلمية ، مؤيد لهذه القضية .

ورابعا — إن الاتباع لبعض تحريصات الغربيين ومفترياتهم ، وبعض المقالات الفارغة مما يكتبه لابسوا زى العلماء ، والحكم بأن الدين مانع الرقى : خطأ كبير . والدين الإسلامى على العكس من ذلك ، مشوق حافز إلى التفتن والتقدم . وقد ثبتت هذه القضية وتأيدت بالآيات الكريمة ، والأحاديث النبوية الشريفة ، والحوادث التاريخية . فاستمسك شعبنا بحبل الإسلام المتين ، مما تقتضيه مصالحه الشخصية ، ومنافعه القومية .

الباب الرابع

الاختلافات المذهبية

إنى أرى أن الاختلافات المذهبية ، أو على الأقل الخصومات العنيفة الناجمة عنها ، قد تولدت من عدم تقدير العظمة والقدرة الإلهية حق قدرها . كانت هذه المناقشات في الأصل مما لا ينبغي أن يتجاوز حدود المناظرات المنطقية والعلمية والفنية ، ولكننا أفحَمْنَا اسم الله عز وجل في مناقشاتنا التي لا معنى لها ، نحاول كل فريق منا إسناد الكفر والإلحاد إلى الفريق الآخر ، قتلنا الاختلاف البدائي خصومة دينية لا نهداً .

فاختلافات الجَهْمِيَّة والمُعْتَزِلَةِ ، نشأت في أصلها عن التعبير بأن « العبد خالق لفعله » بدل التعبير بأنه « فاعل لفعله » ، وتصور الاستقلال التام في الإرادة البشرية . وهذه العقيدة خطأ كانت أو صواباً ، صالحة لتكون موضوع مناقشة علمية ، يستطيع فيها الطرفان مناقضة بعضهما بعضاً ونقده ، بل واستجهاه واستحقاقه ، ولكن لم تقف المسألة مع الأسف عند هذا الحد ، فقالت القَدَرِيَّة : « إن عدم القول بعقيدتنا يكون إسناد الظلم إلى الله من عذاب الآخرة » . وقال معارضوهم : « إنكم تنكرون ما علينا من قدرة التصرف والإرادة الإلهية الكلية ، وهذا كفر » . فنشأ أولاً هذا الخلاف ، ثم توسَّع مع مرور الزمن واشتد ، حتى تولدت منه مبادئ غريبة غير معقولة . وسالكو مذهب الجبرية يقولون بعكس ذلك ، فهم يبالغون في سلب القدرة والإرادة . عن الإنسان . وليس هذا حَسْبُ ، بل تورط غلاة الجبرية في بعض عقائد سخيفة ، ككون الله مجبرا البشر على ارتكاب أعمال قبيحة ، وهم فوق ذلك يكفِّرون المذاهب الأخرى ، زاعمين الشرك بالله في إسناد القدرة والإرادة للإنسان ، ويطهمهم المعارضون بأنهم يسندون الظلم إلى الله .

ولمّا كان أصل الاختلاف ومنشؤه من إفراطهم في محبة علي بن أبي طالب ، ومن مسألة الخلافة ، أى أنه مرتبط بالأمور الدنيوية والسياسية ، فكان من الممكن المناقشة في كيفية صواب تفويض الخلافة إلى علي كرم الله وجهه أو خطئه ، وإيراد الأدلة المتقابلة لكلا الطرفين ونقدّها — في حدود الأدب بالطبع — . ولكن فريقاً من العلماء السنيين ينسون أن مناظرهم ذوى الرأى في هذه المسألة كانوا أيضاً من الناس ، فلا يكتفون بالدفاع عنهم في حدود العقل والمنطق ، بأنهم كانوا مصيبين في اجتهادهم ، بل لا يميزون بأدنى ملاحظة في هذا الباب ، ويعُدّون أدنى الاعتراض عداوة غليظة . ثم إن الشيعة الذين زادوا شدة وعنفاً بتحريض بعض المناقشين ، وحث بعض الرؤساء الطالبين أغراضاً ومطامع دنيوية ، ظهرت فيهم ضروب من الغلاة ، فكفّر بعضهم الصحابة الكرام ، لإبداء آرائهم خلاف رغبة الرسول ، ثم تقدموا درجة درجة فخطّوا الرسول لعدم توصيته صراحة ، وخطّوا الله سبحانه وتعالى لعونه على ارتكاب مثل هذا الظلم ! وذهب بعضهم إلى تأليه علي ، وآخذ به بعض منهم على تنازله بسهولة عن حقه في الخلافة ، بعد وفاة الرسول ، وبيعته لأسلافه العظام . وآخذ الخوارج على رضاه بالتحكيم بعد معركة صفّين . وأعقب هذه المنازعات والمناقشات تكفير من الجهتين ، تولدت منه عداوةٌ لا تهدأ ولا تسكن .

وغرق بعض الفرق في بحر من المناقشات ، حول كون الله متكلماً أو غير متكلّم ، وكون كلامه قديماً أو حادثاً ؛ وقد حاول بعضهم تشبيهه بالبشر — حاشا لله — ودقق بعضهم في صفات الله الثبوتية ، فأقر مثلاً بكونه خالقاً وقادراً ، وأنكر كونه حياً وعالماً !

فلنفكر منصفين ؛ إذا برهننا على عظمة الله وقدرته بما نشاهد من آثار الخلقة وحصل الإطمئنان ، أفلا يكون من العبث محاولة الكشف عن كُنْهه وذاته ومراده بمباحثات وأقيسة منطقية ؟ وكيف ترد إلى الأذهان ألفاظ وآراء متضمنة شوائب

العجز والظلم والذهول في حق الله ؟

إن الذين وقعوا في تلك الأوهام هم أناس ناقصو العلم ، ضيقو القريحة ، يتحدثون عن عظمة الله وقدرته وأزليته تقليدا كاللبغاء ، دون أن يحصلوا على فكرة صحيحة ، بل على فكرة بسيطة عن تلك العظمة والقدرة ، فيقيسون الله بأنفسهم كمفرد منهم يحول في أطراف الأرض ، مشغولا دائما بأفعال العباد وحركاتهم .

لقد التزمت في أوائل هذا الكتاب التزويدَ بمعلومات ، وقدمت أعدادا وأرقاما حوت الأصغر والأكبر غير المتناهيين . وإذا فكر فيها الإنسان وتذكر قليلا ، فلا يمكن تأويل الإصرار عن علم ودراية ، على مثل هذه المبادئ الواهية ، بغير الكفر .

إن رجلا موخدا بالله بإخلاص تام ، وحامدا له ، إذا زار قبر رجل قد اشتهر في حياته بالصالح والتقوى والخدمات الإنسانية ، فليس في هذه الزيارة شيء من إشراك العطاء بالله ، ولن يكون أبدا . بل بعكس ذلك ، إن تصوّر مثل هذه الحال في حق الغير وإسنادها إليه ، فيه ما يبيّن عن أن الله تعالى سهل الإشراك به ، فهو إثم عظيم .

يخيل إلى أن بعض علماء السلف ، بدل أن يأخذوا الأدلة والبراهين في هذه المباحث ، عن آثار الخلقة ، وطبيعة الكائنات ، حاولوا استخراج معانٍ مختلفة من العبث بالأقيسة المنطقية ، والتدقيقات النحوية واللغوية ، من بعض عبارات ، فارتكبوا الخطأ والضلال .

إن علم المنطق يرشد إلى طريق سليم مستحسن ، وأصول للمناظرة . لقد اخترعه الفكر البشري لهذه الغاية ، وأفاد واضعوه ، قدماء حكماء اليونان ، منه بحسب حكم زمانهم . ولكن وجد من بينهم من استخدم هذا العلم وهذه الأصول أداة للفسطة كذلك ، وأما مقلدوهم المتأخرون فبالرغم من أنهم حبسوا

أذهانهم مدة مديدة في حدود صغرى هذا العلم وكبراه ، أرادوا العموم في أسرار بحر الخلقة ، فضلوا ضلالا مبينا ، وافترقت الفرق الضالة عن السواد الأعظم .
بعد نحو قرنين من تاريخ حدوث هذه المناقشات والمجادلات في المراكز العلمية الإسلامية ، كبغداد وغيرها ، كانت الحالة الفكرية نفسها تسود عالم النصرانية في أوروبا . فقد أورد المؤرخ الشهير سنيوبوس المثلين الآتين عن موضوع المناقشات المنطقية في ذلك العهد . ها : « هل يقدر الله على علم بشيء أكثر مما يعلم ؟ » أو « هل كانت جروح عيسى لا تزال باقية بعد الإحياء ؟ » وقال واصفا مناطق ذلك الزمان بأنهم « كانوا يتجادلون ، ولكنهم لم يكونوا يشاهدون ولا يتأملون » . *“ Ils raisonnaient ; ”* *“ mais ils n’observaient pas ”* .
فالمنطق الذى دفع الناس إلى ما نشاهد اليوم من أسلوب التفكير والبحث والتقدم العظيم ، كان فيما مضى سببا لاختلافات غريبة ، كالتى أوردناها ، فى كل أرجاء العالم^(٩٤) . ولكن ما الحيلة ؟ فهذا هو القانون الطبيعى . فتطوّر البشر يتحقق دائما بالتوجّات ، وبالأخطا والاعتلاء .

كل فرقة من الفرق الإسلامية تجعل نفسها فى مقام الوكيله عن الله سبحانه وتعالى ، فى تلك المجادلات التى تقوم حول ذات الله وكلامه القديم ، ورسوله الكريم ، فتتهم مخالفها بالكفر والإلحاد ، بل تحاول التنكيل بها ماديا ، فتصاب الجامعة الإسلامية بالتفرق والنفاق ، ويضعف المسلمون جميعا .
إنى لا أكتفى بجعل علماء الفرق المخالفة وأركانها وحدهم مسئولين عن هذه الحالة ، بل أتجرأ فأجعل بعض علماء أهل السنة أيضا مسئولين عنها . لأنهم هم أيضا قاموا بحركات عنيفة ضد مخالفهم ، فأغلقوا أبواب الائتلاف ، دون أن يتوسّلوا بوسائل رفع النفاق ، وأكّنوا فى أنفسهم حتى اليوم ، ما أيقظته المجادلات اللسانية والفعلية من سوء الظن والحقّ ، فى أثناء ظهور الفرق المخالفة ، على حين أن الغليان الحادث فى أثناء الجدال ، بطبيعة الحال ، يهدأ قليلا قليلا ، فيقل الغلاة مع الزمن

ويزيد عدد المعتدلين والمنصفين . فلهذا أظن أن البحث في سير وآراء من يقال عنهم رجال الفرق الضالة ، والسعى لتأليف البين كما سنحت الفرصة بذلك ، ألزم عقلاً وسياسة ، وأوفق للأحكام الشرعية^(٩٦) . ما دمنا نؤمن بأن رسولنا محمداً صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء ، وأنه لا دين بعد دينه ، فليس لأهل القبلة المصدّقين بالله قلباً وروحاً ، حق تكفير بعضهم بعضاً من أجل الاجتهاد والمذهب . « ولا تطرُد الذين يذعون ربهم بالغداوة والعشى يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء » — سورة الانعام ، الآية ٥٠ .

العناد والتمادى فى التكفير غير جائز ، وإذا اقترن العناد بالتعمّد فهو كفر محض . فيجب على كل فرد مسلم ، ولا سيما العلماء ، إقناع المعارضين بالأقوال اللينة ، والأدلة العقلية والنقلية ، وإرشادهم حتى يدخلوا دائرة الوفاق والوحدة : « وجادلهم بالتى هى أحسن » .

إن الله سبحانه وتعالى لن يرضى على عبد ساء مخطئ بعفوه ورحمته ، وشفقة الرسول ومحبيه ، من أجل عقيدة فرعية — ولو كانت خاطئة — اعتقدها بنية خالصة ، دون غرض مادى .

لأن الله ناظر إلى قلوب عباده ، وعالم بخفايا صدورهم . ودوام هذه الاختلافات بشدتها وعنفها ، يعرض ديننا وجامعتنا للضعف مادية ومعنى . فلذا يجب على أرباب الأمة البحث عن وسيلة لإزالة هذه الاختلافات ، مذللين كل صعوبة فى هذا الباب .

خاتمة

إنّ ما أرى اتخاذه من التدابير للنجاة من التفرقة أمّ المصائب كلها ، أن يُعقد مؤتمر إسلامي من أكابر علماء النحل المختلفة ، لدرس المسائل المختلف فيها في هذا المؤتمر ، وحلّها ، وإرجاع عقائدنا إلى صفائها الأول ، دون تضييع وقت ، ثم القضاء على هذا الخصام والنفاق برضا الطرفين ولو عن إبقاء بعض ما يمكن إبقاؤه من الاختلافات في المسائل الجزئية والفرعية .

لقد أخبر الشارع بظهور مرشد مجدد لهذا الدين في كل قرن ، وبوجود مسوّغٍ للتعديل في الأحكام والأعمال بحسب ضرورات الزمان ؛ فيجب أن تكون لهذا العصر كذلك هيئة إرشادية . كان لتاريخ الإسلام عهد المجتهدين . وفي نفس ذلك العهد افترق كثير من الفرق عن أهل السنة والجماعة . واعترف الخلفاء والسلاطين بأربعة من المذاهب والاجتهادات ، بقصد الوقوف أمام تيار هذه التفرقة ، على ما أظن ، ثم أقفلوا باب الاجتهاد إداريا — إن جاز هذا التعبير — بيد أن مثل هذا التدبير والتحديد منافي لنفس الأمر ، ولما في روح الإسلام من حرية^(٩٧) ، ومن جهة أخرى ، إن السماح لكل عالم بالاجتهاد — ولا سيما في العقائد — يستلزم تعدد الاختلاف والتفرقة واشتدادها . فلو انعقد المؤتمر الإسلامي المذكور آنفا ، واتخذ قراراته العامة ، فلا يخلو من فائدة وجود مجلس دائم ، مؤلف من أكابر علماء المسلمين ، على أن يجتمع بضعة أشهر في كل عام ، في مكان يُختار له في دار الخلافة ، أو في بلد معتدل الجو بالحجاز ، كالطائف مثلا ، ويكون من واجبات هذا المجلس الأساسية الرد على الأسئلة والاستيضاحات الواردة من أنحاء مختلفة ، وإصدار فتاوى ، ووقاية الأمور الاعتقادية مما حل بها من الأباطيل ، واتخاذ ما يقتضى انتشار الإسلام من التدابير الدينية والمعنوية ، وغيرها من الأمور

المهمة العامة ، دون أية علاقة بالأمور السياسية العالمية .

قرأ بعض الأفاضل الأجلاء مسودة كتابي هذا منذ عهد بعيد فأبدوا تخوفهم من أن المناقشات التي ستدور في المؤتمر الإسلامي العام ، أو في المجلس الدائم ، سوف تسبب اشتداد النفاق . ولكن إذا ظل سالكو المذاهب المختلفة في حنق مستمر — ولو مع السكون — فإن خصومنا سوف ينهضون للاستفادة من هذه الحالة ، وستلهب جمره الفساد المدفونة في الرماد نار القتال بريح محرقة تهب من جهة ما ، فتهدد مبنى الإسلام ، وتذهب به . والتاريخ بل الواقع أيضا يدلان على ذلك . فالصدمات الماضية التي أصابتنا من جراء ذلك ، قد أوقعت بجامعتنا ضعفا وخرابا إلى حد لم يبق في بنيتنا من القدرة والصلابة ما يكفي لمقاومة تكررها . فلذا يجب البحث عن وسائل الصلح والسلم على أي حال . وهذا يقتضي الاجتماع وال مشاور والمذاكرة .

يفكر أولئك الأفاضل الكرام ، الذين سردت احترازم آفغا ، بأن تعصب علمائنا المعروفين بأنهم عالميون إلى حد ما ومكابرتهم قد بلغا درجة تورث اليأس والقنوط ؛ فيقتضى أن يكون آراء علماء الدين الناشئين في بيئات أضيق في صحارى آسيا وإفريقية وجبالهما أضيق من هذا . فلن يمكن المباحثات العلمية والفنية مع هذا الضيق الفكري . وكل مناقشة أو مناظرة تكون سببا للتباغض وإيقاظ المعارضة ، وخاصة إذا اختلط بهذه الهيئات أعضاء ممن اجتذبهم الخارج ، فإن المصائب تتضاعف .

ولكن حكما صادرا هنا (يعني إستانبول) قياسا على علماء البيئة القريبة ، لا يصدق في اجتهادي على العالم الإسلامي جميعه . وإذا أنعمنا النظر في الماضي وفي الحاضر ثبتت صحة قولي . فمثلا كان نادر شاه قد شرع في رفع الخلاف الذي بين السنيين وبين الشيعة ، وإزالته بإخلاص تام . وقد روي تواترا أن مسئولية

علمائنا ورجالنا السياسيين أكثر من مسئولية مجتهدى الشيعة ، فى إخفاق مسعاه فى هذا الباب .

أما اتفاقية اليمن التى انتهت إلى التوفيق فى الزمن الأخير ، فكان موقف علماء الزيدية فيها أكثر تسامحا وملاءمة من موقف العلماء السنيين . لقد أعلن سمو الإمام يحيى حميد الدين من تلقاء نفسه ، وجوب قتل من يسب الشيخين عقب الاتفاق السياسى ، فرفع بهذه الصورة الخلاف الأساسى المذهبى بين أهل السنة وبين غلاة الزيدية . فهذا المثال وأمثاله تدل على أن عدم الثقة بعلماء سائر البلاد والأمم الإسلامية ، ليس فى موضعه . بيد أنه يشترط الإحسان فى اختيار العلماء الممثلين للأمم والنحل المختلفة فى ذلك المجلس . وفى رأى أنه يجب أن يكون الاتجاه لاختيار المندوبين المخلصين الأتقياء أكثر من أن يكونوا من العلماء العظام .

حضر إلى صنعاء فى أثناء إبرام اتفاقية اليمن ، سيدان من المتعلمين فى مصر ، أحدهما من صعدة ، والآخر من تهامة . فسواء سلوكهما وسلوك غيرهما من العلماء الذين كانوا فى صور مختلفة فى إستانبول أو فى جهات أخرى من الممالك العثمانية ، والبلاد الأجنبية ، كان مشكوكا فى إخلاصه . على حين لم يكن السيد قاسم العزى والقاضى حسين العمري ، اللذان عملا على الائتلاف قلبا وقالبا لوجه الله ، ما كانا قد تعمقا فى علم غير الفقه وبعض العلوم الدينية ، ولم يفارقا الجبال اليمانية — فيما عدا سفرهما إلى الحج — وكانا من أرباب الزهد والتقوى ، بل من أرباب التعصب والمثابة ، إلى حد تجنب الاحتكاك برجال الحكومة العثمانية قبل ذلك التاريخ . فهما قد عملا بكمال الإخلاص والاستقامة على إبرام الاتفاقية التى رأياها مفيدة للجامعة الإسلامية .

وأقص حادثا آخر مؤلما ومؤيدا لهذا الرأى . وذلك أنه كان القاضى جفمان مفتى صنعاء من أفاضل علماء الزيدية ، فريدا فى الفقه والكلام والأدب العربى .

وقد صادق الدولة العثمانية ، وقام بمواظف ونشرات شديدة ضد الأئمة المناوئين للدولة العثمانية ، لا اعتقاده أنها هى الدولة الإسلامية العظمى فى ذلك العهد . وكان كل ذلك بلا عوض مادى . حتى إذا سقطت صنعاء فى يد الإمام يحيى سنة ١٣٢٣ أعدم (غفر الله لها) ^(٩٨) فكيفية استشهاده شاهد ، ودليل مخلص على قوة ارتباطه بالوحدة الإسلامية ، وبراءته من التعصب المذهبى ، وقد نشأ على مذهب الزيدية ومبادئها ، ولم يخرج من اليمن قط .

وأضيف هنا استطرادا أنى سمعت كثيرين ممن يؤثق بكلامهم ، يقولون إنه كان يوصى طلبته دائما بأن يصرّحوا بشبّهاتهم ، ويستكنهوها ، ويرد على أسئلتهم بأجوبة فى حدود النقل والعقل والمنطق ، رحمه الله رحمة واسعة .

مثال آخر : سيد فى الخامسة والعشرين إلى ثلاثين من عمره ، خرج لأول مرة من مسقط رأسه « حاشد » ، وقدم إلى صنعاء بقصد المعالجة ، وكان ذلك بعد إبرام المعاهدة ، واجتذب القلوب بعلمه وذكائه ، وبصفاء طويته ، وخلوص نيته ، مما تجلّى فى معاملاته ومحادثاته البريئة من قيود المدنية المرائية ، وحدثت بينى وبينه صلة صداقة خالصة . وقد سمعت أنه معتاد التردد على المعسكر فى أوقات المناوبة ، لسماع الموسيقى ، فدعوته يوما ، وأدرت الحاكى (الفونوجراف) الذى أعجب به كثيرا ، وطلب إلى تكراره مرات . ومن الغريب أنه كان يؤثر أصوات موسيقى فاجنر ، التى قل أن يُتنبه لها فى إستانبول . فقلت له يوما مازحا : « أليست الموسيقى حراما ؟ إنى أراك مولعا بها ! » . فقال « بلى ، يجوز أن تكون الموسيقى حراما لمن يتوسل بها من الجهال إلى سائر الحرّّمات ؛ أما من يسمع مثل هذه النغمات والأصوات المؤثرة ، ويتأثر بها ، فلا يكون آثما بل يكون مأجورا » ، فلنقارن الآن بين شاب عالم عربى من « حاشد » ، الذى نعهده بلدا قاصيا فى صحراء بلاد العرب ، وبين واعظنا الشهير للرحوم الشيخ لاز الخير بالدنيا !

وإنى أحكم بدلالة مثل هذه المشاهدات بأنه لا يحدث كثيرا ما يُتوهم فى

علماء سائر الشعوب من التهرب من الاتفاق في الاجتماع الذي أراه ضروريا .
ومع ذلك ، ليس من الضروري أن يُفهم من كلامي هذا أنى أرى دعوة
بعض الشعوب الصغيرة الزائفة الجاهلة ، كاليزيدية والنصيرية ، للاشتراك في المؤتمر
الإسلامي ؛ فإن أمثال تلك الفرق تُدفع إلى الهداية تدريجيا ، بتدابير الحكومات
الإسلامية المحيطة بها وهمها . ومن البديهي أن يكون هذا المؤتمر ومجلسه مؤلفين
من العلماء المختارين من الملل والنحل الكبيرة ، كاليزيدية والإمامية (الاثنى
عشرية) والإسماعيلية .

كان ينبغي لى أن أتجنب الحديث عن التفاصيل المتعلقة بالإجراء والتنفيذ ،
وأنا أقترح القيام بعمل عام كهذا ، بيد أنى رأيت ضرورة لكتابة بعض أسطر
لتوضيح المرام .

ومن رأى أن يكون انعقاد هذا المؤتمر على مرتين ، وفي شكلين . فأما المرة
الأولى فيجتمع علماء المذاهب الأربعة السنية ، ومعهم الوهابيون التابعون للمذهب
الحنبلى ، ويبحثون أولا في الزوائد والأباطيل التى صارت فى حكم المعتقدات ، فى
جهات مختلفة من العالم الإسلامى ، ويرجعون بالعقائد إلى بساطتها الأولى ، وسلامتها
الأصلية ، بَطْى الأباطيل وحذفها ؛ ثم يبحثون فى المسائل المختلف فيها ، والمعتز
عليها من الأحكام ، فيحلونها توفيقا لأقوال السلف السابقين ، واجتهاداتهم ،
وضرورات العصر الحالى وترقياته .

وثانيا يبحث فى العقائد المردودة للنحل التى تُعد من الفرق الضالة ، فُثِبَتْ
مالا يمكن الإقرار به ، وما يمكن الإقرار ببعضه عينا ، وبعضه مُعدّلا مع بعض
التساهل ، وفى درجة التعديلات لعقائد تلك الفرق ، حتى تكون صالحة لقبولها
ضمن الجامعة الإسلامية .

وأحسن بحاجة إلى إيراد مثال آخر لإيضاح رأى ، وإزالة ما يلاحظ من

الإيهام في الفقرة الأخيرة : فأكبر ما ينفنا وبين الشيعة من الخلاف هو سبهم بعض أصحاب الرسول ، وبعضهم أيام . وإذا حُلَّت هذه المسألة ، فالمسائل المختلف فيها تنزل إلى منزلة المناقشات التاريخية العادية . وإذا دامت إطالة اللسان بحال من الأحوال في حق الأصحاب الأربعة المختارين ، والعشرة المشرة ومقرّبي الرسول ومقرّباته ، الذين ثبتت فضائلهم ، وعلو مراتبهم بكثير من الروايات الصحيحة ، والوقائع المهمة ، فلن يمكن الوصول إلى اتفاق بالطبع . ولكن إذا كان بعض علمائنا يجمعون لفظ «أصحاب» الوارد في «من أبغض أصحابي أبغضني» شاملا لكل من رأى النبي وصاحبه ، في حين يأخذه علماء الشيعة بمعنى الصديق المستعمل اليوم أيضا عند العرب ، ويُعدّون من قام منهم بما يخالف شيمة الصداقة ، أنهم ليسوا بأصحاب ، ويبغضونهم ، فلا بأس بأن يقال لهم «إنا لا نشارككم في رأيكم هذا ، غير أننا لا نتدخل في شئونكم أيضا» . إن عقلى ليعجز عن إدراك العناد في إدامة النفاق بين المسلمين ، حرصا على الدفاع عن بعض ذوى شخصيات سياسية تاريخية خلوا منذ ثلاثة عشر قرنا ، أو لإضافة بعض ألقاب التعظيم إلى أسمائهم .

إذا تم بحث أمثال هذه المسائل والمساحات ، ونوقشت في الاجتماع الأول ، واتخذت القرارات ، فيجب دعوة علماء الفرق المختلفة لعقد مؤتمر آخر ، والقيام بجمعين بمباحثات ومذاكرات باعتدال تام ، في البحث عن وسائل حل الاختلافات وتسويتها ، ورفع الخصومات وإزالتها . فللغداهب والنحل الداخلة في دائرة الصلاح والانفاق بهذه الصورة ، تعين الأعضاء للمجلس الدائم .

كنت سوّدت هذه الأسطر منذ خمسة أعوام أو ستة . حتى إذا مضت مدة قليلة ، اجتمع بالحجاز مندوبون من الأقطار الإسلامية المختلفة . ولكن لم ترشح في جهاتنا روايات صريحة واضحة لا عن مقاصد هذا الاجتماع ، ولا عن نتائج مباحثاته ؛ وكان موضوع مذاكراته محدودا على كل حال ، ولم يكن له نفع كبير . ومع ذلك

لم يقع والله الحمد ما سرى في الأوهام من الخاوف .

ويجب السعى كذلك لعقد مؤتمرات كاللدى ذكرته ، قادرة على إجراء
مباحثات ومناقشات حول ما ذكرت من المواضيع . وقد أظهر الجامع الأزهر
مرات عديدة همه وجلدا في سبيل المحافظة على الأحكام الدينية في الزمن الأخير .
وقامت الجمعية الإسلامية الهندية بما هو خليف بالشكر والثناء . فعلى عاتق هذين
المؤسسين العالين ، يقع أمر توحيد قلوب المسلمين بما وصفته أيضا ، لأن الحنيفية
البيضاء التي تيمت منذ عهد ، بعيد صارت وحيدة بالمرة .

كلمة أخيرة

إنى أفكر فى أن نقطتين من كتابى هذا قد تثيران الاعتراض وسوء الظن .
أخشى أن توقظ نصائحي الخالصة فى أمر الاتفاق فى الفرق الإسلامية المختلفة ،
ولاسيما الشيعة ، الهجيات والمفتريات القديمة ، التى تتجت عن تمسكى مصرًا بأمر
إصلاح البين مع الإمام يحيى باليمن . فقد حدث إذ ذاك أن لم يكتف المعارضون
بالاعتراضات المادية والسياسية ، بل وجد من يتحدثون فى أروقة مجلس النواب
والشيوخ بأنى أميل إلى الزيديين لكونى بكتاشيا أبا عن جد !

والحق أنى ولدت ونشأت على مذهب الإمام أبى حنيفة ، ولم أسلك طريقة
من الطرق الصوفية . حتى إذا وصلت إلى نتيجة تتبعانى الأخيرة ، آمنت مطمئنا
بصفاء الدين المبين الإسلامى فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم .

ومن المحتمل جدا أن يكون أجدادى الذين كانوا محترفين الوغاء والغزو ، قد
انتموا إلى الطريقة البكتاشية ، حين كانت لهذه الطريقة الصفة العسكرية
الخاصة^(٩٩) . بيد أن أبى وأولياء أمورى الذين تربيت فى كنفهم وعظفهم بعد
وفاته ، كانوا سُنين أتقياء ، ولا سيما عمى ، فإنه كان نقشبنديا خالديا .

فالملاحظات التى سردها فى كتابى ، ليست منتقلة إلى لا عن طريق الوراثة
ولا عن طريق تربيتى الأولية ، ولا عن طريق نظريات علم الكلام ؛ وإنما تولدت
من قراءتى وتبعاتى العلمية والتاريخية ، وتجاربى الشخصية ومشاهداتى ، ومن
الآراء الخاصة فى السياسة الدينية — لو صحَّ التعبير — .

إنى أعتقد أن حب بعض الأشخاص التاريخيين وبغضهم ، لا يجوز أن يكون
لهما قيمة معنوية قادرة على أن تقيم ثلاثمائة مليون من النفوس بعضها على بعض ،
بعد ألف وثلاثمائة عام . والعاقِل يتجنب المعاندة فى مثل هذه الدعوى الواهية . ومن
أحب دينه أراد اعتلاء كلمته ؛ وهذه الإرادة قوة ، والقوة تحدث بالوحدة وتقوم عليها .

وكذلك يحتمل أن آرائى الحرة التى ذكرتها فى مبحث معاناة العلماء ، قد لا يستسيغها بعض المتعصبين ، ولا يستطيع الإحاطة بها . ولكن يجب على من يستمسك بدينه ، أن يعتبر بسعة قريحة فخر الأنبياء وبعد نظره ، وأن يتمثل سيرته فى الحرية والسماح . ولا ينبغي له أن يغمض عينه عن نور النقد والمباحثة . فالرسول الأكرم الذى قال : « الحكمة ضالة المؤمن أخذها حيث وجدها » وقال : « أطلبوا العلم ولو بالصين » ، إنما أراد بذلك إجلال العلوم والفنون التى هى نتيجة الذكاء .

من واجب العلماء ، بل من واجب جميع الأمة ، تقوية جامعهم المذهبية وتوسيعها ؟ فلذا يجب إرشاد الناس إلى تلك الجامعة بحسب استعداد الزمان ، ور بطهم بها . ولا يكون هذا مع الغفلة والتعلق بالكتب القديمة وحدها ، بل يقتضى تتبع الترقيات العلمية وتطوراتها ، وتوسيع أفق الأنظار والأفكار . إني لست مدعيا بأن كل ما ذكرته فى كتابى هذا من الآراء صحيح بلا ريب . وينبغى للعلماء كذلك ألا يحكموا بيطلائها كلها قبل التحقيق .

أما كلامى ونقدى لما نلاقى من المشاكل فى الاندماج فى عالم المدنية ، بسبب تعلقنا الشديد ببعض العادات والتقاليد والأزياء التى لا صلة لها بالأسس الدينية ، فقد يوجد — نظرا إلى ما حدث فى تركيا من المقررات والإجراءات بعد كتابة تلك السطور — من يفهمه فى صورة ميلى ومسايرتى لجرى الأفكار الحديثة . ولكن إذا قرئ كتابى بتدقيق وإمعان ، تبين توجيه الاعتراضات إلى خصوص العلماء ، أكثر من توجيهها إليهم ، والإعراض عن آراء ذوى السلطة واتباعهم . لقد اتقيت الإفراط والتفريط طول عمرى ما استطاع عقلى فهمه . واستمسكت بحبل الاعتدال باخلاص تام وقلب سليم ، ولكنى لم أستطع إرضاء جهة ما ، فكنت كما يقال : « المخلصون على خطر عظيم ! » وإني آمل من اللطف الإلهى أن ييسر لى الدخول فى زمرة « من أتى الله بقلب سليم » .

هوامش كتاب الدين والعلم

(١) ص ١ : لفظ « اللاديني » ، وضعه في اللغة التركية المرحوم ضيا كوك آلب ، مقابلاً لكلمة (Laïque) الفرنسية . وكلمة لا ييك مشتقة من اللغة اللاتينية ، ومعناها غير متخصص في علم ومسلك . ويستعملها الألمان بمعنى غير متخصص بشكل « لاي » . وخصص الفرنسيون إطلاقها بالذي لم يدخل في جماعة الرهبان . فلو ترجمت كلمة (Laïque) بكلمة « لارهبانية » بدلا من « لا دينية » ، كانت أصح ، وهذا معروف في ديننا تصديقا بالأثر « لارهبانية في الإسلام » ، فلا يلزم من وصف الإنسان « لا ييك » أن يكون كافرا . وهذا الغلط في الترجمة كان يدفع الشبان إلى الانهماك في الإنكار بلا شبهة .

(٢) ص ٧ : ليس المراد من اليقين هنا إدراك أصل الشيء ، أو التيقن من ماهية الخلق ؛ فإن موضوع هذا الكتاب إثبات أن سر الخلق لا يمكن إدراكه .

(٣) ص ٨ : إن ما فهمته من بيان النسبيين هو أن سرعة الضوء أعظم سرعة يمكن قياسها ، وهذا لا يدل على أن ليس في العالم سرعة أكبر منها ، بل على حساب الرياضي الكبير « لا پلاس » أن سرعة الجاذبية أضعاف سرعة الضوء بسبعة ملايين مرة .

(٤) ص ٨ : وكيفية السمع أيضاً كالرؤية ، فالأصوات تؤثر في السامعة من مسافة على حسب شدتها . وكلما طالت المسافة ضعف تأثيرها إلى ألا يمكن استماعها ولو بواسطة « مجافون » و « ميكروفون » . ومن الممكن زيادة مسافة الاستماع ، لأن قوة الصوت تتناقص بحسب مربع المسافة ؛ فالصوت الذي يسمع من مسافة متر بوضوح ، يضعف سماعه من مسافة عشرة أمتار مئة مرة . الخ . وهذه الآلات كذلك لا تنفد . أريد أن أذكر استطرادا الكيفية الآتية :

إن التليفون والراديو اللذين اخترعا أخيراً ، يوصلان الكلام من مسيرة آلاف الكيلومترات ، ويبدو ظاهراً أنهما مخالفان لقوانين انتشار الصوت . فهذا الحادث يقع لأن سيالا آخر كهربائياً لا ينقل الصوت ، بل يحدث في مسافة بعيدة ، اهتزازات جوية ، يحدث ببعضها الصوت عندنا . فعلى هذا لا يكون مخالفاً لقانون انتشار الصوت . فُتستنتج من هذا أن ما تشاهد من التغيرات في قوانين الطبيعة أحياناً ، وفي جملتها المعجزات ، تحدث بتوسط قوى طبيعية أخرى لا نعرفها ، فلا وجه لردّها وإنكارها جملة ، وهذه القوى مجهولة لنا ، مع أنها مكنونة في الطبيعة العظمى ، وليس بمستبعد تأثيرها في حين ما ، وفي صورة ما . ولهذا ليس إنكار كل ما يسمع من إدعاء ، بأنه يخالف لقوانين الطبيعة ، بدون بحث وتدقيق ، من العلم والعرفان ، بل هو من الجهل والطفيلان .

(٥) ص ٩ : يتضح من الأمثلة المتقدمة أن كروية الأرض ، وطول موجة الضوء وسرعتها ، لا تسمح بالرؤية والرصد إلا إلى حد ما .

(٦) ص ١٠ : قد يبدو للقارئ تناقض بين شروعي في هذا التأليف ، واعترافي هذا ، ولكن الإنسان مجبول على أن يدافع عن أمر يحسبه حقاً ، على قدر طاقته . فقد ذهب أدراج الرياح ما سبق لي من خدمات قمت بها في الأسلاك الذي نشأت فيه من صغرى . ولم يبق لي ما أخره لمشيبي إلا حبيبة وجداني ، وهي عقيدتي الدينية . ولما رأيته قد أشرفت على التزلزل فيما حولى ، هاج قلبي ، ودفعني إلى هذا التأليف ؛ فالمرجو من القارئ الكريم أن يفيض الطرف عما عسى أن يرى من الخطأ والنقصان في بياني ، وأن ينظر إليه بعين السماح والعفو . ومع ذلك أقول إن مثل هذا الكتاب ، يجوز بل يلزم أن يكتبه من لا يكون مقيداً بذهب خاص . وقد أحسست حين التأليف ، من مباحثاتي مع المتخصصين في علم دون علم ، أنهم كثيراً ما يتقيدون بآرائهم الشخصية ، ونصوص علمهم . وإني آمل أن يصدق المنصفون عند قراءتهم هذا الكتاب ، أنه نتيجة

فكر حر منزّه عن التعصب . وأقول مع ذلك إني ما استغفيت عن الرجوع إلى آراء علمائنا ، بل احتجت إليها راغباً فيها ، واكتسبت منها فوائد .

(٧) ص ١٠ : لما فُتِح صندوق الشهادة في زمن النبي سليمان عليه السلام ، لم يوجد غير لوحين مشتملين على الكلمات العشر من التوراة . والذي وجده الكاهن « خلقيا » وأخبر به الملك « يوشيا » من نسخ من التوراة قد ضاعت عند استيلاء بخت نصر ، والتي كتبت برواية النبي عزير عليه السلام ، ورواية أحرار اليهود من نسخ من التوراة بحيث في زمن « أنيوخس » .

(٨) ص ١١ : والقرآن الكريم ، وإن كان قد وقع ترتيبه على أربع صور ، لا تختلف نسخه في الآيات القرآنية . وما رواه الأعداء من أن بعض آياته حذف ، وبعضها حرّف ، واه جداً . وقد رد المحققون عليها بأدلة قوية ، لا حاجة بنا إلى ذكرها في هذا الكتاب . وجميع مذاهب المسلمين متفقة على أنه محفوظ كما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم وتلاه .

(٩) ص ١١ : لم يكن قصد « سنت أجوستن » بهذا القول على ما يفهم من ظاهره ، وعلى ما يفسره مخالفوه عبثاً إلى هذا الحد ؛ فإن قصده شدة التزام الإيمان ، ولكن قوله يقتضى مع هذا قبول الإيمان من غير بحث عقلي . وشدة التمسك بالإيمان مطلوبة في الإسلام كذلك ، ولكن الاستدلال العقلي لا يمنعها بل يعينها . والإنسان الكامل إذا تفكر في نفسه وفي الآفاق ، اطمأن قلبه إلى الإيمان .

(١٠) ص ١٥ : لا يسند العقل إلى الله في الكتب الدينية ، ويستعمل بدلا منه كلمة العلم والحكمة .

(١١) ص ١٦ : أتى كثير من الحكماء منذ عهد « كُنت » و« لاپلاس » بكثير من النظريات في أمر التكوين ، ولكن ليس فيها ما يطمئن إليه القلب ،

وتزول به الشبهات . والعقل مضطر إلى البحث عن السبب الأول ، وراء الأسباب التي ذكرها .

(١٢) ص ١٦ : السحاييات البدائية غير المشكلة (Amorphe) هي عناصر « الإيدروجين » و « النيليوم » و « الهليوم » . وليس في الشمس وتوابعها من عنصر « النيليوم » . وتعرف العناصر المؤلفة منها الأجرام السماوية بالتحليل الطيفي [واكتشفت أخيرا عناصر أخرى في السحاييات] .

(١٣) ص ١٧ : أول من وضع نظرية حدوث المادة من تكاثف القوة ، الذي يحدث من الزوابع الحادثة في الجو الأثيري ، هو جُستاف لوبون من عطاء حكماء فرنسا . وأيدتها الكشوف الأخيرة وسلم بها أكثر الحكماء ، بيد أن بعضهم اعترض عليها ، فلذا ذكرناها بكلمة الشك .

(١٤) ص ١٨ : ذُكرت في كتب الفلسفة أدلة منطقية لإبطال تسلسل العلل إلى ما لا نهاية له ، وإبطال الدور ، وأجاب المخالفون عنها ، ولكنني صرفت النظر عن المناقشات التي لا توافق طريقة استدلالى ، واستعنت لإثبات المدعى ، وإيضاح المرام ، بأمثلة مأخوذة من الحادثات والكائنات .

(١٥) ص ٢٣ : كلمة الجوهر ليست هنا بمعناها الفلسفى ، بل بمعناها الرياضى . وتفيد هذه الكلمة في الميكانيكا نسبة ثقل شئ إلى مقدار التعجيل — وهو تزايد سرعة سقوط جسم في مكان خال من الهواء في كل ثانية ، وهى ٩٨٠ مترًا في درجة عرضنا — وهذا هو المراد .

(١٦) ص ٢٣ : إن ما حدث من التطورات والكشف في علم الفلك في المائة والخمسين سنة الأخيرة ، أسقط إلى حد ما قيمة نظرية لاپلاس في خلقه العالم . ولكن هذه الكيفية لن تقدر على انتقاص مقدار ذرة من الاقتناع بأن الخليفة ليست أثر مصادفة ، فقد كان يُظن في أيام لاپلاس أن الأجرام الداخلة

في المجموعة الشمسية تدور بلا شذوذ إلى جهة واحدة ، أى من الغرب إلى الشرق تقريبا . وقد عُلِمَ ، ولا پلاس يُظهر نشوء هذه الكيفية من أسباب استقرار المجموعة الشمسية ، بأن محور السيار « أورانوس » وأقاره الأربعة ، وقررا واحدا لكل من المشترى وزحل تدور إلى جهة عكسية ، فسقط بذلك دليل من أدلة لا پلاس . بيد أن تحقق نظام المجموعة الشمسية — برغم انتفاء أحد الأسباب المبني عليها — لم يثبت احتمال تأثير القدرة والحكمة الإلهية في ذلك فحسب ، بل زاد فيه .

(١٧) ص ٢٥ : الحساب الاحتمالى مشكل ومشوش جدا ، وإنما سرده تسهيلات لفهم القياس الذى ذكرته والذى قرأته في كتاب «المجهول L'inconnu» لكميل فلاماريون . وهذا القياس موافق لدساتير الحساب الاحتمالى ؛ ولهذا لا يجوز الشك في صحته . وفي السماء كواكب لها مجموعات ليست خمسة وعشرين ولا خمسة وعشرين ألفا ، بل ينبغي أن نقبل بالقياس أنها بالغة مئات الملايين .

(١٨) ص ٢٥ : تقريبا للعدد الذى يدل عليه الرقم المشتمل على ثلاثمائة من الأصفار بالمثال ، رأيت من المناسب أن أذكر نبذا عن تشكل المادة .

تتركب الأجسام من أجزاء صغيرة جدا ، كان الحكماء من قديم الزمان يفرضون وجودها . وتسمى هذه الأجزاء «مولكول Molécules» في اللغات الأوربية والجزء الفرد في اللغة العثمانية وسميت أخيرا بالذرات . وهذه الأجزاء أو الذرات كان يظن عدم تجزئها . وعلم أخيرا أنها متجزئة في الأجسام البسيطة إلى أجزاء متجانسة ، وفي الأجسام المركبة إلى أجزاء مختلفة تسمى «أتوم» . وتبين من المكشوفات الحديثة (كالراديوم وغيره) ، وبالتجارب والحسابات الموثوق بها ، أن الأتوم مركب من جزء أصلى يسمى الـ «پروتون» ، أو «النوكليون» ومن «إلكترون» أو «إلكترونات» : (كهبرات) تدور حول البروتون .

(١٩) ص ٢٦ : حياة الأنومات لبوتاريك (Bautaric) .

(٢٠) ص ٢٩ : الأثير ، وهو من الفرضيات ، وليست له علاقة بالمادية ، بناء على تعريف الذين فرضوه . فلو سُلِّمَ بأنه حال انبساط القدرة الصمدانية وانتشارها ، فلا مانع من التصديق بأزليته .

(٢١) ص ٣٠ : إذا لاحظنا أن مرور الزمان وتماثيه يكون متناسبا

تناسبا عدديا نحو :

١ ٢ ٣ ٤ ١٠ ٢٠ ؛ ونسبة الاحتمالات كما فصلنا فيا سلف ، تترقى

متناسبا تناسبا هندسيا نحو : ٢ ٤ ٨ ١٦ ٢٤ ١٠٤٨٥٧٦ ؛ فهذه الدعوى الواهية تفقد قيمتها . ولكي نفهم هذا القول استحسنا ذكر ما يأتي :

بناء على النظرية التي سردها المحققون من علماء الفلك والتكوين ، حدثت العوالم مما وقع من الخلل في السحاييات ، بسبب خارق للعادة كالتصادم مع أجسام خارجية ، أو بتكثفها وانقباضها إلى مركزها ، ومما تولد من الحرارة من هذا الحادث ، ولا حاجة إلى نظام يضمن تطورها واستقرارها إلا منذ بدأ هذا الاحتلال فيها . ولو سلمنا بأن أجزاء المادة التي تتكون منها السحاييات أزلية ، فاختلاها وتطورها حادث ، لأن له مبدءاً . وتُشاهد في السماء سحاييات غير مكوَّنة (Amorphe) في حال ابتدائي ، ومنها ما تطوَّرت وحدثت في جوها شمس ومجموعات شمسية كاملة انطلقت من غمام السديم . وكل ما يتحوَّل فهو حادث . فإذا رمزنا إلى عدد السنين التي مضت من بدء هذا الاحتلال إلى يومنا هذا بحرف « ن » ، وفرضنا في مقدار الموجودات الكونية من الأنومات إلى الشمس والسيارات وما فيها — وهو عدد يكاد يكون لانهاثيا — وسلمنا بأن احتمال التصادف في الخلقة ليس كواحد على تريليون ، كما أثبتته لاپلاس للمجموعة الشمسية ، بل كواحد على اثنين ، صار مخرجُ نسبة لاپلاس (ن) ، نظراً إلى إثباتنا فيما سبق أن استقرار كل موجود يتبع نظاماً أصلياً واحداً ، فهو عدد لا يحيط به العقل . ويُرى

من السلسلتين اللتين ذكرتهما آنفا أن حاصل ن = ١٠ وحاصل ن = ١٠٢٤
وأن حاصل ن = ٢٠ وحاصل ن يكون أكثر من مليون ، وأن حاصل ن =
٣٠ يكون ن أكثر من مليار وهم جرا .

(٢٢) ص ٣١ : لمناسبة المقام استحسننت أن أذكر في الحاشية كلمات عن
هذه المسألة التي شوشت أذهان الشباب .

إنه بعد أن ثبت من تدقيقات الحكماء ، ولا سيما باستور ، وتجاربهم العلمية ،
عدم تحمل الحياة الحيوانية والنباتية ، الحرارة الشديدة ، واتضح عدم إمكان
صدورها فورا من تلقاء نفسها ، صارت كيفية نشوء الحياة في الكرة الأرضية
موضع تأمل . فقد فُرض انتقال عنصر الحياة إلى الأرض بواسطة النيازك ، التي
انشقت لسبب ما من بعض الأجرام السماوية المسكونة من قبل ، ولكن تحقق
أخيرا عدم إمكان هذا التصور . وصار فرض فيلسوف السويد «سونت أرنوس»
أكثر قبولا ، وهو .

إن أية بروتوبلاسم كانت على كرة مسكونة من قبل ، يمكن أن تعلق
بزوامة ، وتصعد إلى أعلى طبقات الجو النسيجي ، التي يتعلق فيها الغبار السماوي
الحامل للكهربائية السلبية المحدث للفتج الشامي .

وتكتسب منه الكهرباء السلبية . ولما كانت الكهرباء بيات من جنس
واحد متنافرة ، يدفع بعضها بعضا ، اندفعت تلك الجرثومة إلى الفضاء ، وعلقت فيها
بذرة من غبار العالم ، ووصلت إلى كرة غير مسكونة خمدت حرارتها إلى درجة
تساعد على الحياة . وظلت سنين كثيرة طائرة في الجو ، ثم نزلت إلى سطح كرة ،
وولدت فيها الحياة .

وتصل هذه الجرثومة (البروتوبلاسم) من الأرض إلى المريخ في عشرين
يوما (في بعدها الأصغر) ، وإلى المشتري في ثمانين يوما ، وإلى نبتون في خمسة

عشر شهرا ، وإلى مدار الشمس الأقرب إلينا في تسعة آلاف سنة . وقد ثبت بالتجارب أن البكتريات تحافظ على خاصية النمو سنين عديدة في ٢٥٠ درجة تحت الصفر في مكان خال من الهواء والرطوبة . ومهما يكن الأمر فهذه الفرضيات والتأويلات وإن صوّرت انتقال الحياة من كرة إلى كرة أخرى ، فمن أين وصلت الحياة إلى الكرة الأولى ، التي هي مبدأ الحركة ؟

إن الجرثومة التي فُرض وصولها إلى الأرض بالصورة المذكورة آنفاً ، ونشأت منها أنواع النباتات والحيوانات بطريق التطور ، محل نظر ومناقشة كما سيأتي :

ضمن علماء جيولوجيا في نتيجة بحوثهم وتحقيقاتهم ، أن الأرض بدأت تتصلب ويتكون لها قشر قبل مليارين من السنين ، وأنها بعد تصلبها أحاط بها بخار الماء زمنا طويلا ، ثم تكاثف البخار وتجمع ، وصار سطح الأرض كله تحت الماء ، فاعتدلت حرارته تدريجيا . وهذا ما يُسلم به أكثر الحكماء . وبما أنه قد ثبت بالتجارب أن مادة الجيلانين التي حدثت منها البروتوبلاسم ، وهي أدنى حاملية الحياة ، لا تتحمل الحرارة فوق أربعين درجة مدة طويلة ؛ فلذا لا يمكن حدوث الحياة الحيوانية إلا في الربع الأخير من تكون قشرة الأرض ، أي قبل خمسمائة مليون سنة في الماء ، لأن الأرض كانت محاطة بالماء حينئذ . وعند ظهور اليبس فوق سطح الماء إما بتناقص المياه أو بارتفاع الطين بدفع البراكين تدريجيا ، كانت الجراثيم أو الحيوانات قد أقيمت فيه بحادثتي المد والجزر ، وأحدثت ما كان منها قابلا للامتزاج بالحيط النسيجي بحسب طبيعتها ، النباتات والحيوانات البرية بالتطور خمسمائة مليون سنة ! مدة طويلة بلا شك ، ولكن ليست غير متناهية ، وكفايتها لصيرورة البروتوبلاسم من تلقاء نفسها إنسانا بالتطور التدريجي محل نظر . والتطور التدريجي لا بد أن يكون بالتسلسل الهندسي تقريبا ، لأن كل ما ينضم إلى الأصل يزيد قوته وقابليته للجر والاقتباس ، فيزداد المسكب في كل

لحظة وفي كل حدّ ودرجة . والدرجات الأخيرة تترقى أزيد من الدرجات المتقدمة . إذا ألقينا نظرة إلى الماضي بملاحظة هذا الأساس ألفينا أن نوع البشر تمدنت منذ خمسة آلاف سنة أو ستة آلاف ، تمدُّناً عظيماً ، وقيدت تاريخ الأمكنة التي استوطنتها . فمنذ ذلك الزمان ما عُلِمَ أن نوعاً من الحيوانات تغير إلى نوع آخر بالتطور . حدث باختلاط النسل بعض تغير في الخيل والكلاب والدجاج ، في شكلها وخواصها ، أو في حيوانات نقلت من إقليم آخر ، حدثت فيها تبدلات عضوية كي تقاوم مؤثرات الوطن الجديد وشدائده ، بيد أن هذه التبدلات القليلة لا تدل على تبدل نوع بنوع آخر . وتبدل لون الإنسان بحسب تبدل الإقليم أو ترقق جلد الحيوان أو تغلظه لا يكون علامة لتبدل النوع .

ومن المعلوم أن الحيوانات من أنواع مختلفة لا يلقح بعضها بعضاً ، ولو لقح لم تنتج من هذا التلقيح نتيجة ، وإن ولدت كان ولدها عقياً كالبعل . ولم توجد في المتحجّرات (Paléontologie) سلسلة أو أمارّة تدل على ارتباط أنواع الحيوانات بعضها ببعض . وجِدَ في المتحجّرات هيكل عظمي لحيوان سمى اكويدى (Equidé) يُظن أنه أصل جنس الخيل والحمير وحمار الوحش والبقرة ، وهو أصغر من الخيل الموجودة الآن ، وأنواعه مختلفة : نوع في رجله حافر كالخيل ، ونوع له ظلف كالبقرة ، ونوع له أظلاف . وحتى لو فرض أن نسل القرس ظهر منه ، فإنه لم توجد سلسلة تنتهى في مراتبها السفلى إلى الوزغ مثلاً أو إلى الحوت ومنها إلى الحشرات وإلى البكتريات . ونحن لا ننكر كذلك التطور في الحيوانات ، والتحويلات القليلة في عضوياتها ، ولكن حدوث كافة الحيوانات من بروتوبلازما وارتقاءها إلى أن تصير إنساناً في زمان محدود غير خليق بالقبول ، رلاً قابل للإثبات .

أما الإنسان فلم تكن قدرته ومهارته في نحت التماثيل قبل ستة آلاف سنة أقل مما هي في زماننا . ويُستدل من النظر إلى الأصنام والتماثيل التي انتقلت إلينا أن أشكال الناس في ذلك الزمان وجثثهم ، ليست مخالفة لأشكالنا وجثثنا .

فاذن لا يتصور رجل ، له إلمام بالتاريخ ، وجود فروق بين رمسيس وكسرى وإسكندر وقيصر ، وبين قواد زماننا وساسته ، وكذا بين أقليدس ومسقراط وكوفوشيسوس ، وبين حكماء عصرنا ، في المنح والقابلية الفكرية . وإن كانوا لا يعرفون أكثر علوم عصرنا وفنونه ، لأنها تقدمت بعدهم بالتناسب الهندسى ، ولكن هذا لا يدل على عدم قدرتهم على الإحاطة بعلوم عصرنا ، بل إن لهم شرف وضع الأسس للعلوم الحاضرة . وقد وجدت في الزمن الأخير أجساد من كانوا عاشرين قبل عشرة آلاف أو خمسة عشر ألف سنة ، سالمة من الفساد في قبورها ومتحجرة ، بفضل المواد الكيميائية الواقية ، وهي لا تفتقر عن بنية من في زماننا بشيء ، حتى بألوان الجلود .

وقد اكتشفت بالحفريات الأخيرة آثار متعلقة بمن كانوا عاشرين قبل مئتي ألف عام ، وهياكل عظام أجسادهم ، وليس فيها فرق عظيم عن الإنسان الموجود الآن ؛ ووجدت أسلحة بدائية مصنوعة من الأحجار . وترى على الأسلحة والفجارات التي سكنوها تصاوير منحوتة منظمة . فقد كانوا إذن متمدنين أكثر من قبائل إفريقية وأستراليا والأسكيمو الموجودين اليوم .

فع أن حدود التطور الأخيرة كان ينبغي أن تترقى بسرعة أكثر بالنسبة إلى الحدود المتقدمة ، لم يظهر فيها فرق محسوس في آلاف السنين ؛ فيلزم للرقى من جرثومة بروتوبلازما أو من حال البهيمية إلى حال القدرة على صنع الأسلحة ونحت التصاوير نحتاً متقناً من تلقاء نفسه (من غير إلهام الغيب) أمد طويل جداً . إذا لم يُظهر التطور التدريجي فرقا في نوع ذوى الأرواح وفي شكله في خمسة آلاف سنة أو عشرة آلاف ، أو مائة ألف أو مائتي ألف من السنين (اكتشف أخيراً في الصين عظام إنسان قُدِّرَ قدمها بمليون سنة) ، فلا يسلّم العقل بتحول الجرثومة من (بروتوبلازما) إنساناً في خمسمائة مليون من السنين . وأما فرضية نشوء الإنسان من تطور القردة فليست بمبنية على أساس .

فالشimpanزي ، وهو أذكى أنواع القردة ، ما استطاع إلى الآن أن يتعلم كلمة واحدة من لسان الإنسان ، على حين أن أدنى نوع الإنسان الأسترالي والزنجي المتوحش إذا ربوا من صغرهم ، يمكنهم أن يتعلموا لسان المتمدنين من الناس ، ويعرفوا الصنائع ، بل يمكنهم أن يتعلموا كثيرا من العلوم وحتى الفلسفة . فعلى هذا هناك فاصل عظيم بين الطبقة السفلى للإنسان ، والطبقة العليا للقردة . لو كان هذان النوعان من الحيوان في سلسلة واحدة لم تبقى الحدود البدائية وتحتفي المراتب المتوسطة دون أن تترك أثراً ، مع أنها يلزم أن تدوم أكثر منها ؟ ولِمَ لم يشتمل قانون بقاء الأصلح على الحدود البدائية والمحصر اشتماله على المراتب المتوسطة ؟

وصف جُستاف لوبون في كتابه المسمى « الحضارات البدائية » القبائل الوحشية ، معتمدا على روايات بعض الرحالة ، بعدم الأهلية لشيء ، وبسوء الطبع والقسوة وأنهم أشبه بالحيوانات منهم بالإنسان . واستدل من هذا الوصف على أنهم في المراتب المتوسطة بين الإنسان والحيوان في سلسلة التطور .

وليس لي علم بحياة المتوحشين الاجتماعية من أبحاثي الخاصة ، بل من روايات كتب السائحين ، فلذا لا أقدر على الاعتراض في هذا الشأن ، ولكن هؤلاء الأقوام ، إذا نُظر إليهم منفردين فلا أشارك هذا الفيلسوف في رأيه . فقد عرفت مذ كنت صغيرا في منزلي وعند كثير من أقاربي وأصدقائي معتقنين من العبيد من قبائل مختلفة في إفريقية ، وأولادهم الأحرار ، فأولاد إفريقية إذا أخذوا من أهلهم وهم صغار ووقعوا في أيد طيبة كانوا أصدقاء صالحين بلا استثناء . حقا أنهم لم يكن لبعضهم استعداد لتعلم الحساب ، ولكن فيهم الأذكاء كذلك مثل نادر أغا ، أحد خصيان السلطان عبد الحميد ، الذي كانت له كفاية في جميع المعارف ، ولا سيما الحساب والكتابة ، وقد نشأ من أغوات قصور العثمانيين من يُعَد من العلماء والأدباء ، وصادفت فيهم من ولدوا في تركيا وآباؤهم من إفريقية ، وصاروا مديري التحريرات ، ومفتشى الحسابات ، وأطباء حذافا وضباطا أركان حرب . وبخلاف

ذلك الحيوانات الأهلية التي تطوف حولنا من زمان بعيد ، والوحوش والطيور التي تعيش وتتربى في حدائق الحيوان جيلا بعد جيل ، هل يُشاهد فيها ما اقترب إلى الإنسان بخصلة ما ؟

إن الأقوام والقبائل المختلفة وإن لم يقطعوا مراحل التمدن بدرجة واحدة ، فأفرادهم يتساوون في القابلية والفطرية مع أفراد سائر الأمم . وكما أن هناك تفاوتاً في القابلية بين أفراد قوم واحد ، فإن هناك تفاوتاً كذلك في القابلية ، بين القبائل والشعوب الإنسانية ، ولكن الإنسان إنسان ، والحيوان حيوان بوجه عام .

أحسب مستدلاً بهذه الملاحظات أن نظرية تطور الحيوان ليست نتيجة تدقيق عميق ، ومع ذلك أولع بها الناس ، من أجل الآراء التي وجّهت من قرن أو قرنين ، على الحكومات المستبدة المدعية الاعتماد على الأديان ، ونفرت الناس من الدين . فكلفوا بالنظريات التي تخالف العقائد الدينية .

وكثير من علماء التاريخ الطبيعي ، لا يقرون بالعلاقة النوعية بين الإنسان والقرود .

أولاً — لأن غذاء القرود الطبيعي الفواكه ، وأسنان الإنسان وأجهزته الهضمية صالحة لأكل كل شيء . وهو على قول المؤرخين لم يعيش في الزمان الأول إلا على اللحم ، ولو كان لحم أبناء نوعه . وكيف يقبل العقل أن ينشأ نوعان مختلفان في أصل غذائهما إلى هذا الحد ، بعضهما من بعض .

وثانياً — لأن الزاوية الوجهية للإنسان تتراوح بين ثمانين وخمس وثمانين درجة ، في حين أن الزاوية الوجهية للقرود ٢٦ درجة . وهكذا الزاوية الوجهية لسائر الحيوانات أو أكثر .

وثالثاً — لأن ثقل مخ رأس الإنسان يتراوح ما بين ١١٠٠ و ١٣٠٠ جراماً وثقل مخ رأس القرود « أورنج أوتان » خمسمائة جرام ، مع أنه أكبر من

الإنسان حجبا . وعدم حاجة أولاد القردة حين ولادتها إلى المعونة ، وسرعة نموها ، تدل على أنها من البهائم طبيعة . إنه وإن سلم بأن القرد أشبه الحيوان بالإنسان من جهة البنية والصورة ، بيد أنه من جهة الذكاء أبعد عنه من كثير من الحيوانات .

ولما تبين بأمثال هذه الملاحظات والتدقيقات الأخيرة ، بطلان أقوى أدلة مروجي نظرية التطور ، وهو « أن الجنين يتحول في رحم أمه إلى أشكال شبيهة بأجنة الحيوانات التي مثلها الإنسان حين تطوره » ، فُقدت أهمية نظرية التطور التي وضعها « لامارك » و « داروين » وبالغ فيها « هيجل » ومن ساهمه . إن قانون التطور سائر في العالم ، ولكن المستبعد هو تطور جرثومة من تلقاء نفسها في الكرة الأرضية المحدد عمرها ، حتى تصير إنسانا . ووجود القانون لا يغني الإنسان عن الاحتياج الفطري إلى البحث عن واضعه .

وظهرت في الزمان الأخير فرضية الوثوب (Mutation) أى تطور أنواع الحيوانات بالوثبات السريعة والفورية ، وإن كانت استنتجت أولا من التحولات السريعة المشاهدة في النباتات ، إلا أننا لا نعلم إلى متى يدوم رونقها (موضتها) . ثم إننا إذا سلمنا بالتحولات السريعة فلا بد لنا من البحث عن سببها ، ولم يبين واضعوها أنهم اكتشفوا لها سببا .

قال فرنكلين العالم الأمريكي المتخصص في علم الحيوان في كتابه : « سير التطور البشرى » : « إن تطور الإنسان من غير استمداد من قوة معنوية ، وتقدمه في الطريق المرسوم للرقى ، من الحيوانية إلى الإنسانية ، يستحيل كما يستحيل في مطبعة جمع كتاب من تمثيلات شكسبير بالقاء الحروف كيفما اتفق بدون تفكير . وليس من شك في أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفات البحتة ، بل هو تطور كانت فيه من أوله إلى آخره يد الله القادر المتعال » . إن

هذه تذكرة من رجل عليم ، للذين ليس لهم اختصاص في علم من العلوم وينتهزون
الفرص للإنكار كما سمعوا من الروايات الصادرة من عقول الحق .

إن اسراً متبعا ما كُتِبَ عن علم الجيولوجيا وعلم الحيوان والنبات ، ولوتبعا
سطحيا ، يطلع على الأسرار والحكم الخفية التي تدل بتنوعها وتعددتها وتوجهها
بكمال الانتظام إلى هدف معين ، على تأثير الصانع العليم الحكيم ، لا باحتمال
أربعة تريليونات بالنسبة إلى واحد ، بل كنسبة حاصل ضرب تريليون في
تريليون إلى واحد . فكل الموجودات أثر قدرة الخالق القدوس وحكمته . وآمنت
بهذه الحقيقة بكمال الاطمئنان ، وصدقها بوجوداني وعقلي وجناني .

(٢٣) ص ٣٣ : هذه نظرة منصفة ، ومتفقة مع الدين ، ولكن المتأخرين
من العلماء لا يستبعدون خلق المادة وتكوينها ، كالجملة المنكرين . فقد ثبت
بعد ما اكتشف الراديو في الزمان الأخير أن أصغر ذرة مادية نكمن فيها قوة
عظيمة خارقة للعادة ، وتبين بالتجارب الصحيحة ، والحسابات الرياضية ، أن الأمر
ليس كما ظن قديما ، بأن القوة عرض غير مفارق للمادة مربوط بها ، بل ذهب
إلى أن المادة حدثت من تكاثف القوة . فإذا تحقق هذا الرأي تماما آمن كل
مرتاب بأن المادة خُلِقت بقدرة الخالق المتعال ، ذي القوة المتين .

(٢٤) ص ٣٧ . الجمل التي داخل الأقواس الصغيرة « هي أقوال
المعارضين والتي ذُكرت خارجها هي ملاحظاتي .

(٢٥) ص ٤٠ : كل ما حكيت عما يتعلق بعلم الفلك ، وعن الأنومات
يستند إلى تجارب وحسابات العلماء . وأما هذه المدعيات فليست إلا فروضا
وتصورات مجردة .

(٢٦) ص ٤٢ : استخرج العالم الرياضي الشهير آينشتاين لتعيين تزايد
جوهر الشيء عند الحركة الدستور الآتي :

(جو = $\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}$) « فالجو » رمز لجوهر الشيء في الحركة و « ج »

الجوهره في السكون و « س » لسرعته و « صه » لسرعة الضوء . وأنه يفرض أن

« صه » و « ج » و « س » تكون هذه النسبة : « جو » $\frac{1}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}} = \frac{1}{\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}}$ وهذه المعادلة

الجبرية تدل على كل قيمة غير معينة . ويجوز أن معارضا يستفيد من هذا ويدعى قائلا :

إنه وإن لم يكن للأثير الراكد جوهر إلا أنه يحدث منه جوهر ، إذا كانت سرعة الزوبعة

مساوية لسرعة الضياء . وأما الدستور الذي يبنى عليه النسيون كل نظرياتهم ، وهو

(ل = $\sqrt{1 - \frac{v^2}{c^2}}$) فيفرض فيه أن س = صه فيصير « ل » صفرًا .

و « ل » هو بعد الشيء المتحرك في اتجاه الحركة و « ل » بُعد الجسم نفسه في حالة

السكون ؛ ويستدل منه على أن المادة لا تحدث من حركة الشيء بسرعة الضوء ،

وأن المادة ذات أبعاد ثلاثة . وأن فرض (س < صه) أى أن « س » أعظم من

« صه » صارت قيمة « جو » أو « ل » سلبية وهى لا تدل على شيء في الوجود .

(٢٧) ص ٤٨ : والصفات الإلهية بناء على العقيدة الإسلامية هي الصفات

السلبية ، وهى : الوجود ، والقدم ، والبقاء ، والوحدانية ، والتخالف للحوادث ،

والقيام بالنفس . والصفات الثبوتية هي : الحياة ، والعلم ، والسمع ، والبصر ،

والإرادة ، والقدرة ، والكلام (الكلام النفسى) ، والتكوين . فأية صفة منها

مغايرة للعقل ، ومناقضة للعلم ؟

(٢٨) ص ٤٨ : بما أن نظريات النسبية التى اكتشفت أخيرا لاعلاقة لها

بأمر التكوين ، فإنى أسكت عنها . وقد اعترف النسيون بأن لاعلاقة لنظرياتهم

بهذا الأمر . كما قال جان بكرل وهو من الحكماء المعروفين : إن هذه النظريات

لا تتعالى إلى البحث فى الأسباب الغامضة للحوادث ؛ فلا تقول شيئا عن أصل

هوى العالم وطبيعته ، بل هى عبارة عن قوانين الطبيعة باللغة الرياضية ، وتفسيرها

تفسيرا هندسيا ، وتحليلها تحليللا تاما . وقال « أدنغتون » : إن « هذه النظريات

علم الأشكال وليس علم الجوهر .

(٢٩) ص ٤٩ : جُستاف لوبون ، تطور القوى (Evolution des forces)

ص ٣٦٦ (في النسخة الفرنسية)

(٣٠) ص ٥٠ : أكرر مرة أخرى أنى لا أتصور بهذا الكلام أن الله

هو هذه القوة — حاشا وكلا — ولكنى أريد أن أفهم أن الخواص التى تُسلم بوجودها فى القوى والأسباب الثانية ، من العبث إنكار وجودها فى العلة الأصلية الأولى .

(٣١) ص ٥٦ : كان لايبنتز (Laipnitz) وهو من فلاسفة الألمان يقول

بتشكل العالم الجسمانى والروحانى من عنصر بسيط غير متجزئ عار عن الأبعاد ، فقال ، حاوٍ للقوة والحياة . وإذا كان الأمر كذلك فلم يُحرم الحياة القسم الأعظم من الكائنات ، المتشكل من ذلك العنصر بعينه ، المحتوى على الماديات والجمادات ؟

(٣٢) ص ٥٧ : ليس لفظ « مشترك المقياس » هنا بمعناه الرياضى . فلذا

يلزم أن نفصله قليلا ، فنقول :

أخذ الناس لمساحة الأبعاد ولتعيين المقادير مقياسا بالتمثيل بالمتر ، يقاس به وأجزائه وأمثاله الطول والمسافة ؛ وبمربعه ومكعبه أو أجزائهما وأمثالهما السطوح والحجوم ؛ وبثقله الماء الذى يستوعبه مكعب ديسيمتره ، وبأمثاله توزن الأثقال ؛ وبكيلوجرامته [القوة التى ترفع ثقل الكيلو جرام إلى ارتفاع متر] وأجزائها وأمثاله القوة الميكانيكية ؛ وبسعره [الكالورى وهو مقدار الحرارة الذى يرفع سخونة كيلو جرام من الماء بدرجة واحدة] آثار الحرارة . وبمثل هذه المقاييس يُقدَّر انبساط البحار والضغط الجوى وارتفاع الصوت وشدة الضوء ، والكهربية والمغناطيسية ، وحتى عيار المسكوكات المعدنية . وترجع كل هذه المقاييس بلاواسطة أو بواسطة إلى نظام المتر . وعلى هذا كافة الأجسام والقوى المادية الموجودة فى

الدنيا مشتركة المقياس ، ولكن ليس للروحانيات مقياس . فلا يقاس ذكاء الإنسان وغيرته وحجته ، بطول قامته وسعة صدره أو بثقل جسمه .

(٣٣) ص ٥٧ : يذكر المحققون في كتبهم حوادث غريبة في ظهور النبات وتولد الحيوان ، ولكنى التزمت ذكر أمثلة من أحوال عادية ، وحادثات تقع كل يوم ، ويسهل تحقيقها .

(٣٤) ص ٦٢ : الخطوط الشعاعية منحنية ، بناء على حسابات أينشتين ، والدائرة التي ترسمها هذه الخطوط ، يقطعها الضوء في تسعمائة مليون سنة . وعلى محيط الدائرة نقطتان أبعد ما بينهما متقابلتان قطرا ، فالبعد الذي يمكن رؤيته ، يفرض تكامل الآلات الرصدية إلى هذا الحد ، لا يتجاوز هذه الدرجة .

(٣٥) ص ٦٢ : على قول بعض الفلاسكين ، تسير مجرتنا نحو برج الجدى بسرعة « ٧٥٠ » كيلومتر في الثانية . وهذه الحسابات طويلة ومشكلة ، ولكنها جديرة بالثقة ، لاعتمادها على الأرصاد .

(٣٦) ص ٦٢ : ذهب الفلاسفة في خصوص الزمان والفضاء ، إلى قياسات وفرضيات عسيرة التعداد ، وأجروا في هذا الوادى أنهارا من اللداد ؛ وملاحظاتي في هذا الباب مخافة لأراء بعض المعاصرين والمتقدمين من الحكماء . ولكنى أزعم أن الأمثلة التي ذكرتها آتفا ، والتي هي ترجمان وجدان البشر ، خليفة أن تكون عوناً على تفهم ما سرده من الآراء . وأما بعد الاختلافات في تنامي الفضاء وعدم تناميهِ ، فأظن أنه نشأ من الاختلافات في فهمه وتعريفه . إن كان المراد من الفضاء الوسط (Milieu) الأثيري ، فالأحرى بأن يوصف بـ « لاخلاء ولاملاء » ؛ فحينئذ يمكن أن تقبل محدوديته ، وإن كان الأثير ساكناً سكواً مطلقاً ، والعوالم تسير في داخله ، ولا يمكن أن تتجاوز عن حدوده ، لأن تلك الحدود تصير لها هاوية حائلة للماديات ؛ لأنها لو جاوزتها لانتشرت الموجودات المادية

بأنحلل روابطها كلها ، بناء على النظريات الأخيرة القائلة بالآثير . وإذا كان الوسط الآثيرى — من قبيل السفينة التى تنقل الأشياء والأشخاص الثابتة والمتحركة فى داخلها — سائرا ومتحركا بالحركة العامة الانتقالية ، مستصحباً جميع الكائنات ، فيلزم أن يكون الفضاء الخالى الذى يسير فيه الوسط أو الأوساط الآثيرية المشتملة على الججرات والعوالم سيرا سرمديا ، غير متناه .

(٣٧) ص ٧١ : إن طول كل موجة هو المسافة الواقعة بين أعلى نقطتى موجتين ؛ فطول موجة الشعاع الأحمر $\frac{1}{1000}$ من الميكرون (الميكرون $\frac{1}{1000000}$ من المتر) ، وطول موجة الشعاع البنفسجى $\frac{1}{10000}$ من الميكرون ، وطول موجات الأشعة الكيمياءية فوق البنفسجية أصغر من ذلك ، وموجات الأشعة الحرورية تحت الحمراء أعلى من الميكرون ؛ وتمتد الموجات الكهربائية حتى الكيلومترات .

(٣٨) ص ٧٢ : كان العلامة آينشتين يذهب إلى عدم الحاجة لمثل هذه الواسطة لانتشار الضوء ، ولكنه اعترف فيما بعد بلزوم وجود لطيف ، عار عن المادية والفعل والحركة ، يكون واسطة للجاذبية والتجليات الطبيعية فى الكائنات قاطبة ؛ وبهذا اعترف ضمنا بوجود آثير .

(٣٩) ص ٧٣ : فى إمكان المعارضين لهذا أن يوجهوا هذا السؤال المعارض : « ما الحكمة فى وجود قوى ضارة تدفع الإنسان إلى الشر ؟ » . إذا سلم بعسر إدراك المقاصد الخفية من أفعال الله سبحانه وتعالى كعسر إدراك ذاته ، فقد هذا السؤال قيمته . ومع ذلك يمكن إبداء الملاحظة الآتية على أن يكون جوابا عقليا : بضده ينكشف كل أمر وكل حال فى هذه الدنيا ؛ ففيها الخير والشر ، والفضيلة والريضة ، وقبول الحياة الإنسانية كما هى شرط للعابحة . ومن المسلم بأن تنازع البقاء فى هذه الدنيا ، والتطور التدريجى المترتب عليه ، إنما يحدثان بتصادم الأضداد . فلو كان كل أفراد البشر عبادا ورعين ، مجردين عن الميول

والشهوات الدنيوية ، لما تم هذا الرقى الذى نشاهده ، ولحُرمت البشرية حتى نمد يد أسباب حياتها . على حين أن المخلوقات كلها ، حتى أصغرها وأطفها ، من ضروريات ملك هذه الخليقة وخدمه وعماله . وسيظل الإنسان ، عالما أو جاهلا على خدمة المراد الإلهى وملك الخليقة ما وسعه ذلك ، خاضعا لقانون الأضداد .

وخلق بالذكر بعد التسليم بهذا الأساس ، أن بعض العقائد العتيقة السخيفة ، التى تجعل القوة الشيطانية الشريرة ، معادلة للذات الرحمانية ، وهى الخير المطلق ، باطل بطلانا تاما . فالله الواحد الأحد ، هو خالق الكل . ومن مخلوقاته القوى الشيطانية . وليست هذه القوى إلا من خدم المقاصد الإلهية الخفية ، وعمال ملك الخليقة .

(٤٠) ص ٧٤ : يرى المستر فوكس من مشاهير علماء الطبيعة أن عدد اهتزازات الجو والأثير ، وتموجّه فى الثانية ، لحدوث المحسوسات اللطيفة المنتشرة ، بالتموجات الجوية والأثيرية ، كالصوت والكهرباء والضوء ، متناسبة مع قوة العدد «٢» (حاصل رفعه) . فلاجل حدوث الصوت يلزم تموج قوة الجو «٢» من «٢٥» إلى «٢١٥» أى من ٣٢ إلى نيف و ٣٢ ألف مرة . ولحدوث الكهرباء يتموج الأثير «٢٣٠» أى نيف ومليار مرة ؛ ولظهور الحرارة والضوء من «٢٤٨» إلى «٢٥٠» أى ٢٨٠ تريليون وأكثر من كتريليون مرة ؛ ولظهور أشعة اكس X (رونجن وشعاعين منتشرين من راديوم) من «٢٤٨» إلى «٢٦١» أى ٢٨٨ كتريليون ونيّف وكنتليونين مرة .

إن الناس لا يعلمون ولا يحسون إلا إلى القوة السابعة عشر من رفع العدد «٢٦١» كالصوت والكهرباء والضوء وغيرها من الأشعة ولكن الآثار التى تنتجها الدرجات ٤٨ الباقية وما لا يُستبعد تأثيرها بعد العدد «٢٦١» مجهولة كلها .

(٤١) ص ٧٥ : يفرض بعض العلماء الأحوال الغيبية التى لا نستطيع

إدراكها ويتصورها بأنها أثر موجودات متحيزة في فضاء ذي أربعة أبعاد (الفضاء الزائد Hypperespace) . وإذ أن إيضاح نظرية الفضاء الزائد بالتفصيل ليس من موضوع هذا الكتاب ، فإنني أكتفي بذكر فكر إجمالي عنها .

تولدت نظرية الأبعاد الأربعة من إمكان حل المعادلات من الدرجة الرابعة ، على حين كانت النظرية الخاصة بالأبعاد الثلاثة المؤلفة من الخط والسطح والجسم أى الطول والعرض والعمق في العالم الجسماني ، تحل حساباتها بالمعادلات من الدرجة الأولى والثانية والثالثة ، تصوّر بعض العلماء وجود بُعد رابع في عالم الإمكان الذي لا ندركه . ولكن آينشتاين يروّج حصول المعادلات من الدرجة الرابعة بادخالها في الحساب الزماني ولا يرى حاجة إلى تصور بُعد رابع .

وأنا أرى أن هذا الرأي أقرب إلى العقل . ولكن بما أن الأحوال الفيزيية مجهولة لنا ، فسواء أكانت في البعد الرابع أم البعد المئة أم محرومة من الأبعاد ، فلا فرق عندنا . ويكفي التسليم بأنها خارجة عن طاقة إدراكنا الخلقى .

(٤٢) ص ٧٦ : مثل هذا الاعتراض ماهو إلا مفسطة مبنية على جهل ، مخالفة للعقل والمنطق والفلسفة . وليس في قدرة الله ورحمته وحكمته ، القرب والبعد والصغر والكبر ، فإن الصفة السبحانية محيطية بالكون من أصغر ذرّته إلى أكبر الأجرام والأكوان ونافذة فيها . فليس لمن يجهل هذه الحقيقة حق في استقصاء المراد الإلهي فحسب ، بل ليس له أن ينبس ببنت شفة في هذا الأمر . إن الإيمان بما دخلت في الأديان من الخرافات باسم العقيدة — وسنبحث فيها — إنما هو أثر حق وجهالة . إلا أن المحاولة لتحديد تصرّف الله ومراده حسب بحثنا وإدراكنا عي أكثر منه وضلال .

(٤٣) ص ٧٧ : يُنتج زوج من الذباب العادى خمسا وعشرين مليوناً من الأولاد والأحفاد في العام . وإذا قدّر عدم موتها فإن ما ينتج في خمسة أعوام

يبلغ $(10^{25} \times 32)$ أى يكون مدلول ٣٥ صفرا إلى يمين العدد ٣٢ . وإذا قُدِّر حجم ذبابة مليمترا مكعبا (وهو فى الحقيقة أكبر منه) فيحدث من تراكم بعض هذا العدد فوق بعضه بلا فاصل ، حجم أكبر من الشمس ، التى هى أكبر من الكرة الأرضية مليونا ومائتى ألف مرة .

يضع حى من الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة ، وينتج سبعين بطنا فى العام ، فيبلغ مقدار ما ينتجه فى عام $(10^{10} \times 25)$ أى حاصل ١٠٢ صفرا إلى يمين العدد ٢٥ . ولو فرض حجم الحى ميكرونا $(\dots\dots\dots 10^{-6} \text{ من المتر})$ مكعبا ، فالحجم الناتج من تراكم بعضها فوق بعض بلا فاصل ، يكون مكعبا فى ضلع ما يقرب من ثلاث تريليونات سنة ضوئية . على حين أن قطر المجرة التى تدخلها مجموعة شمسنا ما هو ، على قول پوانكارى ، إلا نيفا وتسعة آلاف سنة ضوئية . [ذكرت تقدير پوانكارى للتزويد بفكرة ، وإلا فقد رُصد بأحدث وسائل المساحة ، كواكب تبعد مسيرة مليون سنة ضوئية] .

وتناسل الأحياء المائية والنبات وتكاثرها على هذه الصورة . ويفهم من هذا أنه إن لم يكن الموت ، فتناسل الحيوان والنبات يجعل الحياة مستحيلة ، ويبيد ملك الخليقة . فلهذا تقوم الحياة على الموت ، وعلى الموت غير الطبيعى . وتجربى وفرة التناسل على نظام خطر فى الأحياء الدنيئة والنبات ؛ ولهذا تتم الموازنة بكون الصغار طعاما للكبار .

إنما قصد بإيراد هذه الأرقام ، تزويد أرباب التأمل والبصيرة من القراء الكرام بفكر إجمالى ، ومثال علمى عن عظمة الخليقة وحكمتها الباقية ، وعن النكت الدقيقة حول قانون الطبيعة . ويمكن أن يقال « إننا إن سلمنا بكون الإفراط فى التناسل إلى حد يفوق تصور كل شخص فى بادئ الأمر ، يكون سببا للمقاتلة ، فإنه يلزم التسليم بأسباب خفية صحيحة غير مفهومة بعد ، وبأسباب لن تفهم للتناسل المعاجل السريع .

(تَحَلَّ ما ذكرت من الأرقام الحيرة للعقول بالحساب البسيط . وأما إنتاج زوج من الذباب ، عشرين مليوناً من الذرية في عام ، ووضع الأحياء الدورية ثلاثين بيضة مرة واحدة ، وإنتاجها سبعين بطناً في عام ، فن الحقائق التي أظهرها علماء الحيوان بتحقيقاتهم وأبحاثهم الدقيقة) .

(٤٤) ص ٧٩ : إن الأشخاص الذين باحثهم في هذا الموضوع ، لم يقدروا على إدراك وقوع الإلهام للناس من الله . ولم لا ؟ لا يستطيعون إيضاح ذلك . من يفكر تفكير الإنسان يحس ويصدق وجود ميزات كثيرة للإنسانية ، تفوق بها على سائر المخلوقات . ولا جرم أن تفكير الإنسان في مثل هذه الشؤون العلية دليل كاف على شرف نوع البشر وميزته . فلا معنى للفرض والتصور بأن الله خلق عباده المختارين ثم تركهم وشأنهم . أيظن منكرو التدخل المعنوي في شؤون الناس ، عجز العلم والقدرة السبحانية عن الإحاطة بالفروع الكونية ؟ أم يستبعدون اختيار حافظ النظام جل شأنه أى نوع من التدبير للمحافظة على نظام العالم ؟ أم يفرضون تعطيل مكوّن الكون فعاليته بعد التكوين ؟ . إن مثل هذا التفكير لواه . وأذكر هنا بعض حوادث لإيضاح معنى لفظ الإلهام :

ذهبت إلى معان بأمورية مؤقتة ، في أثناء ما كنت في هيئة أركان حرية الجيش العثماني الخامس (جيش سورية) ، وكانت قافلتنا تسير حين العودة في ليلة مظلمة عن طريق « كرك - طفيلة » ، على ظهور دواب ضعيفة متعبة ، مرخية العنان لهذه الحيوانات النعسانة نحو الجهة المقصودة ، على زعمها . واستيقظت فجأة حوالى منتصف الليل ، فشرعت في مشاهدة السماء مستعجلاً . ولما لم أعر على النجم القطبي مع اتجاه طريقنا نحو الشمال ، أوقفت القافلة ، وفشت السماء حتى تحققت أن سيرنا كان إلى عكس الجهة المقصودة تماماً . حتماً أن دواب القافلة لم تغير وجهتها نصف دائرة مرة واحدة ، بل تحولت إلى العكس سائرة في قوس كبيرة بالتدريج ، ولكن أين جهة الانحراف ، أم المشرق أم المغرب ؟ ففي الشرق حتى العراق ، وفي الغرب

حتى بحر لوط ، لا يحتمل وجود بلدة أو جرعة ماء ، وربما عسر تمييز الطرق الصحراوية ، التي ليس بها ما يعين الاتجاه ، بل استحال ! وإذا طلعت الشمس فستكون في الصحراء قبورنا من العطش والأوهام ! وبينما كان الدليل يفهم هذه الحالة بلغة نصفها عربي ونصفها تركي ، متألما مرتاعا لاحظت شبعا بالجهة الغربية — وأنا قصير النظر قصراً شديداً ، وكاره استعمال النظارات — فأريته للدليل . فأسرع إليه ، ولم يمض غير دقيقة حتى بشرنا بصوته الجهوري ، باهتدائنا إلى الطريق . كان الشبح ضريح جعفر الطيار رضى الله عنه ، ومنه طريق آخر ذاهب إلى كركك ؛ وكنا انحرفنا عن طريقنا مسيرة ساعة إلى الغرب . فمن أيقظني بجوار هذا الضريح ، الذي يكاد يكون أمانة وحيدة في هذه النقطة من الصحراء ؟ ومن حفزني على مشاهدة السماء ؟ ولو استيقظت بعد ساعة لكانت القافلة كلها طعاما لوحوش الصحراء وحيواناته !

ومثال واحد لا يكفي لإخغام المعارضين : حدث في الشام أيضا ، أن أصيب واحد من أحب أصدقائي بمرض . ففي ذات ليلة قرر الأطباء عند الصباح انتهاء الأزمة وزوال الخطر ، فانسحبت مستريحا إلى غرفة نومي . وما نمت نصف ساعة حتى رأيت فيما يراه النائم رجلا ، متوسط القامة ، عريض المنكبين ، محمر الوجه ، قصير اللحية ، لابسا ثوبا نظيفا ظريفا في زى بين العلماء والدرأويش ، وجيها مهيبا محبوبا ، وقال لي : « قم فأنقذ صديقك ! » فاستيقظت مرتعشا وكأني رأيته خارجا من حجرتي ، فأسرعت حافيا إلى غرفة المريض . كان المريض مغشى عليه ، ومن حوله يحاولون إسعافه . فما أسرع ما أرسلت كل من بالبيت إلى بيت كل طبيب . ثم اندفعت عاريا مضطربا كمن به مس من الجن ، إلى منزل عثمان باشا رئيس أطباء الجيش ، وكان مقابلا لبيتي . فانتزعت المسكين من سريره ، وأخذته إلى المريض ، وأمكن تلافي الخطر بسرعة المداواة . لقد أجمع الأطباء على أن المداواة لو تأخرت بضع دقائق لما نجا المريض . فمن كان موقظي ومهيجي ؟

حدث أهم : عيّنت في سنة ١٩١٦ لقيادة الجيش الثاني المرسل نجدة للجيش الثالث ، على أن تشمل قيادتي كل الميدان الشرقي . ومنذ أواسط يولييه (تموز) ابتدأت حروب شديدة في جبهة الجيش الثاني ، وكان الروس يلقون بقواتهم التي سحبوها من خطوط جيشنا الثالث ، بعد أن شتتوا شمله ، على الجيش الثاني الذي احتشد ببطء شديد ، وأدخلت جميع قطعات الجيش الثاني خطوط القتال في بداية أغسطس ماعدا الآلى واحد احتفظ به احتياطاً خلف ربة تُدعى « قرا بابا داغى » . وكان قائد الجناح الأيسر لموقعنا ، حصل على معلومات دالة على هجوم الروس على موقعه ، فأخذ يطلب ملحا بإلحاق الآلى الاحتياط حالاً بالقوة التي يقودها ، وقائد الفرقة يؤيده في طلبه . لم أر هذه الأخبار خليقة بالثقة ، ولهذا تلكأت بضعة أيام في إسعاف الطلب . وفي ذات مساء انهالت على أخبار من جهات مختلفة ، فوافقت على إرسال الآلى بكرة الغد . إني ، بناء على تنبيه بعض الوقائع التاريخية ، أتخاشى في الأدوار المهمة للحرب — مهما بعدت ساحة القتال — خلع أثوابي ليلاً ، خشية التأخر في إبلاغ الأخبار . وفي تلك الليلة كذلك نمت ملتحفاً معطى الثقيل (يامچى) على مقعد كبير ، بجانب المنضدة بخيمة الأعمال . واستيقظت فجأة بحس غريب ، فانكبت على الخريطة ، وشرعت في بحث الموقف بصفاء ذهن تام . فقرر أنى من جديد على عدم وجود احتمال كثير لوقوع هجوم حقيقى على جناح جيشنا الأيسر ، ولو وقع فلن يكون وخيماً ، على حين أن « قرا بابا داغى » مفتاح مواقعنا كلها ؛ فأسرعت إلى التليفون ، وأمرت قائد الآلى ألا يتحرك من مكانه . وفي الصباح التالى انهالت الطلبات بسوق الآلى الاحتياطى إلى نهاية الجناح الأيسر ، فمجزت عن مقاومة إصرار المظلمين على الوقائع عن كئيب ، ورضيت بارتحال الآلى ، لبرقية تلقيتها وقت الغروب . تحرك الآلى بسرعة بدون النظر إلى الظلام ، إلا أنه لم يكد يقطع كيلو مترين حتى اضطر إلى التوقف لالتواء الطريق ووعورة الأرض ، انتظارا لطلوع

القمر . ولما طلع القمر كان الروس يقومون بهجاتهم الحقيقية على « قرا بابا داغى » ، وقد استولوا على مواقعنا المستحكمة ، فلم ينقذنا منهم إلا الهجوم المقابل ، الذى قام به هذا الآلاى على جنبهم ، وهم يحاولون الاستيلاء على الربوة التى كانت نقطة ارتكازنا . فلوارتحل هذا الآلاى قبله بيوم ، لسقط « قرا بابا داغى » وانشق ، خط قتالنا ، وأصيب الجيش ، نظرا إلى وعورة الأرض ، بهزيمة منكرة ، واحتلت الأناضول ، وقُطِعَ خط رجعة الجيش الذى كان ببلاد العرب انقلبت الآية ببقائه فى موضعه : طرد الروس وسفوا بخسائر فادحة فى أثناء تراجعهم ، فلم يقدرُوا على استئناف هجومهم . من الذى أيقظنى من النوم ومن الغفلة قبل هذه الموقعة بأربع وعشرين ساعة ؟ قد حدث لى مثل هذا الحادث خمس مرات أو عشرًا فى أثناء حياتى . ومما يجدر بالذكر عدم تقدير أهمية هذه الحالات حين وقوعها ، ولعل هذا هو السبب لنسيان كثير منها . ولكنى واثق من أن كل امرئ اعتاد التأمل فى حياته ، وخاصة كل جندى ، يصادف بضع حوادث مثلها حين يراجع ماضيه فى ذهنه ، وأما حملها على اهتزازات ذرات وحجيرات دماغ مضطرب بأفكار المستقبل ، أو ما شاكلها ، فما هو إلا هذيان ، كما أن تشبيهه بالحس قبل الوقوع ، لا يحل المشكلة . لأن حقيقة هذا الحس لم يفسر بعد تفسيراً مادياً . فلاأحوال المجهولة الماهية كهذه ، هى أثر من آثار قوى غيبية ، وسيالات لطيفة .

إن هذه الحالة الروحية التى تظهر فى كل إنسان قليلاً أو كثيراً ، إذا سميت ما بلغ منها الكمال وحيًا ، لم تبعد عن الحقيقة ؛ وإن هذه التلقينات أثر قوى متوسطة تسمى ملائكة بلسان الشرع . وكما أن الله هو السبب الأول لكل أمر ولكل حال من المكوّنات المادية ، التى تظهر باجتماع من قوى وأسباب متوسطة وتالية ، فإن مدبر هذه التلقينات كذلك هو الله ذو الجلال .

إنى أكرر فأقول لما كانت كيفية الوحي أيضاً من الأسرار السبحانية ، فلا يتسع لها علم الإنسان وإدراكه ، فلذا لا نكون بهذا التشبيه قد قلنا بإيضاح وجه

الوحي وصورته ، وكنهه وحقيقته ، وإنما أظهرنا تفاهة أقوال المنكرين القائلين باستحالة وبطلانه .

(٤٥) ص ٨١ : فكرت بعض زوجاته الطاهرات الانتفاع بالثروة والزفافية التي اكتسبها المسلمون بعد الهجرة ، ففاحت رسول الله صلى عليه وسلم في ذلك . فأجاب بما معناه : « لا يجتمع حريم النبي ونعيم الدنيا ؛ فمن رغبت في النعيم فلتتركني » .

(٤٦) ص ٨٢ : أنقل الكلمة الآتية عن مبحث القرآن في دائرة المعارف البريطانية لمناستها الموضوع : « والحق أن محمدا اجتهد في الله ، وفي نجاة أمته ، وبالأصح اجتهد في سبيل الإنسانية جمعاء ، ولم يفقد قط إيمانه بصحة واجبه المقدس » .

ذكرت التعاليم القرآنية مختصرة في الفصل الثالث من كتاب « الإسلام » ، للأستاذ إدور مونت ، ثم قيل : « نشأ من هذه الإصلاحات ما لا حصر له من الترقيات . فخليق بمحمد أن يعد من أكبر المنعمين على الإنسانية والعاملين على خيرها » .

فليقارن هذه التقديرات المأدلة التي أبداه علماء أغراب من النصارى المنكرين للإسلام ، في حق نبينا ، بالآراء السخيمة ، والأقوال الوقحة الظلمة ، التي يتفوه بها بعض الجهال المدعين العلم من المولودين في الدين الإسلامي ، فاعتبروا يا أولى الأبواب ! (٤٧) ص ٨٤ : أسند سنت پول صفة البنوة إلى عيسى عليه السلام بعد الرفع بنحو عشرين عاما . وتبين عقيدة الإسلام في عيسى بالآية الكريمة الآتية : « يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيرا اسمكم ، إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيفا — سورة النساء ، الآية ١٦٧ » .

كانت عقيدة مذهب التوحيد الذى دعا إليه « آرمان » فى أوائل القرن الثالث الميلادى ، متفقة فى الجملة مع الآية الكريمة التى نزلت بعدها بثلاثة قرون أو أربعة . وردّ مجلس رهبان (قونسيل) مدينة أزينق هذا المذهب ، بالرغم من تأييد إمبراطور روما الشرقية وكثير من الملوك له . ومع ذلك ظلت هذه العقيدة سائدة زمانا طويلا ، وكان دخول أهالى البوسنة وألبانيا بسهولة فى الإسلام من اعتناقهم لهذا المذهب سابقا .

(٤٨) ص ٨٤ : كان تأليه العطاء عادة شائعة فى زمن الجاهلية ، فبوذا (اسمه الأصلى غوتانا) الذى ظهر قبل المسيح بستة قرون ، كان ابن أحد الأمراء المشهورين بالهند ، وتأثر بما شاهد من مناظر الفقر والمسكنة فى أثناء تنزهه ، فهجر داره وزوجه وابنه المولود حديثا ، مؤثرا الفرية والاعتكاف وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ثم شرع بعد مدة من الزمن ، فى إرشاد الناس ومعه خمسة من رفاقه . ولقبه معاصروه فى حياته بلقب « بوذا » أى النبى . وكان بالهند عقيدة تقول بظهور رجل ممتاز حينما بعد حين يُدعى بوذا لتلقين البشر الحُكم الإلهية . ولكن لما مات هذا الرجل العظيم المخلص فى أثناء حياته ، اختلق خلفاؤه أنواعا من الأساطير فى شأنه ، وأدخلوه ضمن الآلهة التى لم يكن يُسلم بها .

ومنذ نيّف وثلاثة قرون قبل المسيح اغتر إسكندر ذو القرنين بانتصاراته الحربية ، فادّعى بأنه ابن « زيوس » ، وأنبا كهنّة مصر بأنه ابن « آمون راع » مسندين ذلك إلى وحى « آمون » .

وادعى قيصر (شزار) دكتاتور روما الشهير قبل نصف قرن من الميلاد أن أسرة « يوليوس » التى ينتمى إليها من أولاد الزهرة (فنوس) . وألّه الرومان الإمبراطور أوغست (أوكتاف) بعد موته قبل رفع عيسى بقليل (Apsthestiser) . ومن قبل ذلك ادّعى نمرود والفراعنة الاتناء إلى الألوهية ، كما مال أباطرة

روما إلى هذا اليوم . حتى إن الحكام في أوروبا كانوا إلى زمن قريب ، يُعدّون أنفسهم مفوضين من الله .

كانت عقيدة التثليث موجودة بالهند من قديم الزمان ، وخاصة في مذهب براهما . وامتد ثلاثة قرون قبل المسيح روج بطليموس الأول مذهب التثليث المؤلف من أوزيريس (الأب) وإيزيس (الأم) وهوروس (الابن) بالإسكندرية . وقد قصد بذلك استمالة المصريين الذين جلس على عرش بلادهم ، بالتأليف بين عقائدهم وبين عقائد المقدونيين .

تدل هذه الأنباء على ميل الأفكار العامة في عصر عيسى عليه السلام إلى تأليه الأعظم وتثليث الأقانيم ، على حين تنحصر عقيدة التوحيد في شعب صغير ضعيف .

(٤٩) ص ٩٣ : ورد في كتاب مترجم إلى التركية من تأليف المستشرق الدكتور دوزي المعروف بعدائه للإسلام « أن حالة الاستغراق التي شوهدت عند النبي ، كانت ناشئة من مرض يُطلق عليه المستريا العضلية ، وأن نوبات هذا المرض تجلو ذهن جلاء خارقا للعادة » . وأسند رأيه هذا إلى تشخيص الحكيم الألماني الشهير شبرنجر (Springer) .

إن تشخيص مرض رجل بعد موته بثلاثة عشر قرنا خلاق بأن يُعد من عجائب العصر . ومع ذلك أن مرضا لا يضر بصحة المريض وبدنه ، على حين يُخرج للناس في أثناء نوباته وهذيانه ، كتابا يجمع شمل قوم في الدرك الأسفل من الجهل ، ويمدّنهم ويكوّن منهم أمة ودولة عظيمة ، ويحدث في العالم طرا انقلابا خيرا نافعا ، ويفحم أدياء العالم وشعراءه ، ويدعهم حيارى مبهوتين — إن مثل هذا المرض ليقبل بالترحاب بكلمة عُقبى لنا . فيا ترى ، كم مريضا فخص عنه هذا الحكيم ممن ابتلوا بهذا المرض ، فأتوا بمثل هذه الخوارق ؟! فلو اتخذ منهم مصلا وطعم به زعماء الأمم وحكامها ، ألم يكن قد قام بخير خدمة للإنسانية ؟

(٥٠) ص ١٠٠ : يصوّر الأوربيون عقيدتنا في اللوح المحفوظ في صورة مادية جدا ، فيقولون إننا نعتقد بأنه مزين بالأحجار الكريمة . والأمر ليس كذلك ؛ فإن اللوح المحفوظ ، لم يرد ذكره في القرآن الكريم إلا مرة واحدة في الآية الكريمة : « بل هو قرآن مجيدٌ في لوح محفوظ » .

(٥١) ص ١٠٠ : لتنوير هذه المسائل أنقل من رسالة الزوراء والخوراء لجلال الدين الدواني [ترجمها شيخ الإسلام موسى كاظم إلى التركية بحواش وتعليقات قيمة] التشبيه الآتى : « إذا أخذت امتدادا مختلف الأجزاء في اللون كخشب أو خيط ، اختلف اللون في أجزائه ثم أسررت في محاذاة ذرة أو غيرها مما يضيق حدقه عن الإحاطة بجميع ذلك الامتداد ، أليس تلك الألوان المختلفة متعاقبة في الحضور لديها لضيق حدقتها ، ومتساوية في الحضور لديك لقوة إحاطتك ؟ » وإذا وسّع هذا التشبيه توسيعا غير متناه ، أى إذا اعتبر الفرق بين قدرتي الخلقين ، غير متناه بالنسبة لله سبحانه وتعالى ، فيستدل على كون أحوال العالم وشئونه — المنظومة الكونية الخليطة من الفضاء والزمان بناء على نظرية النسبية — محاطة دائما بالعلم الإلهي ، ومشمولة بنظره .

إنه وإن كان الإنسان لا يقدر على الإحاطة بهذه الحالة وتصورها برغم هذا الاستدلال وهذا أمر طبيعي ، إلا أنه لا شك في أن الفاني لا يدرك السرمدية ، ولا يدرك الخلق صر الخلق وعلم الخالق .

(٥٢) ص ١٠٢ : استصوبت ترجمة البيانات الآتية من كتاب « محاوره جوته مع أكرمان » لاحتوائها على نكت متصلة ببحثنا . قال جوته : « لفهم ارتباط الأديان بعضها ببعض يجب عليكم الاشتغال أربعمائة عاما بدرس تاريخ الأديان والبحث فيه كما فعلت . إن ما يبدأ الحمديون بتعليمه في تربيتهم الفكرية خليق بالانقباض . فهم يثبتون في أذهان شبابهم عقيدة أنه لن يصيبهم أمر لم يقدره الله الذي يدبر الأمور بإرادته — وهذا أساس دينهم — منذ الأزل ؛ فلهاذا يقاومون في كل

حياتهم مستريحين . لا أريد التكلم في صواب هذه العقيدة أو خطئها ، ولا في فائدتها أو ضررها . غير أن لها أثراً فينا أيضاً بدون تعليمنا إياها ، فكل جندي ذاهب إلى حرب يقول : « لن تصيبني طلقة لم يكتب عليها اسمي » ؛ فكيف كان يستطيع هذا الرجل المحافظة على رباطة جأشه ومهارته بإزاء المخاطر الهائلة ، بدون هذه العقيدة ؟ أفلا تكون عقيدة النصرانية « لن يسقط فرخ عصفور من سطح دون مشيئة أبيكم — الله » مترشحة من المنبع نفسه ، ومتضمنة تصديق حكمة بالغة ، وهي عدم حدوث أمر دون إذن من يعرف الأمور كلها ومشيئته ؟

(٥٣) ص ١١٠ : فأنقل هنا تبركاً بعض آيات كريمة ، وأحاديث شريفة ، متعلقة بالمعائد والأحكام والأخلاق الإسلامية ، وهي : « الذين يؤمنون بالغيب ويطيعون الصلاة وما رزقناهم ينفقون . والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » سورة البقرة . و « قل تعالوا أنل ما حرّم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا السكيل والميزان بالقسط ، لا تكلف نفساً إلا وسعها . وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصّاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله . ذلكم وصّاكم به لعلكم تتقون » . [سورة الأنعام . والأوامر الإلهية التي في هذه الآيات الثلاث ، هي لب الوصايا التي في التوراة] . و « من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها » . و « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » . و « لا تطيعوا أمر المسرفين ، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون » . و « وشاورهم في الأمر » . و « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة » . « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . و « إن الله

يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ ،
يَعْظُمُ لِعَلِّكُمْ تَذَكَّرُونَ . » و « اعدلوا هو أقرب للتقوى » . و « لن تنالوا البر
حتى تُنْفِقُوا مما تحبون » . و « للمتقين الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين
الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين » . و « جزاء سيئة سيئةً مثلها
فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين » . و « خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهلين » . و « ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا الذي بينك وبينه عداوة
كأنه ولي حميم » . و « اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا
ولا يقبب بعضهم بعضا » . و « تعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الإثم
والعدوان » . و « اصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » . و « وأن ليس
للإنسان إلا ما سعى » .

والأحاديث الشريفة

« أشرف الإيمان أن تحب الله ، وتبغض الله ، وتعمل لسانك في ذكر الله عن
وجل ، وأن تحب للناس ما تحب لنفسك ، وتكره لهم ما تكره لنفسك ؛ وأشرف
الإسلام أن يسلم الناس من لسانك ويدك » . و « لا يستكمل العبد الإيمان حتى
يحب لأخيه ما يحب لنفسه . وحتى يخاف الله في مزاحه وجده » . و « إن الرجل
لا يكون مؤمنا حتى يكون قلبه مع لسانه سواء ، ويكون لسانه مع قلبه سواء ،
ولا يخالف قوله عمله ، ويأمن جاره بوائقه » . و « يا أيها الناس أخلصوا أعمالكم
لله ، فإن الله لا يقبل من الأعمال إلا ما خلس » . و « الله في عون العبد ما كان
العبد في عون أخيه » . و « يا أيها الناس اتقوا الله ، فوالله لا يظلم مؤمن مؤمنا
إلا انتقم الله منه يوم القيامة » . و « اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا ، فإنه ليس
دونها حجاب » . و « رأس العقل بعد الدين التودد إلى الناس ، واصطناع الخير إلى
كل بر وفاجر » . و « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ؛ ولا تجسسوا

ولا تَنَافَسُوا ولا تَبَاغَضُوا ولا تَدَابَرُوا ، وكونوا عباد الله إخواناً . و«حسن الظن من حسن العبادة» . و«إن حقاً على المؤمنين أن يتوجع بعضهم لبعض ، كما يألم الجسد للرأس» . و«مثل المؤمنين في توادهم وتراحيمهم وتعاطفهم مثل الجسد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» . و«فعلبيكم بالجماعة» . و«الدال على الخير كفاعله ، والدال على الشر كفاعله» . و«أحب الجهاد إلى الله كلمة حق تُقال لإمام جائر» . و«العفو أحق ما يُعمل به» . و«ومن عفا عند المقدرة عفا الله عنه يوم المعصرة» . و«أبغض الرجال إلى الله تعالى الألدُّ الخَليص» . و«العفو لا يزيد العبد إلا عزاً ، فاعفوا يُعْزَمَكم الله ؛ والتواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله» . و«البر ما يطمئن إليه القلب وإن أفْتُوك وإن أفْتُوك» . و«البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس» . و«تمام البر أن تعمل في السر عمل العلانية» . و«حسن الخلق خلق الله الأعظم» . و«إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم ، فسعُوهم يبسط الوجه واخلق الحسن» . و«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» . و«ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا» . و«الحياء من الإيمان» . و«الحياء والإيمان قرنا جميعاً . فإذا رُفِعَ أحدهما رُفِعَ الآخر» . و«الحياء خير كله» . و«الحياء لا يأتي إلا بخير» . و«خصلتان لا تجتمعان في مؤمن : البخل وسوء الخلق» . و«ما بحق إسلام بحق الشح بشيء» . و«ما عال من اقتصد» .

(٥٤) ص ١١٣ : هناك من يعترض على بساطة المعتقدات الإسلامية ، بالقياس إلى تعاليم سائر الأديان ، ولكنني أظن أن الحقيقة في البساطة .

(٥٥) ص ١١٤ : لا أدري هل يسلّم التاريخ الحديث ، المستند إلى الحفريات والتحقيقات والتجارب ، بالتاريخ المقدس برُمته ، فيتجشم مشقة البحث عن أنبياء بني إسرائيل ، الذين لم يكونوا ملوكاً ؟ ثم هل إثبات أن أولئك الأنبياء كانوا مبعوثين من الله ، وأن رسالتهم حق لا ريب فيه ، مسألة من المسائل التاريخية ؟

(٥٦) ص ١١٥ : أنقل هنا أسطرًا عن مبحث فلسفة القرآن ، من كتاب

حضارة العرب لجُستاف لوبون، قال : « إن رجعنا إلى تعاليم القرآن الأساسية ، نجد الإسلام صورة مَهْدَبَةٌ للنصرانية ؛ ومع ذلك فهو يفترق عن النصرانية في عدة مسائل ، وخاصة في نقطة أساسية ، وهى التوحيد المطلق . فإن إله الإسلام الواحد يَخْلُقُ متعالياً فوق كُلِّ شَيْءٍ ، مَنْزَهاً عن الإحاطة ، وعن صحبة الملائكة والأولياء ، ومن تراهم الأديان الأخرى من الأشخاص الخليقين بعبادتهم . فللإسلام الحق في أن يدعى بأنه أوَّلُ دين نشر التوحيد الخالص المطلق في العالم كله . (بيد أن القرآن قد استغنى عن هذا الشرف ، وعرفنا بأن الأديان الحقّة التى تقدمته ، كانت أيضاً تدعو إلى التوحيد) .

« إن بساطة الإسلام العظيمة ناجمة عن هذا التوحيد الخالص ، وسرُّ قوته مندمج في هذه البساطة ، فالإسلام يُفْهَمُ بلا عناء ، ولا يعرض على معتنقيه أسراراً متناقضة مع العقل السليم ، كسائر الأديان . وليس للإسلام إلا إله واحد معبود ، يتساوى عنده الناس جميعاً . وله تعاليم وأحكام بسيطة واجبة الرعاية ، إن رُوِعت واتُبِعَتْ فجزاؤها الجنة ، وإن أنكرت وأُهمِلَتْ ، فمقابها النار . فليس في الإمكان أن تكون عقيدة أبسط منها ، وأبعد عن التناقض . كل مسلم يعلم ما يؤمن به مهما كانت طبقة التى ينتمى إليها ، ويُعرِّفُ عقيدته بعدة كلمات بلا مشقة ، فى حين أنه يجب على كل نصرانى أن يكون متكلماً ، واقفاً على دقائق علم الجدل ، أى أن يكون عالماً دينياً ، حتى يستطيع البحث فى التمثيل والاستحالة (القرآن المقدس ، تحوُّل الخبز والخمر إلى دم عيسى) وغيرها من الأسرار .

« لاشك فى أن امتزاج هذا الوضوح ، وهذه الصراحة ، والشعور بالعدل والرحمة اللذين يَعْلَمُهُما ، كان له أثر كبير فى سرعة انتشار هذا الدين فى الدنيا . إن عدم تنصر أى قوم مسلمين ، سواء انتصروا أو انهزموا ، مع أن أقواماً لم تسكد تبلفهم الدعوة الإسلامية حتى اعتنقوها ، كالمصريين الذين ظلوا أمداً طويلاً تابعين لاقسطنطينية ، يستتر سببه فى تلك الأوصاف التى وُصِفَ بها الإسلام .

« لأجل الحكم بنفع كتاب ديني وفائدته ، ينبغي ألاَّ يُنظر إلى ما فيه من المباحث الفلسفية الضعيفة عامة — أى في كل الأديان — بل يجب أن يُتخذ الأساس والدليل من التأثير الذي تحدثه تعاليمه . وإذا بُحِث من نقطة النظر هذه ، فالإسلام يُعدُّ أهم الأديان المسيطرة على الأرواح . إنه لا يلقن أتباعه أمورا جديدة غير ما ورد في أحكام سائر الأديان ، من الشفقة والعدالة والعبادة ، ولكنه يعلم هذه الأمور بطريقة بسيطة ، صالحة لفهم كل الناس ، ويلقن الروح إيمانا كاملا ، لا يدع مجالاً للشك .

« كان تأثير هذا الدين المادى والسياسى جدَّ عظيم في العالم . فقد كانت جزيرة العرب قبل محمد بلاداً وبادىً مستقلة ، منفصلا بعضها عن بعض ، تسكنها قبائل وعشائر يتقاتل بعضها مع بعض قتالا مستمرا ؛ حتى إذا مضى قرن على البعثة ، امتدت الدولة العربية من الهند إلى أسبانيا ، وأضاء نور المدنية كافة البلاد والأمصار التى يخفق فيها اللواء المحمدى . وكان سبب هذا ملائمة الإسلام للمكتشفات العلمية ، ومسايرته لها ، وتلقينه الناس حسن الخلق والشفقة والعدل والسماح .

« أما من نقطة النظر الفلسفى ، فعقيدة « بوذا » أسمى بكثير من عقائد الأديان السماوية . ولكن مسَّت حاجة إلى تبديل فلسفته تبديلا تاما ، لكي تكون صالحة لإدراك العامة . وأما فى شكلها الحالى المبدل ، فمن الواضح أنها دون الإسلام بكثير . (العقيدة البوذية هى فلسفة وحدة الوجود . لقد وازناها سابقا بالفلسفة الإلهية وناقشناها . ولكن هل تُتصور الحقيقة والقيمة لفلسفة بدلت مبادئها ، لكي تكون نافعة وممكنة التطبيق ؟)

« والحضارة التى وضعها تلاميذ محمد (صلى الله عليه وسلم) اقترنت بمواقب كل مدنية سبقتها ، وهى : الظهور ، والتقدم ، والرقى ، والكمال ، ثم الزوال . لقد قلبت الحضارة الإسلامية ما سبقها من الحضارات إلى غُبار ، ثم أدركتها العاقبة نفسها . بيد أن الزمان لم يقدر على إفناء تعاليم الرسول ، بل وقاها وقواها ، حتى

عادت أكثر حيوية ونشاطا من كل وقت مضى . فالقوانين الحميدة لا تزال محتفظة بكُل قواها ، بينما الأديان القديمة مستمرة في فقد حكمها وتأثيرها في الأرواح يوما بعد يوم . »

(٥٧) ص ١١٨ : ذكر القرآن الكريم الأديان السامية مرات كثيرة ، على حين لم يذكر شيئا عن مراسم « براهما » و « بوذا » و « زردشت » وغيرهم ، ممن تُعتقد أديانهم في الشرق . وحاول بعض المعارضين حمل هذا على جهل الرسول بتلك الأديان ، والاستدلال به على أن القرآن لم ينزل من الله ، وأن الإسلام ليس ديناً عالمياً . بيد أن القرآن قد بين أولاً أن الإسلام يوافق أسس ملة إبراهيم عليه السلام ، فليس في وجود مباحث مقتبسة من التوراة والزبور في متن القرآن ، ما يناقض المنطق . وثانياً ، إن كان يستفاد من تحقیقات بعض العلماء احتواء العقائد الشرقية ، على آراء فلسفية عميقة ، فإنه من الواضح كذلك أن تلك المراسم ليست سوى الوثنية ، إذا نُظر إليها من الوجهة الدينية . وقد مُنعت الوثنية في القرآن منعاً باتاً ، ولم تذكر فيه المراسم الوثنية ، التي كانت ببلاد العرب نفسها ، بل التي كانت بمكة أيضاً ، حتى يُستغرب من عدم ذكر المراسم الوثنية البعيدة عنها كل البعد ! من الغريب أنه قد ادَّعى بعض المعارضين في زمن الرسول ، أنه تلقى القرآن من أسيرين ، أحدهما نصراني ، والآخر إيراني . على حين أن ظهور كتاب عربي أعجز شعراء العرب عامة ، من أسيرين أعجميين مستحيل تماماً . والآن يُذكر عدم علم ذلك الأسير ناظم القرآن — حاشا لله — بما كان ينبغي له أن يكون معتقداً وواقفاً عليه من العقائد الشرقية ، وعن عدم اطلاع محمد صلى الله عليه وسلم عليها بالتبع . هكذا تنفاقض الإسنادات والافتراءات المفترضة ، وتنبوع المنطق !

(٥٨) ص ١١٩ : ومسألة خلود العذاب الإلهي أو عدم خلوده على الإطلاق تختلف فيها بين أكابر الأمة . فقد ذهب الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي ، إلى أن أهل النار يُعذبون فيها مدة من الزمن ، ثم ينجون من العذاب ، منقلبين إلى

الطبيعة النارية . وبناء على قول ابن عمر وابن مسعود وأبي هريرة رضى الله عنهم ، أن الله يرفع العذاب بإفناء نار جهنم . وهالك موجز الأدلة المسرودة في هذا الشأن :

فأولا : نظرا إلى مضامين الآيات القرآنية المتعددة ، أن الغاية من الخلق والأمر هي الرحمة ، والرحمة الإلهية أوسع من كل شيء ، وأسبق على الغضب الإلهي ؛ ولو كان العذاب أبديا لكان منافيا للرحمة ، وهي الأصل في الخلقة . وبما أن العذاب قد خُلِقَ لغاية محدودة ، كزجر النفوس ، فلا تبقى حكمة في إدامته ، بعد أن تتم تلك الغاية . والأفعال الإلهية لا تكون منافية للحكمة .

وثانيا : قُيِّدَ العذاب في آيات كثيرة بالمشيئة الإلهية . والمشية سبحانه مقترنة بالحكمة والرحمة بالطبع ، والآية « لاثنين فيها أحقابا » مؤيدة لهذا الرأي ، أى أنها تدل على حصر العذاب في مدة معينة ؛ وليست الآيات الكريمة خاصة بالموحدين . وفي القرآن آيات كثيرة تبين الخلود في النار ، بيد أنه ليست فيه آية واحدة تتضمن خلود النار نفسها . ومعنى الخلود المكثُ المديد ، ولا يفيد الأبدية . وبالعكس من ذلك آيات كثيرة تنبئ عن نعيم الجنة ، وتصفها بصفات الخلود والأبدية ، نحو قوله : « عطاء غير مجدوذ » ، وقوله : « إن هذا لرزقنا ما له من نفاد » ، وقوله : « لهم أجر غير ممنون » (غير مقطوع) ، وقوله : « خالدين فيها أبدا » ، وغيرها . وبما أن النعمة تقتضى الرحمة ، فينبغى أن تكون غائية وأبدية .

وثالثا : لقد ورد في القرآن مرات أن الله لا يخلف وعده ، وليست به إشارة واحدة دالة على عدم خُلْفِهِ في وعيده . والرجوع عن الوعيد كرم ، والله أكرم الأكرمين ، وأرحم الراحمين .

تلكم هي آراء عظماء الأمة الحمدية في العذاب .

(٥٩) ص ١٢١ : الأحكام الأساسية للعهد الذى عهده النبي صلى الله عليه

وسلم إلى رُهبان دير القديسة كثرينا بطور سينا ، ونصارى تلك الجهات عامة [من

كتاب « روح الإسلام » لأمير على الهندي] : لا تُفرض على النصارى جزية منافية للعدالة ، ولا يُخْرَج قَسٌّ من كنيسة يقوم بخدمتها ، ولا يُكره نصراني على تغيير دينه ، ولا يُخْرَج راهب من صومعته ، ولا يُمنع عن طريق حجه ، ولا تُهدَم كنيسة ، يُقيم جامع أو بيت للمسلمين مكانها . وللنصرانية المتزوجة من مسلم أن تبقى على دينها ، دون تعرض للاضطهاد من أجل دينها ؛ وإذا احتاج النصارى إلى العون على إصلاح كنائسهم أو صوامعهم ، أو في شأن من سائر شؤونهم الدينية ، فيعاونهم المسلمون ، ولا يُعد عملهم هذا مشاركة معهم في النصرانية . وإذا حارب المسلمون سائر النصارى ، فلا تتعرض النصارى الباقون بين القوتين المتقاتلتين ، للاضطهاد والمسئولية . ومن خالف هذا العهد من المسلمين عُدَّ خارجا على أمر الرسول .

وصايا أبو بكر الصديق العشر لقواد جيشه : لا تخونوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيرا ، ولا شيخا كبيرا ، ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرا إلا لما كلة ؛ وسوف تمرّون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم في الصوامع ، فدعّوهم وما فرّغوا أنفسهم له .

فاعتبروا يا أولى الألباب !

(٦٠) ص ١٢٣ : مقتبس من كتاب ما هو القرآن (قرآن نه در)

لعمر رضا بك .

(٦١) ص ١٢٧ : وقع نظري في الأيام الأخيرة على كتاب مخطوط خليف

بأن يسمى خزانة الحكم ، لما يحوى من الآيات الكريمة ، والأحاديث الشريفة ، وأقوال العظماء ؛ فاتضح لي — على ما فهمت منه — أن الدين للروح ، والعالم للعقل . وإذا أن العقائد الدينية لا يثبت إثباتها عقلا وعلمًا ، فلا بد من إقرارها عينا بلا تفسير ولا تأويل ، وبلا مناقشة ولا استدلال . وإن الاستدلال في الدين لم يكن معروفا

في صدر الإسلام ، وإنما اخترعه علماء الكلام فيما بعد ؛ وإن المنازعات الدينية والعلمية التي نشأت عن هذه السبيل ، أحدثت تفرقة وأضرارا عظيمة في الإسلام . ولكن الحديث الذي ذكره المؤلف مرّات ، وهو « دينُ المرء عقله ، ومن لا عقل له لا دين له » يثبت علاقةً جدًّا قديمة بين الدين وبين العقل ؛ كما أن قوله تعالى « لا إكراه في الدين » وغيره من الآيات الآمرة بالتذكر والتفكير والتعقل ، يستلزم وجوب الاستدلال العقلي .

إن الدفاع عن الدين بإزاء اعتراضات الملحدين ، وتعريضاتهم الموجهة باسم العقل والعلم ، واجب على كل امرئ ديني مثقف ؛ فإن المدافع عن فكرة ما بالأدلة والأقيسة العقلية ، يغلب من يحاول إكراه غيره على التسليم بمبدئه بلا حجة ؛ لأن الإنسان محبٌ للحرية فطرةً ، وراغب فيها ، ونافرٌ من الجبر والإكراه ، ومتألم منهما ، فلذا ترك آباء النصرانية الذين كانوا فيما مضى يدعون إلى التسليم بالعقائد الدينية بلا استدلال ، قانونَ الـ « كريدو » (Credo) ، وشرعوا في محاولة إثبات أن عقائدهم غير متناقضة مع العلم والفن ، وإن القائلين بمخالفة الدين للعلم ، إنما يقولون ذلك لجهلهم الأحكام والعقائد الدينية (الأب مورو « حدود الدين والعلم » ج ١ الفصل الأول) .

التزم مؤلف الكتاب المذكور مذهبيّ المجسّمة والمشبّهة ، فلمَّ بعدم إمكان تفسير المعاني الاشتقاقية والظاهرية لألفاظ القرآن والأحاديث ، ثم تصور من الآية : « ثم استوى على العرش » وأمثالها ، جلوسه سبحانه وتعالى على عرشه متكئا ؛ ومن « يد الله » وصفات السميع والبصير ، كونه ذا أعضاء وجوارح مثل الأعضاء البشرية ؛ وتصورَ من الآيات المبينة ليوم الجزاء ، وهيبة جمال الله وجلاله ، أنه جالس بين صفوف من الملائكة ، كما يجلس الملوك بين رجال حواشيهم في مراسم استقبالهم لرعايهم ، حاشَ الله ! ثم قال : تلکم حالات منافية للعقل ، ولا تُقبل إلا بدون تفكير وتعقل .

بيد أن اشتقاق كلمة « استوى » بمعنى الاستعلاء ، كما يراه علماء أهل السنة ، أو بمعنى الاستيلاء ، على قول آخر ، أقرب إلى الذهن من معنى جلوسه متكئا على كل حال . ويجوز عد مثل هذه الكلمات القرآنية من الآيات التي لم تبلغ فهم حقيقتها بعد ، كما كانت الآية : « وكلُّ في فلك يسبحون » غير مدركة بحقيقتها منذ أربعة قرون أو خمسة ؛ واستعمال كلمة اليد مجازا بمعنى القدرة والنفوذ والتدخل ، من البديهيّات البعيدة عن الاعتراض في جميع لغات الأمم المتمدينة . ولا يفهم من كونه تعالى سميعا بصيرا (أى من قدرة السمع والبصر) ، أن له عينين وأذنين مثلنا ! .

إن لغة مهما كانت غنية لا يمكن أن تستغنى عن الحاجة إلى المجاز والاستعارة ، ومحاولة سلب أية لغة إياها ، معناه تضيقها معنى ، وتنزيل مكاتها إلى درجة التوحش والبداية ؛ فهل يقبله أصحاب العربية الأصليون ؟

(٦٢) ص ١٢٨ : يرى بعض الفلاسفة والحكماء ، وفيهم المحققون كسبنسر وجستاف لوبون : « إن الديانة التي بدأت أولا بالمبالغة في مناقب الجد الأول ، أو رؤساء القبائل الخالية ، انتقلت متزايدة إلى الخلف . ومن مبالغة هؤلاء في تعظيمهم له ، أو توهّمهم بقوة خفية فيما وراء كل شيء ، وخوفهم منها ، ظهرت في صورة التبعيد ، أى في صورة الوثنية ، دفعا لأضرار تلك القوة الموهومة ، ثم انجرت إلى التثليث ثم التوحيد ، متطورة تطورا تدريجيا » .

أظن أن هذا الرأي نشأ ، لامن التحقيق في المسألة من مبدئها ، بل من وسطها ، أى من الزمن الذي علّمت فيه الأساطير المصرية واليونانية وغيرها ، أو استدلالا بعقائد القبائل المتوحشة الموجودة حتى اليوم . إذ قد ثبت بعد التحقيقات الأخيرة ، أن عقيدة الهند القديمة ، والشكل الأول للزرّدشتية ، وعقيدة الكلدانيين ، وحتى العقيدة السرية التي كانت تلقن في المعابد المصرية ، كانت مستندة إلى أساس التوحيد ، أو وحدة الوجود .

وإذ أننا نعتز بأن البشرية تصوّرت من العدم جدًّا أوَّل ، وألَّهُته
وقدست من جاءوا بعده ، بما أسندت إليهم من أوصاف فوق الطبيعة ، بما
يقرب من أوصاف الأوَّل ، وتصورت قوى خفية وأسراراً للخلقة ثم عبدتها ،
ونحمل هذا الفكر على سوق طبيعي ؛ فبناء على اجتهدى أن تصوّر هذا
الأمر بصورة أبسط ، أى بتصوره أنه بدأ بتصور خالق واحد ، أو مسبب أول ،
بدل تلك الصور الأسطورية الموهوشة ، وأن هذه البساطة الأصلية قد اختلطت
بما لقنها الكهنة فيما بعد — يكون أكثر ملاءمة للعقل ؛ وهذا الفرض يوافق النقل
أيضاً . ولما كان سنوح عقيدة أوَّلية كهذه لفرد ممتاز ، وذووعها وشمولها بواسطته
أقرب للعقل من سنوحها لجماعة برُمَّتْها ، تتحقق مسألة النبوة كذلك . إذن
فتأثير التطور في الفكر البشرى وذكائه ، يتجلى في درجة صحة التفسيرات
والإيضاحات والعلاوات التى قام بها أخيراً الكهنة والرهبان والمفكرون
والمفسرون وإصابتها .

(٦٣) ص ١٢٨ : بين خدّمة العلم والفلسفة كثير من حكماء اليهود ، وإنما
استعملت تعبير عالم النصرانية باعتبار الوطن .

(٦٤) ص ١٣٥ : انظر المعلومات الواردة في الباب الأوَّل عن الذرات
والأتومات ، وهى مقبولة لكونها طبيعية علمية . بيد أننا إذا فكرنا منصفين ،
فأية معجزة تحير العقل أكثر من هذا الأثر البدائى للخلقة ؟

(٦٥) ص ١٣٦ : وفى جملتها ما يقوم به بعض أهل الذكر من كشف
القبور ، أى ما يروى من اتصالحهم بالموتى . وليس لى علم نبأ مؤيّد لهذا فى القرآن ، ولا
فى الحديث ، كما أنى ليست لى تجربة خاصّة فى هذا الأمر ، لعدم اتّنائى لطريقة من
الطرق الصوفية ، ولعدم ممارستى مناجاة الأرواح (Spiritisme) ، فلذا لا أعد
هذه الرواية سوى قضية محتملة للصدق والكذب . وأما المثقفون منا فيرونها
عديمة الإمكان ، إلى حدّ أنهم لا يكتفون بتكذيب رواياتها بلا تردد

فحسب ، بل ينكرون الدين كذلك ، لكون أولئك الرواة من أهله ؛ على حين أن علامة كاراجو (Arago) لا يراها غير ممكنة . وأما كميل فلا ماريون الذى بذل خمسين عاما من عمره فى البحث فى هذه السبيل ، فيقول بعد أبحاث وتحقيقات كثيرة : إن الروح الإنسانى يقوم بتجليات بعد الموت . وأما السير ويليام كروكس الشهير بمكتشفات واختراعات علمية ، فأعلن رأيه قائلا : « لا أقول إن هذه الكيفية ممكنة فحسب ، وإنما أقول إنها واقعة » . وقال السير أوليفر لوج الذى عُرف بمكتشفات ومخترعات فى الكهرباء والايون : « إني — بنية الخدمة — أتمنى ، متحملا ما أعرض له من الاستهزاء والتهمك ، تسليّة الأرواح الحزينة ، بالتكفل لها بإمكان الاتصال بالموتى » . وبينما هذه التصديقات تعتمد على تحقيقات وتجارب علماء قد اشتهروا فى العالم بكفائاتهم العلمية ، فليس للمنكرين دليل يردون به عليهم سوى ابتسامة مستهزئة ! .

(٦٦) ص ١٣٨ : رُوى أنه وجد فى الهند تمثال عليه هذا النقش « أنشئ فى عام شق القمر » ، واستدل بهذا على مشاهدة حادث شق القمر فى الهند كذلك . بيد أن هذه الرواية لم يمكن تحقيقها .

(٦٧) ص ١٣٨ : ليس الانشقاق انقسام الشيء إلى قسمين أو تقطعه أقساما . فقد يُشق قلم وينشق بدون أن تزول منه قطعة ؛ فيجوز إطلاق الانشقاق على انفجار البراكين وفورانها بشق قشورها .

(٦٨) ص ١٣٩ : ومع ذلك يظهر أحيانا شذوذ فى بعض قوانين الطبيعة ، ولم يُوصَل إلى كشفها حتى الآن ، فلذا تُظن مخالفتها للقاعدة الكلية ؛ فانبساط الجسم بالحرارة ، وانقباضه بالبرودة ، قاعدة كلية ؛ غير أن الماء ينبسط ابتداء من أربع درجات فوق الصفر ، وكلما تقدم نحو الصفر والناقص زاد انبساطا . وهذا الشذوذ نعمة سبحانه لوقاية حياة الأسماك فى بُحيرات البلاد الباردة وأنهاها ، ولوقاية أحياء البحار المتجمدة من الهجرة شتاء . ومن هذا القبيل شذوذ الخلقة الذى يبدو فى

التولدات . والواقع أن العلماء يحاولون تأويل هذه الأمور وتوجيهها ، ولكن هذه التوجيهات ليست ثابتة ثبوتاً كافياً ؛ فلا مانع إذن من عد المعجزات شذوذاً كذلك .

(٦٩) ص ١٤١ : أُلخِص هنا قصة رأيها في كتاب « أوراني » لكميل فلاماريون ، لتعلقها بهذا البحث : كان المستر روبر بروس ، وهو من أشهر أسرة اسكتلندية ، رباناً ثانياً لسفينة يجول بها حول جزيرة الأرض الجديدة (Terre Neuve) ، ورأى يوماً رجلاً لا يعرفه بجانب منضدة الرُّبان الأول يشغل بالكتابة ، فأسرع إلى الربان وأخبره بذلك . ولما قدما إلى الحجرة ماوجدا بها أحداً ، ولكن رأيا على لوح الأردواز هذه العبارة : « أديروا الدفة إلى الشمال الغربي » . فأسرعا بتفتيش كل أطراف السفينة ، واستجوبوا جميع العمال والنوتية الموجودين بها ، واستكتباهم ، فلم يعلم أحد منهم بما حدث ، كما لم يشبه خط أحد منهم الخط الذي على اللوح الأردوازي ، فلم يبق لهما إلا توجيه السفينة إلى الجهة التي أوصت بها الكتابة ، مهما كان الأمر . فما سارت سفينتهم مسيرة ثلاث ساعات ، حتى لقيت سفينة اصطدمت بجبل آيسبرج الثلجي ، فمجزت عن السير ، ونقلوا من بها إلى السفينة السليمة . وفي أثناء ذلك شبَّه المستر بروس رجلاً منهم بالرجل الذي شاهده في حجرة الربان ، واستكتبه على الأردواز نفس الكتابة التي كانت به . فإذا خط الكتابة الثانية هو خط الكتابة الأولى بعينه . ولما سئل رُبان السفينة المصابة عن ذلك الرجل ، قال : إنه اشتكى قبيل الظهر — أى ساعة مشاهدة المستر بروس إياه — من التعب ، واستغرق في النوم ، حتى إذا استيقظ ، أخبرنا « بأننا سوف نَنقُذ هذا المساء ، لأنني رأيت في منامي سفينة آتية لنجدتنا » ، وأن السفينة التي عرَّفها شبيهة بسفينة المستر بروس .

على أى شيء تُحتمل هذه الحال ؟ لقد قام فلاماريون باستقصاء هذه الحال وأمثالها أربعين عاماً أو خمسين ، ورويت له في ألوف الرسائل التي تلقاها من جهات

مختلفة حكايات محيرة للعقل . وثمة مئات من الرسائل تلقاها من مشاهير الرجال والنساء ، ومن القواد والزُّهبان والحُكَّاء والعلماء والأطباء والأدباء ، واستوثق منها ، ثم نشرها في بعض مؤلفاته . إن جرح هذه الروايات وتكذيبها دون تفكير ، يكون تهمة موجهة إلى كثير من عطاء الدنيا المعروفين بالشرف والأمانة . ولكن ماذا يقال في رجل وُلِدَ مُسلما يصدق هذه الروايات ، ثم ينكر بلا تردد وتأمل ما يروى عن نبيه ؟

(٧٠) ص ١٤١ : والدليل الذي يُورد على جسمانية المعراج ، هو ارتداد بعض الناس في ذلك الزمان غير مصدِّقين روايته ، وكأنهم ما كانوا يرتدُّون لو بُيِّن لهم روحانيته . فكيف يكون ارتداد بعض الجاهلين بالروحانيات ، دليلا على تضمن الخبر جسمانية المعراج ؟ وأنا أعتقد أن هذه الكيفية إنما تحفز علماءنا الدينيين لاجتناب الروايات الموجبة للارتداد . وهذه عقيدة عائشة وحُذيفة من أجلاء الأصحاب رضى الله عنهما ، فما مزيقتنا ؟

(٧١) ص ١٤٣ : يروى أنه أذن أخيرا بكتابة أحاديثه ، ولكن الرواية الأقوى أن هذا الإذن كان مؤقتا لزاثر فارسي .

(٧٢) ص ١٤٧ : نظرا لما ورد في كتب السير أن النبي لم يختَر لباسا معيناً . وكان يلبس الأثواب التي تُهدى إليه ، مما كان مستعملا في عصره في بلاد مختلفة .

(٧٣) ص ١٤٧ : ينبغي ألا يفهم من تعبيرى هذا أنى أريد فتح طريق لإنكار الحشر . فالشك في أن الله يبعثنا في صورتنا الحالية ، بعد الإيمان بأنه خلقنا هكذا ، ما هو إلا حمق .

(٧٤) ص ١٤٧ : انتشر في بلاد الغرب في السنين الأخيرة كتب بعنوان العلوم الخفية ، باحثة في تيوصوفى (معرفة الله) ، الذى تحدثنا عنه في الباب الأول ، يتوهم أصحابها أن للإنسان أربعة أجسام : فالأول جسمنا المادى المرئى ، والثانى جسم

نجمي غير مادي (Corps astral) ، والثالث جسم روحي (C. mental) ،
والرابع جسم علّي (C. Causal) ، وهو الجسم الذي يرجع به الروح إلى الوجود
المطلق . وأن الرؤيا الصادقة ، والحسّ قبل الوقوع ، واكتشاف المنوّمين
بالمغناطيسية الحيوانية بعضَ أمور غيبية ، ينشأ عن انفصال الروح عن البدن
الجسماني ، وقطعه المراحل بالجسم النجمي اللطيف .

إن مثل هذه العلوم والروايات لا تزال بعيدة جدا عن إفادة اليقين . ولكنها
تشير إلى أن عقيدة وجود حالات معنوية في الإنسان ، غير ما نشاهد من جسمه
الكثيف ، يقول بها كثير من المفكرين . والتوصوفى ومن فروعه التصورات
والظنون ، ليس أمرا جديدا ، وأمثاله متداولة في الشرق ، في الهند والصين ،
وحق في مصر واليونان منذ عهد بعيد . وأما في الغرب فيجد أتباعا جُددًا ويتطور .
إن هذه الأفكار والمعتقدات المتداولة بين الناس ، المستحسنة لدى كثير منهم ،
لا بد على قول سبنسر ، أن تكون فيها مَسْحَة من الحقيقة مهما قَلَّت .

(٧٥) ص ١٤٧ : لا يمكن إنكار تأثير الجسائية البشرية والبيئة والأطعمة
في روحانية الإنسان ومعنويته . فمن البديهي مشاهدة الضعف والخلل في عزم
امرئ مريض ومَلَكَاة العقلية . بيد أن الأصل في الهوية البشرية هو الروح .
ويمكن تصوير علاقة الجسم بالروح — على قدر الإمكان — بالمثال الآتي :
نفرض سفينة ، فسفرُها يُشَبَّه بوظيفة الإنسان الحيوية ، ورُبَّانها بالروح ،
وجسمها بالبدن ، ومحركها بالقلب ، وملاحوها ببعض الخواص الروحية ، ووقودها
بالطعام ، والبحر وسواحلها بالبيئة ، والأحوال الجوية بالقدر . فإذا كان الجسم
باليا ، والحرك مختلا ، والوقود ضعيفا ، والأحوال الجوية غير ملائمة ، فلن يتيسر
إحسان القيام بالوظيفة . ومع ذلك لا يكون أحد مسئولا أمام صاحب السفينة عن
نتيجة السفر سوى الرُّبَّان . يجوز أن يكون النقص في الاستعداد والمصادفات
السبئية عذرا في هذا ، بيد أن المسئول عن سوء استعمال سفينة سليمة هو الرُّبَّان .

(٧٦) ص ١٤٧ : قرأت مُسَوِّدة هذا البحث من كتابي على رَجُل مشهور بالتبحر في العلوم الدينية والعقلية ، فابتسم من إفاداتي أني معتقد أبدية الروح ، وقال : « إن رأيك هذا غير صحيح ، لأن الروح — ودعك من أبديتها — لا يمكن حتى ادعاء وجودها . وليست بالقرآن آية صريحة عن الروح . وإذا تحدث عنها أمام الماديين ، فليس الأمر مقصورا على أن لا سبيل للاتفاق بحسب ، بل لا سبيل لمداولة الآراء . » ويلوح أن هذا الفاضل يتقدم في الشجاعة المدنية وحسن النية الباحثة عن الوفاق ، حتى يأمل في إمكان التوفيق بين الإسلام وبين كافة آراء الفلسفة المتناقضة . وأما أنا فمع اعتقادي بعدم تعارض العقائد الدينية مع الحقائق العلمية ، لا يخطر ببالي التقريب بين الفكر الديني وبين فلسفة الماديين .

إذا حُققت المسألة من الوجهة الدينية ، فيثبت وجود الروح بآيات عديدة قرآنية ، ونظراً إلى الصراحة الفرقانية بأنها من أمر الله ، يجب الاعتراف بأبديتها . وبديهي أن ملاحظة العالم التركي المبينة آنفاً قد نشأت من افتتانه بالغرب . ولكن عطاء حكماء الغرب — ما عدا بعضهم — المشهورين بحرية الرأي ، والجمع على فضلهم وعبقريتهم ، مقرون بوجود الروح وأبديتها . فيقول فكتور هوجو مثلاً :

Je dis que le tombeau qui sur les morts se ferme
Ouvre le firmament,
Et que ce qu'ici bas nous prenons pour les termes
Est le commencement.

أقول إن هذا الرَّمْس الذي يواريههم يفتح لهم باب السماء ، وما نظنه في هذه الدنيا نهاية ، إنما هو بداية .

قال كميل فلاماريون : « الأشباح لباس الأرواح ، تمضي وتغيب ، وتبلى وتندثر ، والروح باقية » . وقال جوته : « إني معتقد واثق بأن أرواحنا جوهر لا يفنى ، مؤثر منذ الأزل إلى الأبد . فالروح مع أنها تتراعى آفلة لأمثالنا الأرضيين ، فإنها تشبه الشمس التي تنشر الضوء دائماً » . ولعل عين هذا العالم

التركي لم تقع على هذه الأقوال ، فلو وقعت لكان هذا الشخص الذى يهمل جميع الأدلة العقلية والنقلية السابقة ، قد طأطأ رأسه ، وبات من غلاة الروحانيين .

وصل فلا ماريون بمجهوداته التى جاوزت نصف قرن إلى النتائج الآتية :

١ — الروح موجودة فى هوية حقيقية منفصلة عن الجسم .

٢ — ولها خواص لم يكشفها العلم بعد .

٣ — وهى تقدر على التأثير من بُعد ، دون توسط الحواس ، (يجوز امتداد

هذا البعد أحيانا إلى كيلومترات ومراحل) .

٤ — وفى الطبيعة بعض عناصر روحية مؤثرة ، ولكن أصلها وحقيقتها

مجهول .

٥ — والروح تستمر بعد الجسم المادى ، وتستطيع القيام ببعض مظاهر

عقب الموت .

إذا حقق الأمر تحقيقا عقليا وفلسفيا ، فإن احتمال وجود الروح وخلودها أقوى . فنذ ثلاثة أرباع القرن كان الكيمياء العضوية والكيمياء المعدنى منفصلا أحدهما عن الآخر ، ويظن تركيب المواد العضوية النباتية من ذرات غير ذرات المواد المعدنية . ثم اتضح بعد الاكتشافات الأخيرة أن المواد العضوية النباتية والحيوانية ليست مغايرة للمواد المعدنية ، وأنها مركبة غالبا من الإيدروجين والأكسجين والآزوت والكربون والفوسفور . إنه وإن كان الماديون المتحفزون لدعوة فعالية المادة فى العالم منتفعين بكل كشف جديد ، حاولوا اتخاذ هذه الكشف برهانا لدعواهم ، غير أن الكاشفين الأصليين ، ولا سيما عطاء الكيمائيين أمثال ليبج وباستور ، قد اعترفوا متواضعين متدينين ، بأنه لا يمكن تركيب « أمُنكولُس » واحد ، بل ولا إيجاد بيضة جرثومة ، أو عضلة من أصغر العضل ، أو عصب ، أو تركيب ورقة بسيطة صالحة للنشوء والتماء ، واعتقدوا وجود قوة معنوية للحياة لا نستطيع إدراكها .

ونظرا للعجز عن إيجاد مادة عضوية ذات حياة ، مع أن أجسام النبات والحيوان الظاهرية مركبة من مواد عضوية ، ويمكن تحليل المادة وتركيبها كيميائيا ، يلزم بالضرورة الاعتراف بوجود قوة خفية من أسرار الخلق في النبات والحيوان — ما لم يقدر العلم كشفها على الأقل — أما بناء الماديين قضيتهم على أساس احتمال كشف ذلك السر في المستقبل ، فخليقة بالرفض منطقيا . وإذا سميت هذه القوة الحيوية بالروح ، فمن أي شيء يلزم جرحها ؟

ثم إن تطرق الخلل والضياع للأجزاء المادية ، بالرغم من سيرها وانتقالها المستمر ، يُعد من الحقائق العلمية . [ولو أنه يمكن أن يخطر بالبال خروج المادة من حالة المادية ، بناء على النظرية القائلة بحصول المادة من تكاثف القوة . بيد أن القوة التي توجد هذا الجزء المادي تظل في الحقيقة باقية راجعة إلى منبعها الأصلي] . فبأي حق يُحكم بفناء الروح التي سُلّم بأنها ماهية حيوية ؟

ونظرا إلى تجارب علمية حديثة يحافظ البروتوبلاسم ، أي خيمة الحياة — وهي المادة الأولية للحياة وليست روحا — على حيويته في درجة — 253° برودة . لقد وجدت جراثيم في مقابر روما ومصر باقية من ألوف السنين ، محرومة الهواء والغذاء ، واستُولدت . وبناء على تخمين سونت آرنيوس العالم العظيم السويدي المعاصر ، أن جرثومة أوبكتريا تفقد من حيويتها في يوم واحد في 10° درجات فوق الصفر ، ما كانت تفقده في عشرة ملايين من السنين لو كانت في — 220° . وبناء على هذه الفرضية يمكن تصور البقاء لحياة بدائية في درجة — 273° في المحيط الأثيري . ويمكن أن تتكون فكرة كالتناسل والتكاثر والتطور ثم الفناء في عالم المادة والمحيط النسيجي ، والاستقرار والبقاء في العالم الأثيري . وإذا قد ثبت تجريبيًا عدم وجود الحياة في درجة الحرارة 100° وأن السكرات المسكونة كانت نارية في بدايتها ، فيستدل عقلا بأن الحياة هبطت إلى العوالم المادية من الملأ الأعلى — حتى ولو اعترف بفرضية انتقالها من كرة إلى أخرى — إن تصوراتي

هذه وفرضياتي ليست مفيدة اليقين . لا جرم أنى أقر بوجود الروح وخلودها باعتبارها من أمر الله ، بيد أنى أومن بأن حقيقتها فوق إدراكنا . ومع ذلك يمكن أن تعد هذه التمهيدات براهين عقلية على خلود الروح ، أقوى من أدلة المنكرين في عكس هذه الدعوى .

(٧٧) ١٤٨ : لإيضاح رأيي هذا أعرض على أنظار القراء الكرام المثال الآتى :
 وضع المهندس الحكيم اليونانى أقليدس ، واكتشف « نيوتن » قانون الجاذبية . ورأى العلماء فى الزمن الأخير أنه لا هندسة أقليدس التى ظلت خمسة وعشرين قرناً حقيقة محضة ، ولا قانون الجاذبية لنيوتن كاف للإحاطة بالأحداث الطبيعية ؛ فقاموا ببعض تعديل وتوسيع فى هذا الأمر . ومع ذلك لا يورث عملهم هذا ذرة من الخلل فى مجد أقليدس ونيوتن . فإنه لا يتصور امرؤ متمدن يستجملهما ، بل حتى ينزلها إلى منزلة من صححهما ، فى حين أن القيام لمنع التقدم بحظر المناقشة فى مؤلفات أولئك العلماء ، بدعوى أنها ليست موضوع مناقشة وجدال ، مضر ؛ على أنها دعوى بلباء . ومثل هذا كذلك محاولة الاستخفاف بعلماء المسلمين وفلاسفتهم السابقين ، فهو بلة ، بل ذناة بعينها . كما أن تقبلنا آراءهم ونحن مغمضو العينين ليست بالطريق المستقيم . فأقوال الحكماء يجوز تعديلها بما يتفق ومستلزمات التطورات العصرية — على أن تبقى الأسس الدينية والأحكام القرآنية فى مقامها الاستثنائى الأعلى .

(٧٨) ص ١٥٣ : ومع ذلك ليست بأيدينا حجة نستند إليها فى إنكار المعانى الظاهرة لهذه القصص واستحالتها . فإن علم البشر لم يبلغ بعد حقائق الأشياء بلوغاً تاماً . ولا يظن أحد من كلامى هذا أنى من الريبين . فأنى كما بينت فى الفصول السابقة ، أريد بناء آرائى على العلم — مع قلة بضاعتى — لا على الفلسفة . وعلم اليوم يدلنا على أن تأثيرات اللون والشكل والصوت وغيرها نتيجة لذبذبات وموجات ، فيفهمنا أن ثمة فروقاً كبيرة بين الأمور المحسوسة وبين حقائق

الاشياء . فلو اخترعت آلة ، كمنظار مثلاً ، ممكنة من مشاهدة أشعة رونتجن ، وهى محصول ذبذبات أسرع من ذبذبات الموجات التى نحس بها اللون — وليس هذا بمستبعد قياساً على ما نشاهد من التطورات العلمية — فهل يشك فى أن الموجودات ستجلى لأحفادنا فى منظر يخالف لما نشاهده الآن ؟ ألسنا نرى اليوم أمورا واهية كانت منذ بضع قرون ، بل بضع سنين تُظن حقائق ، أو أمورا كانت فى ذلك الوقت مستحيلة ، فصارت اليوم واقعية ؟

ويجوز اعتبار هذه القضية على عكسها كذلك ، أى أن أمرا كان فى ذلك الوقت واقعيا ، نظنه اليوم محالا ، لعدم إدراكنا له ، لأن للأزمنة القديمة علوما وفنونا كثيرة ؛ فبناء الهرم الذى لا يزال من المعجائب السبع ، متوقف على قدرة علمية وفنية ، وقد أنشئ منذئف وستة آلاف سنة ! وخاصة العلوم الغربية فقد كانت جد راقية . وكل ما فى الأمر أن القدماء حصروا كثيرا من العلوم فى الخواص ، فأخفوها فى معابد مصر تحت الأرض ، وفى معابد الهند والصين ؛ فضاعت أمور كثيرة لم تَعَمْ بعد فى تقلبات الدهر ، ونُسيت ولم تنتقل إلى عصرنا . فقد عُلِمَ من البحوث التى تمت فى الهرم الكبير وقوف المصريين القدماء على كثير من أسرار علم الفلك وطول نصف قطر الأرض ، وبعد بعض الأجرام السماوية . على حين لم يشتمل فلك بطليموس الذى ظهر بعده بخمسة وعشرين قرنا ، على هذه المعلومات . فبأى حق يدعى مفكر منصف ، بأن ما نعلمه اليوم حقيقة ، وأية رواية غير موافقة لمعارفنا اليوم يستطيع إنكارها إنكارا باتا ؟ قال فلاماريون فى كتابه « القوى الطبيعية المجهولة » : ليس لأحد حق فى إنكار شيء (Nul n'a droit de rien nier) وقد أصدر هذا العلامة هذا الحكم طبقا لما يريده شباننا المثقفون ، المنحرفون إلى وادى الإنكار ، أى بعد تجربة واستقصاء مدة خمسين عاما ! .

لقد أظهرت العلوم الخفية (Sciences Occultes) التى تتطور على الزمن

الأخير بعد أن ظلت مدة من الزمن منسية ، عجائب كثيرة محيطة بنا ! وما أظن أن هناك فرقا كبيرا بين مناجاة الأرواح (Spiritisme) والتلقين والوسوسة (Suggestion) والمغناطيسية الحيوانية ، والتأثير والتأثر من بعد (Télépathie) وبين الوقائع التي بيّنتها التوراة .

(٧٩) ص ١٥٣ : لا يتصور امرؤ له مُسَكَّة من العلم والمعرفة ، انفصال طبقات السموات بعضها من بعض ، بسقوف مصنوعة من الزبرجد والزمرد وغيرها من المواد . لا جرم أن التفسيرات المبنية على جهل كهذا ، ليست لها علاقة بالقرآن والدين . لا تنفصل الطبقات السماوية بعضها من بعض إلا بخواصها وأوصافها انفصالا تدريجيا ، فالسما الذي يقتضى أن تكون إحداها — نظرا لتخصيصها — وليست هيئتها العامة . فلو فرض أن هذه السماء هي المحيط النسيجي ، وسُلم بالنظرية المذكورة أنفا في أمر الطبقات ، لأمكن تقسيم المحيط النسيجي الذي يزيد على نيف وستائة كيلومتر من الارتفاع والسماك على الترتيب الآتي :

الطبقة الأولى وهي منطقة التحولات الجوية ، يبلغ ارتفاعها نحو خمسة كيلومترات أو ستة . وفيها تحدث العواصف والزوابع ، والرعد والثلوج والأمطار .

والطبقة الثانية : عشرة كيلومترات أو اثنا عشر . وهي محل حدوث التيارات الهوائية المعاكسة ، ولكنها راكدة بالقياس إلى الطبقة الأولى ، وأقسامها العليا غير صالحة لحياة الحيوان — عدا الأحياء أمثال البكتريا — لخلوها من الأكسجين ، بالرغم من وجود غمام بها يدعى سيروس .

والطبقة الثالثة : وتمتد من خمسين إلى ستين كيلومترا ، يكثر فيها غاز الآزوت ، وفيها يظل رماد البراكين معلقا .

والطبقة الرابعة ترتفع إلى مئة وخمسين كيلومترا ، وفيها تشتعل الشهب باحتكاك غاز الإيدروجين ، فإذا صارت حذاء الكيلو الستين خمدت ، لغلبة غاز الآزوت ، لأنه مانع من الاحتراق .

والطبقة الخامسة : ليس فيها غير غاز الايدروجين والهليوم .

والطبقة السادسة وهي على ارتفاع أربع مئة كيلومتر أو خمس مئة ، تتعلق فيها حبيبات تُسمّى غبار العوالم أو مدفوعات الشمس . وفي غبار العوالم المتكاثف يحدث الفجر الشمالى ، وينير الليالى القطبية المديدة كأنها مصابيح ، وزينتها ويجعل المنطقة القطبية صالحة للحياة . وهذه الحبيبات المنيرة خاصة الدفع والطرْد لبعض الموجودات والأحياء الخفيفة بواسطة ما تحمله من الكهر با السالبة .

والطبقة السابعة : مكوّنة من الغاز المسمى « جيوكورونا » .

ذلكم هو أنموذج الطبقات السبع التى يذكروها المنكرون مستخفين ! ويمكن العثور على هذه الحقائق فى كثير من الكتب العلمية . بيد أن أصحابنا المنكرين لا يكلفون أنفسهم مشقة البحث والتنقيب ؛ فهم إنما يستلهم بعضهم بعضا على حسب هواه ! ولا أرى حاجة إلى البحث فى طبقات الأرض . ولعل كل امرئ له إلمام قليل أو كثير بأحوال الدنيا قد سمع عنها . وإذا فرضت السماء الدنيا بالكرة النسيجية فيسلم بطبقاتها وزينتها بمصابيح ، وإمكان طرد هذه المصابيح لبعض أنواع الموجودات الدنيئة الخبيثة .

لقد زدوتنا آراء المحقق الفاضل الأستاذ نعيم بك فى مقدمته لترجمة البخارى بمعلومات عن السموات على الإطلاق . ولكن لا توجيهات الفقير ولا آراء نعيم بك تتضمن معنى كون الطبقات السماوية كما ذكرت حتما . ولعلها جواب مقنع يشير إلى صور ممكنة ، على استهزاء المنكرين وإنكارهم .

(٨٠) ص ١٥٤ : إن عدم استقرار الأجرام السماوية فى الأفلاك ، بل سببها وجريان الشمس لمستقر لها ، وحدث المادة وفنائها الذى كان العلم حتى بضعة أعوام ماضية يظن عدم فنائها ، قد ذكر كله فى القرآن . بيد أن المنكرين كانوا يسندون البهتان إلى كتابنا ، لعدم توافقه والمذهب العلمى القديم . وتحققت تلك الأمور كلها علميا . فالتسليم بمسألة الطلاق ، ومنع المسكرات ، وكشف التريشين

في لحم الخنزير ، أليس كله دليلا على اتجاه المتدينين الذين يعبدون المتفنون منا ،
وميلهم إلى الأحكام الإسلامية رُويدا رويدا ؟

(٨١) ص ١٥٤ : يقول علماء المسلمين إن القرآن ليس كتاب علم ، وإن
آيات التذكير إنما نزلت وسائل وأدلة على التوحيد متفقة مع علم الخاطئين ،
ومع ما يحدث بينهم في ذلك العهد ، فلا محل إذن للمناقشة في هذا الباب ،
ويقطعون النزاع بهذا من جذوره . وتوجيهاتي المستندة إلى الممكنات والمحتملات
التي ذكرتها آنفا مبنية على قصد الدفاع لمغالطات المنكرين وادعائهم — صيانة
للشبان الأغرار .

إني أريد أن أقول مستنتجا من هذه الآراء المقتبسة من المؤلفات الغربية ،
إنه كلما ترقى العلم وتشعب ، اتسع أفق الممكنات في نظر الإيمان . ولا شيء يمكن
رده بسهولة . والفرق بين المدينين الفضوليين الذين يريدون رد كل شيء بلا
تفكير ، والقرويين الأغفال المصدقين بسهولة لكل ما سمعوه ، إنما هو مرض
هؤلاء بالجهل البسيط ، وأولئك بالجهل المركب .

(٨٢) ص ١٥٨ : يتهم أعداء الإسلام محمدا صلى الله عليه وسلم بالشهوانية ،
لتعدد زوجاته الطاهرات . وقد أمضى خمسا وعشرين سنة من عمره الخمسين ، مع
ثيب تكبره بخمسة عشر عاما ، وهي السيدة خديجة الكبرى . ولما توفيت عقد
زواجه على عائشة بنت أبي بكر الصديق ، إلا أنه لم يبن بها لصغر منها ، وتزوج
سودة وكانت ثيبا . وزوجاته الأخريات كلهن متروكات عطاء العرب ، الذين ودعوا
الحياة في هجرة الحبشة ، وفي الغزوات في سبيل الدين . وفيهن بنت عمر وبنت
أبي سفيان .

ذكر في بعض مؤلفات الغرب أنه أرغم زيد بن حارثة على تطليق زوجته
زينب ، ثم تزوجها . وزينب هذه ابنة عمه محمد ، وكانت ممتنعة من الزواج من

زيد مولى النبي ، مدعية عدم كفاءته لها ، فتوسط النبي وتم الزواج ، تنفيذ لما وضعه من المساواة عمليا . تم الزواج ولكن لم يتم الامتزاج بين الزوجين ، برغم توسط الرسول ، لتكبر السيدة زينب وغرورها ، فوقع الطلاق بينهما ، فتزوجها الرسول ، تعويضا عما أصابها من غبن في زواجها من زيد . ووقع الزواج أولا بوساطة النبي ، ودوام زيد على صداقته للنبي ، حتى بعد تطليقه زينب وزواجها من النبي ، يبعد وقوع الجبر في الطلاق .

كان لمحمد أعداء كثيرون في أثناء حياته كشأن كل مجدد . فبينما يجادله الأعراب والوثنيون جهرا وصراحة ، يسعى المنافقون واليهود من طرق خفية لايذائه والإضرار به ، فيفترون عليه الكذب ، لإسقاطه بين معاصريه ومن يأتون بعدهم ؛ فلذا ينبغي إهمال هذه الأراجيف المتقطرة من أقلام أعداء الدين .

وأما زواجه من جويرية بنت رئيس قبيلة بنى المصطلق المغلوبة ، فقد ترتب عليه أن أعتق المنتصرون ألوفا من أسرى القبيلة المهزومة ؛ كما أن زواجه من السيدة صفية بنت أحد رؤساء اليهود بعد موقعة خيبر ، عدل من شدة المنتصرين على اليهود تعديلا تاما . فلهذا لا ينبغي البحث في زواج محمد عن الشهوة ، بل عن العوامل الفكرية والأخلاقية ، كالرحمة والرفقة والسياسة .

(٨٣) ص ١٥٩ : ولدت صنوا لأسرة كبيرة كثيرة الأفراد والفروع ، بعد إلغاء الرق في روسيا وأمريكا بنحو عامين أو ثلاثة أعوام . ورأيت في طفولتي عبيدا وجواري ، ثم تنقلت فيما بعد في بلاد كثيرة من المملكة العثمانية ، فرأيت بعيني ما يجري فيها من أصول الاسترقاق وقواعده ؛ فلذا أزعج بأن في قدرة على تزويد القراء بأبناء نافعة عن كيفية فهم الأمر والاسترقاق في الدولة العثمانية في العهد الأخير . لا يولد أحد عبدا في البلاد التي تسرى فيها قوانين الدولة العثمانية ، ولا يُسرق أتباع الدولة بالبيع والشراء . وكان العبيد والجواري يأتون إلينا من الروس أولا ، وخاصة من القوقاز ؛ ومن إفريقية ثانيا . أما ظهور خطف العبيد في

إفريقية أو توسع هذا الخطف على الأقل ، بعد كشف أمريكا ، فمن المؤكد أن سببه الأمم النصرانية . فكانت البلاد الأوربية منبع أمتعة أسواق الأسرى التي صارت موضوعا لكثير من الأخيلة الشعرية في أوروبا ، وموردها .

ولما قدم إلى بلاد الدولة العثمانية عدد كبير من مهاجرى الجركس القوقاسيين بعد حرب القرم (١٨٥٤ — ١٨٥٥ م) ، وشرع أمراؤهم وذوو الثراء منهم في استخدام عبيدهم وجواريتهم الصغار بالبيع سرا ، على حسب عاداتهم المألوفة في القوقاس ، وانضم إليهم منبع داخلي كذلك ، إلا أن هذا المنبع كان محدودا ولم يدم كثيرا .

كان نظام الاسترقاق المتنقل من الآباء إلى الأبناء ، سائدا في بلاد العرب بين قبائل الرُّحْل ، التي لاتراعى فيها قوانين الدولة كثيرا . ولكن كان لهؤلاء العبيد مقام عظيم بين القبائل ، فلهم دواب وخيول ومواش كافية لسد حاجاتهم . ووظيفتهم القيام ببعض غارات خاصة ، ولا يُكلفون خدمات دينية ، ولا يباعون للغير حسب التعامل . ومن أولئك الأرقاء عبيد الحسينية ، الذين كانوا عند عشيرة الحسينية بسورية ، فقد كانت لهم شهرة واسعة بين القبائل .

وطبقة العبيد التي تعيش بين قبائل العرب بتهامة اليمن ، تحيا حياة مرفهة سعيدة ، ولا سيما الزنجيين المدعوين عنبر ومرجان ، اللذين كانا عند شرعى باشا من أمراء الحديدة ، وحرزى من كبار تجارها ؛ فإني قد شاهدت بنفسى أنهما كانا أرفع مكانة من أفراد أسرة شرعى باشا وحرزى ، بل من أبنائهما كذلك . ولم يكن استخدام الأسير من عادة الزيديين المقيمين بجبال اليمن .

وكان استخدام الرقيق نادرا أو معدوما في الرومى ، من بلاد الدولة العثمانية . وأما في إستانبول ، فقد كان استخدام عبد أكثر من سبعة أعوام عيبا في الأسر الكبيرة . وإذا أعتق العبد لم يطرد من البيت ، بل تُقَف بعض الثقيف ، ثم وُظِف في وظيفة مناسبة لمعلوماته ، وزُوج ، وقُدِّم له مايلزم لهذا الزواج من جهاز

ونفقات . وليس هذا حَسْبُ ، بل يظل منزل سيده القديم مفتوحا له ، إذا عجز عن تكوين بيت يأوى إليه سعيدا . ولا تزال عمّة لنا چركسية في الثمانين من عمرها ، قد أرملت مرتين ، تشاركنا في حياتنا وأرزاقنا المقدّرة حتى اليوم . وهناك زنجى قد بلغ الثمانين من عمره يعيش بمنزل أحد أقاربنا ، كأنه صاحب آخر لهذا البيت ، وقد امتزج السيد صاحب المنزل ، وهو من السن نفسها ، والعبد الزنجى امتزاجا يتننى كلاهما ألا يرى موت صاحبه . ولعل دعاءهما مستجاب ، لأنهما والحمد لله لا يزالان ممتعين بالحياة .

وإذ كان المرحوم عمى صهرا لمشير التشريفات ، كان بعض السيدات العظيمات لقصر آل عثمان يحضرن إلى منزلنا للاستجمام ، بحسب عادة ذلك العهد . فكم كان سرورهن ورضاهن وارتباطهن بحياة القصر ، ومحبتهم للخصيان ، ولا سيما صداقتهن لمولاهن ! . . . وأما ما يدور حول بؤسهن من القيل والقال ، فما هو إلا بُهتان ومحض خيال . كان تزويج نساء القصر من الرجال ذوى الثراء والمناصب العالية ، عادة موروثه منذ القدم ؛ فقد رأيت في صباى أسرا كثيرة من هذا النوع ، فليس ما ذكرته آنفا مستقندا إذن إلى مثال واحد لا غير .

ذلك هو الرّق في الإسلام ؛ فهل يمكن مقارنته بما جرى للعبيد في روما القديمة ، وفي أمريكا إلى زمن قريب ، وفي أوروبا إلى مئة وخمسين عاما ، وفي روسيا حتى سبعين سنة خلون ، من العسف والظلم الذى كان يُطبّق على أولئك المساكين ، والعقوبات والمشاق ؟ [كان فض بكاره الجارية التى يتزوجها الرقيق ، حقا لصاحب الأملاك قانونا وعرفا] . فلم تكن هذه السهولة والرحمة التى عندنا إلا من التعاليم الدينية .

(٨٤) ص ١٦١ : وفي القرآن أمثلة وقصص دالة على ما سهل الله لعباده . ومنها « وخذ بيدك ضِعْثًا » المتضمنة لتوفية أيوب عليه السلام بمهد من عهوده بصورة ليّنة . وقد أريد الالتجاء إلى الخيل الشرعية ، استدلالا بتلك الآية الكريمة ،

ولكن كل من يتلو الوصية في القرآن ، يدهش مما حدث من حق وحكمة ، بينما كل عاقل قادر على التمييز يعجب ويحترع عندما يسمع التأويل المذكور .

(٨٥) ص ١٦١ : نظرا للقانون الروماني المستعمل في الغرب والشرق الأدنى

في ذلك العهد ، كان للدائن حق الاستيلاء على المدين ، واستخدمه رقيقا إذا كانت أملاكه غير موفية بدينه الذي كبر بالربا الفاحش ، حتى صار أضعافا مضاعفة .

(٨٦) ص ١٦٢ : كنت أدرجت مسألة الأرباح هذه في كتابي ، مثالا

للمعاملات العجيبة المستعملة للحيل الشرعية . ولكن القائلين بحرمة الربا بجميع صورته نقدوا ملاحظاتي الأخيرة ، فقالوا بعدم جواز المعاملة بالربا بأية صورة من صورته ، ولو بحيلة شرعية . فاستوضححت الأمر رجلا مسلما له من الجميع بالعلم والفضل واستفتيته ، فتفضل وزودني كتابة بتفصيل الآراء والأقوال المختلفة لمجتهدى المسلمين في شأن الربا . وألخص ما استنبطته من تلك البيانات فيما يلي :

أولا : — ربا النسيئة ، وهو ربا الجاهلية الذي كان ينتهى برفع الدين إلى أضعاف مضاعفة بطريقة الربح المركب ، وغبن المدين ، والقضاء عليه غالبا . وهذا الربا منهى عنه ومحرم بتاتا .

وثانيا : — يُسْتَنْبَط من الآية الكريمة « وَحَرَّمَ الرِّبَا » حرمة الربا مطلقا بكل أنواعه ، إلا أن هذه الآية قُيِّدَت بالآية « لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً » . وإذ أن القاعدة الفقهية تقول : « الْمُقَيَّدُ يَرْجِعُ عَلَى الْمَطْلُوقِ ، فَيُحْمَلُ الْمَطْلُوقُ عَلَى الْمُقَيَّدِ » ، فيجوز الحكم بأن المنع ينصب على الربا المؤدى إلى تضعيف الدين ، وغبن المدين . غير أن العلماء اشتبهوا في هذا القيد ، أهو احترازي أم وقوعي ؟ فقال عمر الفاروق المعروف بصلابته : « توفي الرسول بدون تفسير الربا ، فلذا يلزم ترك الربا والرَّيْبَةِ ، وتجنب كل معاملة مشكوكة يلاحظ فيها الربا » . اتبع علماء أهل السنة هذا الرأي حتى اليوم . ومع ذلك وقع خلاف بين العلماء — فيما عدا ربا النسيئة — في الربا البسيط ، كربا الفضل الذي لا يؤدي إلى غبن المدين وإضراره

فقد أجاز بعض العلماء الربا الخفيف ، الذى يكفل ربحا للدائن مع بعض أنواع البيوع ذات مواضع ومقاولات ، كبيع العينة وبيع الآجال . ولكنى أعتقد أن هذا أيضا ليس سوى حيلة شرعية ، كما ذهب إليه الفقهاء المخالفون على رأى المذكور . للتخلص من الربا يلزم ارتفاع علة التحريم . ولما كانت العلة مناط الحكم ، فإن ارتفاعها يسقط الحكم . وبما أن العلة منصوص عليها فى القرآن ، فإن العلماء اختلفوا فى هذا الباب كذلك .

فنظرا إلى اجتهاد الفاضل المشار إليه يجوز الإذن بربا غير النسئثة ، وعلى شرط عدم غبن المدين ، بناء على قاعدة « الضرورات تبيح المحظورات » ، و « الضرورات تُقدَّر بمقاديرها » . ثم إن الحديث « إنما الربا فى النسئثة » و « لاربا إلا فى النسئثة » يدل على أن الربا المحرم هو ربا النسئثة . ولا ربا فى المعاملة مع دار الحرب ، أى البلاد التى لاتسرى فيها الأحكام الإسلامية ؛ فالربح المأخوذ منها ليس ربا ممنوعا .

فنظرا إلى هذا يجوز معاملة الربا فى أمور ضرورية كتنمية مال اليتيم ، وإقراض رجل عاجز عن استثمار نقوده بطرق أخرى ، على شرط أن يفيد منها إفادة عادلة غير مضرة بالمدين ، وصون تداول الثروة القومية وغيرها من الضروريات . إن مدينة اليوم تكاد تكون مربوطة بمعاملة المصارف ؛ فدور الصناعات الكبرى والتجارات الدولية لا تتم بدون مصارف وفوائد . وشراء أمة أسلحتها من خصومها محرومة من استخدام ثروتها العظيمة ، يكون مخالفة للأمر الجليل : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » . وبناء على هذا يكون وضع قانون ينظم الضرورات والاحتياجات ومصالح الناس ، موافقا للفقهاء الإسلامى . وأحكام المعاملة تدور على المصلحة والمفسدة .

أظن أن هذه الخلاصة التى راجعها الفاضل المحترم ، ووافق عليها ، تلزم

المنصفين المعتدلين ، وترك العلل والحكم في الأحكام ، واللعب بالألفاظ ضار بالجامعة الإسلامية ، وقد ضررها فعلا .

(٨٧) ص ١٦٤ : بين نيتشه آراءه في كتبه المختلفة بمجمل وحكم مكتوبة بلغة نارية . وليس الموجز المذكور هنا من استنباطي من تلك المؤلفات رأسا ، بل هو مُقتَبَس من ملخصات دائرة معارف «ماير» . وأضيف هنا فأقول : إن نيتشه لم يكن في حياته إنسانا غير عادي حسب ، بل إنه جُنَّ في الخامسة والأربعين من عمره ! .

(٨٨) ص ١٦٦ : كانت قبيلة بني قريظة تقيم بجوار المدينة ، وعاونت الأعداء في حرب الأحزاب سرا وعلانية ، مخالفة لما بينها وبين المسلمين من معاهدة . وهاك أمر التوراة في هذا الباب : « وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحمد السيف . وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة ، كُلْ غنيمتها فتغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك — ثنية ، الأصحاح ٢٠ الآية ١٣ - ١٤ » .

(٨٩) ص ١٦٩ : لم يُذكر هذا الأمر في القرآن ولكن المعروف أن عبدة الأصنام يُسندون إلى آلهتهم أمورا دالة على اعتقادهم حب آلهتهم للنساء . (٩٠) ص ١٦٩ : انظر أواخر بحث « واليوم الآخر » من الباب الأول . (٩١) ص ١٧١ : انظر الأجوبة التي ردّدت بها على الماديين عندنا في مبحث « آمنت بالله » وأوائل الأجوبة على الاعتراضات في مبحث « وملائكته » والامستطارد المشتمل على معاتبة العلماء .

(٩٢) ص ١٧٢ : يفسر القاموس الطبيعة بأنها سجية جُبِل عليها الإنسان . والبحث عن الخالق وفكرة الله من الجبلة البشرية . فالإنسان المتفكر لا يسلّم بظهور الكائنات من تلقاء نفسها ، بل يبحث عن السبب الأول لوجودها .

(٩٣) ص ١٧٤ : التزمت في هذا الكتاب طريقة لإثبات القداسة الدينية بأقوال علماء الغرب ، فلذلك لا أستشهد بأقوال أعظم علماء المسلمين . ثم إن حكماء الإسلام المشهورين ظهوروا من بين علماء الدين ؛ فليس من المنطق سرد أقوالهم في بحث وجدال مع أعداء الدين .

(٩٤) ص ١٧٥ : بما أن الفرصة سانحة ، فلا بأس من إيراد ملاحظات حول آراء بعض الفلاسفة الميالين إلى الانكار في ظهور الأديان . فعندهم أن الإنسان المتطور من الحيوان كان كأجداده خالي الذهن من فكرة الأديان . ولكن كلما تأثر بالأحداث والصدمات الكونية وتألم ، توهم وجود روحانية حاكمة فيما وراء هذه الأشياء المادية (Animisme) أى أن هناك شخوصا غيبية تعيش كالإنسان مفكرة مثله ، ومؤثرة في الأشياء الظاهرة . ولما كان الإنسان ككل حيوان مجبولا على الحصول على أسباب حاجاته المعيشية ، والخوف من المهالك ، أحس الحاجة إلى عطف وكرم بعض قوى غيبية ، زعم أنها مسيطرة على المكونات والأحداث الطبيعية الفائضة بالحياة والنعم ، أو المسبب للبلايا والممات ، كالشمس والقمر والنجوم والأرض والبحر والجو والمطر والصاعقة والعاصفة ، وغيرها من القوى الطبيعية ، وخشية غضبها والحذر منها ؛ فشرع في المصانعة بالعبادة لتلك القوى المزعومة شعورها باللذة والنعم والغيظ والحق كما يشعر هو ، وطَلَبَ رضاها عنه بتقديم القرابين والفدور والشموع . هكذا أوجد كل قوم دينهم .

يريد هؤلاء الفلاسفة إثبات دعواهم في نشأة الأديان بتشبيهه عبادة الإنسان بالصدقة والتملق اللذين تظهرهما الحيوانات ، ولا سيما الكلاب ، للحصول من أصحابها على الطعام ، أو النجاة من العقاب . بيد أن أصحاب الكلاب محسوسون وليسوا متخيلين كآلهة البشر ، فلهذا كان القياس مع الفارق ؛ ثم إنه من أى حيوان ، وفي نتيجة أى تطور ، جاء تصور الروحانية للإنسان المدعى خلوه من فكرة الدين كسائر الحيوانات التي يفرض تشعبه منها ؛ فإن هذا الأمر لا يزال في

حاجة إلى الإيضاح ، لأننا لا نرى في الحيوان ما ينم عن تصورها فكرة الروحانية أو الديانة .

كذلك هم لا يفرقون بين الأديان المنزلة والوثنية الباطلة ؛ فالموسوية والعيسوية والإسلام المعدودات ديانات التوحيد ، ظهرت — على قول جُستاف لوبون — من تطور تلك العقائد الواهية تطورا ما . [يعترف جُستاف لوبون في فصل آخر من كتابه بأن الإسلام أصفى دين] . وموجز الكلام أنهم يدَّعون بأن الديانة إنما تولدت وتُوورت من جهل البشر ووهمه وضلاله . ثم يقولون إن ما يشاهد عند بعض الشعوب التي لم تبلغ الكمال بعد ، من الإيمان بالمغيبات ، والقشائم والندور ، والاعتقاد بالأرواح والأجسام اللطيفة وغيرها من الحالات الفكرية ، ما هي إلا تراث من ذكريات الوثنية القديمة ، وقيمونها دليلا على صدق فرضياتهم . [هذا الرأي الأخير غريب ، إذ يلزم منه أن يكون أوباش بارس المنكرون كل شيء اتباعا لشهواتهم ، أكثر تكاملا من پاستور ، وفلاماريون ، ومارشال فوش ، من المؤمنين بالروحانيات] .

ينكر أولئك الفلاسفة العلاقة بين الخلقيات والأديان ، مستدلين على ذلك بأن المشركين والوثنيين يصوّرون آلهتهم متصفة بالذائل ، من الظلم والشدّة ، لا متحلّية بالفضائل . فنظرا إلى قول جُستاف لوبون يكون بوذا وعيسى هما أول من لقنا الناس عقيدة اتصاف الإله بالرحمة ، ووجوب تخلق الناس بالشفقة . بيد أن رأيهما هذا لم يكن أثر إلهام ، وإنما نشأ مما اكتسبته الطبيعة من الرقة ، بتطور بيئات الناس . ولكن الناس ، برغم هذه التلقينات ، لا يزالون يتصوّرون العذاب والقسوة في الربوبية . لأن التعصب الديني والرحمة لا يسيران متوازيين ، فكما زاد أحدهما نقص الآخر . فقد عذب نبيون الحواريين أوقلتهم تعظيما لجوبيتر ، كما أن قضاة محاكم التفتيش المقدسة أحرقوا معتقدي المذاهب الأخرى بالنار في سبيل إلههم . وقد اطمأن هذا الفيلسوف إلى تحول إدراك الأخلاق على حسب

الزمان والمكان ، حتى استغرب من عد بعض الحكماء أمثال كُنت وكندورسى وبوكلى المبادئ الأخلاقية مشتركة فى كل الأقاليم والأمم ، وغير متغيرة . وأورد فى صدد الاحتجاج قول باسكال : « إن ما هو حق فى هذا الجانب من جبال برينه باطل فى جانبه الآخر » .

قياسا على ذلك تتغير الأديان بالنسبة إلى الشعوب ، وحتى الأشخاص كذلك . فالفرق عظيم بين إيمان باسكال وبين نصرانية رجل من ييمونتى لا يرى بأسا من سب مريم جاره . ومجمل القول أن الناس خلَقوا آلهتهم وأديانهم فى بيئاتهم ، قياسا على أنفسهم ، ثم آمنوا بها وعبدوها . (الحضارات الأولى لجستاف لوبون) .
وواضح أن هذه البيانات غير المستندة إلى حساب وتجربة ، ماهى إلا فرضية ، نقطة استنادها نظريات نشوء الإنسان من الحيوان بالتطور ، ونشوء الأديان المنزلة من الطاغوت . وقد بينا فى الباب الأول من هذا الكتاب أن نظرية نشوء الإنسان من القرد بالتطور ، ليست باطلة حسب ، بل سقطت من نظر معظم العلماء فى الزمن الأخير . حتى لو فرض نشوء الأديان من الخوف والرجاء والتملق المستقر فى جبلة الإنسان ، كما فى كل حيوان أساطير الأولين ، فإن عد الأديان المنزلة مولودة الوثنية المتكاملة نسبيا ، ليست ملاحظة سليمة . لأن معنى كلمة (Evolution) المصطلح عليه ، هو تطور تدريجى فى الرقى ، ولا نرى تدرجا فى ظهور الأديان المنزلة . لقد ظهرت كلها فى شكل انقلاب عظيم فجأى . فقد قام إبراهيم — نظراً إلى التاريخ المقدس — بمفرده مناديا بهدم عقيدة الكلدانيين الوثنية ، ومظامل ملكهم نُمرود وجبروته ، فوضع دين توحيد حنيف ، مناقض لما تعلم وورث من العقائد مناقضة تامة . أما موسى وهوراع معقود اللسان خلقة ، فقد قام وحده طاعنا على معتقدات الفراعنة الجبارة وسلطانهم ، فأنقذ قومه منهم ، وأسس عقيدة وحدة الإله ضد عبادة الأصنام الشائعة فى بيئته ، [قال جستاف لوبون : إن بنى إسرائيل عبدوا بعد وفاة موسى آلهة غير « يهوا » منهمكين فى منهيات مخالفة للأخلاق ، ولكن

مناقشة هذه المسألة ليست من موضوعي . بيد أنه كتب أن أنبياء بني إسرائيل اجتهدوا لنفي ما ظهر من السيئات في الدين ، والظعن على الدين لعصيان أهله لا يتفق مع المنطق [. ولما كانت هذه الروايات متوغلة في القدم ، وواردة دائماً في الكتب المقدسة ، فقد يجوز للمفكرين الشبهة في الوثوق بها . بيد أن عيسى عليه السلام أيضاً وضع دين التوحيد ومبدأ الشفقة ضد وثنية الرومان ، وأخلاق اليهود ، وأعمالهم الفاسدة ، ونشره للناس . قال جستاف لوبون دهشاً : إن الدين الذي وضعه مجذوب كبير سامي Grand halluciné (عيسى عليه السلام) ملفقاً بين العقائد الموسوية وبين تعاليم الشفقة والرحمة التي أبدعها « بوذا » قبله بخمس مئة عام ، قد تأسس بدلالة كثير من الأسباب والعلل ، واستطاع البقاء عشرين قرناً ، وإن فلسفة مذهب العقلية (Rationalisme) التي اكتسبت قوة في زماننا لم تقدر على قهر تلك الأباطيل المتغلغلة في النفوس مذقرون كثيرة ، حتى إن أعظم الحكماء أمثال أوغوستن وغاليليا ونيوتن وباسكال لم يستطيعوا التخلص من تأثير تلك الخرافات . على حين أن ذلك المجذوب الذي لم يفارق فلسطين ، ولم يشتغل بالفلسفة ، نظراً إلى مهنته ، قد قلب الطاغوت الذي دام دهراً طويلاً رأساً على عقب في بضع سنين . ودعايات المنكرين التي دامت أكثر من قرنين ، وزادت قوة على قوتها بالثورات عجزت عن قهرها . أفليس هذا مما يزيد الحيرة والدَّهْشَ ! ؟

أما محمد الذي ثبت تاريخه أكثر من تواريخ كل الأنبياء السابقين ، فكان قومه وثنيين ، وكانت قبيلته صاحبة أجل صنم لأعظم معبد في بلاد العرب ، وراحة ما يترك زوار مكة بتلك المناسبة من ثروات ، وقد كان محمد أمياً لم يمارس العلم والفلسفة قط . وكان بجزيرة العرب النصراني واليهود ، ولكنهم ما كانوا متوطنين بكثرة . لقد ذكرت في مبحث « ورسله » عدم كفاية رحلة أو رحلتين قام بهما محمد في رفقة عمه ، لاقتباس الآراء الفلسفية . فقد استهدف لأنواع الممالك ، وداس في سبيل مبدأ مناقض لما تلقى وتعلم في صغره من العقائد والعادات المسكروهة السائدة في

وطنه وبيئته ، ومصالح قبيلته ، دون انتظار منافع خاصة من وراء ذلك . إن وضع قانون وتعليمه للناس ، وتحريم التشاؤم والتطير وغيرها من المعتقدات الباطلة ، كرهبة الفلاسفة الإيجائيين ، من أمثال جستاف لوبون ، لا يمكن أن يُعد من الأحوال العادية ، ولا أن ينطبق على التعريف المذكور آنفا . فتلقين التوحيد لعباد الوثن من عصور كثيرة ، وجعل من يعدّون وأد البنات شجاعة واستقامة وعبادة ، يعترفون بحقوق المرأة [تفوّض الشريعة الإسلامية للمرأة كثيرا من الحقوق والواجبات ، فتجيز لها الإفتاء والقضاء في مذهب الإمام أبي حنيفة في الأمور الحقوقية ، ولكن لا يجوز حكمها في الأمور الجزائية ، لرقه قلبها] ، والأمر بالعفة لأرباب الفحش والسفه والغارة والقمار ومدمني الخمر ، والرعاية لحقوق الغير ، فكلّها لم تكن تطورا تدريجيا ، بل كانت طيرانا متعاليا خاطفا ، وانقلابا عظيما رحمانيا . فتلك أمثلة دالة لا على وجود صلة بين الدين والطاغوت ، بل بالعكس براهين تثبت التناقض بينهما . إن إنكار القائلين بمحاولة البشر من تلقاء نفسه تصوّر روحانية فيما وراء الأشياء ، أن يظهر من أنفسهم رجل ممتاز ، وأن يتصوّر سببا أول ، وخالقا أزليا لهذا العالم ، وأن يلقّن هذه الحقيقة لأبناء نوعه ، أى إنكارهم للنبوة والأديان — لدعوى فضولية غير منطقية .

يجوز لعبدة الأصنام أن يُمثّلوا آلهتهم أشداء غدارين ، وأن يتمثلوا آثارهم في أخلاقهم وأفعالهم ، فتلك أمورهم أدرى بها . ولكن مما لا شك فيه أن معبود الأديان المنزلة قد وصِف بالعدل والرحمة ، وبارشاد عباده إلى محاسن الأخلاق . فالأوامر العشرة متضمنة مسائل أخلاقية . والذائل الخلقية والقسوة والمبادئ الباطلة التي حلّت بنبي إسرائيل بعد ضياع التوراة الثابت تاريخيا — لا يندر أمثاله في كل أمة — لا يجوز إسناده إلى دين التوراة الحقيقي . ومواعظ عيسى وما تحتويه الأناجيل الموجودة بأيدينا ، لا تفتأ توصي بتهديب الخلق . وكتاب الإسلام المقدس يأمر بالتوحيد وحسن الخلق مع التبشير والإنذار . يعرف المعروف والمنكر ويبشر

بأن رحمة الله واسعة ، وأن الله يغفر الذنوب جميعا ، وأن حقوق الغير يجب إحقاقها حتما ، أى أنه يأمر مشددا باجتنباب التعدى على حقوق الناس ، وأن العبادة والذكر يُلقيان الاطمئنان والراحة فى القلوب . وليس من شك فى أن حاجة الناس الباحثين بفطرتهم عن معاشهم ومنافعهم فى مضرة غيرهم ، شديدة لأمثال تلك التعاليم . وإنذار الأشرار بالعذاب ، ليس بقسوة ولا وحشية ، وإنما هى رحمة . وقد أبان الرسول بأحاديث كثيرة أنه بُعث ليتم مكارم الأخلاق ، وأن حسن الخلق من الإيمان . ويثبت من هذه التفصيلات توافر حسن الخلق فى الأديان المنزلة . والمظالم التى ارتكبتها محاكم التفتيس لم تكن من الدين ، وإنما هى من عصيان بعض الرهبان أو حكام ذلك الزمن ، الذين فسروا الأحكام الدينية تفسيراً سيئاً ، أو أرادوا اتخاذ الدين آلة لتعصيبهم ومنافعهم الشخصية ، فطبقوها ضد الدين الحق . ومن جملة تلك المظالم ، ظلم تيمورلنك وإسماعيل الصفوى . بيد أن السيئات المرتكبة بسوء تفسير القانون أو تطبيقه ، لا تقع على القانون ، بل على من ارتكبتها . وقضية تغير الأمور الخلقية على حسب الأقاليم والشعوب ، بل على حسب الأشخاص ، ليست صالحة للدفاع . لأن ما يظهر من التغيرات ليس فى الأسس الأخلاقية ، وإنما هو فى فهمها وتطبيقها ، وفى المنفردات والعادات القومية . فلب الأخلاق الدينية وأساسها ثابت لا يتغير . وهذه الأسس تتلخص فى الشريعة الإسلامية بدستور « تعظيم أوامر الله ، والشفقة على خلقه » . ويمكن أن تشمل هذه الجملة ، موافقة للأوامر القرآنية والأحاديث النبوية ، على الأسس الآتية :

رعاية حقوق الغير ، المرحمة والكرم ، الحياء والعفة ، والوفاء والجود ، من السجاياء العالية . والأديان والأمم متفقة فى تبجيل هذه الخصال . حتى إنه لا يُعبرُ أضعف فرد لقوم من الأقوام بخلوه منها إلا يُعدُّ هذا إهانة له ، ويقوم بالدفاع عن نفسه . أما ما يقال عن الإسبارطين القدامى بأنهم كانوا يبيعون اللصوصية ، وأن الشعوب المتوحشة يقتلون شيوخهم ويأكلونهم ! فإننا لا نعد لا قدماء إسبارطة ولا متوحشى أوستراليا

متدينين ، حتى نحمل الدين سيئاتهم ! ثم إن هذه الانحرافات نشأت من سوء تفسير المبادئ التي ذكرت آنفا ، وليست من إنكارها .

وزعمُ تبدل الإيمان على حسب الشعوب والأفراد ، موضع مناقشة أيضا . فمن المسلم به أن نظرة رجل مشتغل بالعلم والفلسفة في بيئات متحضرة إلى الدين ، وشعوره به ، يكون أوسع وأسمى من نظرة الداهية إليه . ولكن الأسس الاعتقادية واحدة في جميع الأديان ، (برغم بعض الاختلافات في الفروع) ، وهي الإيمان بالله وبالم الغيب ، والوحي ، واليوم الآخر ، وعبادة الله والشكر له ، وتطهير القلب وتصفيته ، وخدمة الإنسان لأبناء نوعه ، وإحسانه إليهم . وإذا انحرف بعض الجهال عن طريق السداد ، وسب رجل من ييمونتي مريم خصمه ، فلن يصيب الدين نقص من كل هذا ، وإنما الإثم على من أهمل تعليمه وتلقينه .

وليس يندر من يعترض على هذا بقوله : « ما دامت الأديان المنزلّة لم تتولد من أساطير الأولين ، والحقيقة الدينية واحدة لا تتغير ، والبعث والوحي حق ، فما السبب لتترك البشر عصورا طويلة في جهالة بلا إلهام ؟ ولكن القرآن أنبأنا بأن الرسل قد بعثوا إلى البشر منذ أن ظهر ، وأن أحكام الدين المنزل على خاتم الأنبياء ، لا تختلف عما أنزل على نوح من الوصايا . غير أن القوى الطبيعية وأحداثها ليست بدافعة على التطور والرق دائما ، فمن الجائز أن تستلزم الانحطاط والفساد . فحكمة إلهية مدبرة لموجات التطور والفساد ، والرق والانحطاط ، على صورة يستقر بها ملك الخليقة ، وتوفى جميع المخلوقات آجالها المكتوبة ، فيتم التطور المطلوب ، أثرا لهذا الرق والانحطاط .

ويمكن أن يتخذ لهذه الحالة مثال من التأثيرات المفيدة والضارة التي تحدثها اضطرابات أجرام مجموعة الشمس في سيرها ، وحدوث تطور المجموعة ودوامها بهذه الاضطرابات .

إن البشرية قديمة جدا . لقد وجدت آثار دالة على أن الناس الذين عاشوا

قبل التاريخ كانوا متدينين . ولا يلزم مسابقة تموجات الدين للمدنية كذلك . لأنه من الجائز أن تكون الأزمنة التاريخية التي بلغها علمنا عهد انحطاط العقائد . وجائز أن يكون أجداد الأمم التي نعلم تاريخها إلى زمن ما ، أصحاب عقائد صحيحة ، وضل أحفادهم لطول الدهر ، كما ورد في القرآن ، ثم يرجعون إلى طريق الحق والهداية ، بإرشاد الأنبياء والرسل (انظر التعليق رقم ٦٢) .

وأأسفاه ؛ إن أنصاف المتعلمين عندنا يقبلون بلا تحقيق ولا جدال ، الملاحظات الظاهرة البطلان ، والأمثلة الخاطئة — ولاسيا إذا كانت تُعزى إلى عالم معروف — فتدور في الأفواه ، وتفسد أذهان الشباب وتسممها . لقد سمعت ما ذكرت من النظريات الجاحدة من كثير من المتفلسفين الجاهلين مصادرهما ، قبل أن أقرأها في كتب . من يلقَّهم هذه الآراء ؟ أما رد ذوى الرأي على هذه الدعايات ودفاعهم عنها ، فينحصر إما في عنف المتعصب ، وإما في سكوت العاجز الخائف . ومن هذين يتشعب الكفر في البلاد .

أخلص الآن رأيي الشخصي ، الموافق للإرشادات الدينية في نشوء الأديان : لما كان البشر مضطرين للحصول على حاجاتهم وملاذمهم من موطن واحد عام ، أى من الأرض ، فمن الطبيعي حدوث التزاحم والحاسدة والقتال بين الأفراد والجماعات . وتسبب هذه الحال ميل الناس إلى الظلم والمكر ، اللذين ينشأ منهما مختلف السيئات . ولما كانت تلك السيئات المتسعة المتزايدة في نسب هندسية بتأثير دافع طبيعي ، وجائز أن تخل بنظام العالم وتبيد النوع ، فقد أنزلت أديان وبعث حيناً بعد حين رجال خارقون للعادة ، لقنوا بنى البشر أن هناك دارعقبى بعد هذه الدنيا التي عجزوا عن تقسيمها ، ونما خفية لآخصى بعد الملاذ الدنيوية التي لم يستكفوها ، ومحكمة عليا للفصل بين الظالم والمظلوم ، وإلها قادرا فياضا مطلقا ، بدل أسيادهم الذين اتبعوهم في الدنيا . وبهذه الصورة تم الموازنة ويكتمل نظام العالم . إن تحول الأشياء والأحداث عن سيرها المعتاد ، ليس حالة لم تشاهد في هذه الدنيا ،

فلذا لا يمكن إنكار فرضيتنا هذه علميا . ونظرا إلى هذه الفرضية تقاطلت الجبلية البشرية مع التعاليم الدينية . وفي خلال تلك المقاتلة تنتصر فطرة الإنسان البهيمية حيناً بعد حين ، فتسقط الأحكام الدينية عن الاعتبار ، أو يحرقها ذوو المصالح على حسب هواهم . فظهور الطاغوت والأصنام هو مظهر الشق الثاني . وعند ذلك تتدخل الأمور الغيبية لرفع تلك الشرور والبدع والسيئات المتزايدة وإزالتها ، أى يتعاقب الرسل . ويجوز أن يقال : هل النبوة منحصرة في الجنس السامى ؟ كلا ، لم تقم الأديان بمثل هذه الدّغوى قطّ ، وإنما يرد ذكر الأسماء السامية في كتبنا لكون الأديان السائدة اليوم من أصل سامى . أوليس « بوذا » و« قونفوسيوس » من المعتقدين في الشرق الأقصى ؟ وليس بأيدينا سبب متمسك به لإثبات ما أسند إلى اسميهما من الخرافات على تعاليمهما الأصلية . وبالعكس من ذلك هناك أدلة كثيرة تدل على تبجيل العظماء التاريخيين بعد موتهم إلى درجة التقديس ، وتبديل وصاياهم ونظرياتهم .

وموجز الكلام : ليس في ظهور الأنبياء في السويد أو في بلاد اليونان أو حتى في أمريكا القديمة ، وتلقينهم الدين للناس ما ينافي عقيدتنا مطلقا : « رسلا قد قصصناهم عليك من قبل » ورسلا لم نقصصهم عليك — سورة النساء — ولا جرم أنا إذا فكرنا جيدا ، اتضح وجود نقطة مشاركة بين الأديان كلها . وهو أمر خليق بالبحث . ولو أن الذين استيقنوا وجدانا بأنهم مبعوثون من عند الله ، ولقنوا الناس مبادئهم على هذا الاعتبار ، فصدقتهم الناس بصفتهم أنبياء ؛ إلا أنه ليس مما ينافي العقائد الإسلامية أن يقوم رجال ذوو فطرة عالية بتنفيذ المراد الإلهى دون قيامهم بدعوة الرسالة . ويجوز مثلا عد المجتدين الذين أنبا الرسول بظهورهم على رأس كل مئة عام من أولئك الأشخاص .

(٩٥) ص ١٨٣ : أورد كميل فلاماريون في ص ١٧١ من كتابه « الله في الطبيعة » قياسا منطقيا غريبا لهيكل من فلاسفة الألمان (توفى سنة ١٨٣١) ،

وهو: « المادة غير الروح ، والروح غير المادة ، وكلاهما غير ، فكلاهما واحد » .
ما أظن أن مثل هذا القياس الذى يصنع باسم المنطق يستطيع إيصال البشر
إلى الحقيقة .

(٩٦) ص ١٨٤ : أظن أن ملاحظتى هذه ستكون موضع اعتراضات
كثيرة . فلذا أجتهد فى إثبات دعواى بأن أقص مختصرا بعض ما حدث لى من
الحوادث فى خلال حياتى فى الوظيفة : من المعلوم أنه منذ إعادة الجبال اليمانية
إلى إدارة الدولة العثمانية للمرة الثانية عام ١٢٨٧ الهجرى ، صارت المعيشة فى هذه
القطعة الميمونة معيشة جهنمية ، من جراء الخصاصات والمصادمات الكبيرة والصغيرة
التوالية ، بلا انقطاع تقريبا . وقد سافرت إلى اليمن قائدا لأركان حرية الجيش
العثمانى ، المرسل لقمع الثورة الكبيرة التى شبت سنة ١٣٢٠ هـ ، بقلب مسموم ،
وبالعداوة والبغض وسوء الظن نحو الزيديين مشحون ، وفكر متأثر محزون
من الأساطير المتغالية ، التى نقلها بعض الضباط والجنود وبعض الموظفين المدنيين ،
ممن عادوا منها إلى الوطن ، متأثرين معنئ بما لقوا فيها من المشاق ، وبمن فقدوا فيها
من رفقاتهم ، وأبناء جلدتهم . ولكن ثبت لى فى نهاية تحقيقاتى المنصفة ، فى خلال
خدمتى التى دامت ثلاث سنوات ونصف سنة ، ثبوتا يقينيا ، أن تلك الفضائح
والمساوى تولدت من سوء تصرف الولاة والموظفين الظالمين المُرتَشِينَ ، أكثر مما هى
من اختلاف المذاهب . ووجدتُ الحكومة العثمانية المركزية الذاهلة ، والمهملة فى
اختيار الموظفين ومراقبتهم وتفتيشهم ، أكثر خطأ ومسئولية من الإدارة الإمامية
اليمنية ، التى توسلت باستغاثة الأهالى المظلومين ، لبلوغ تقاليدها المذهبية ، وأمانها
القومية . وقد وقفت فى نتيجة المباحثات والمناقشات التى حدثت بينى وبين بعض
العلماء والمحليين فى اجتماعات خاصة ، على أن الزيدية الحقيقية ليست بها
حالة مغايرة للعبادى الإسلامية — بالرغم من الشتائم والفتريات المتقابلة — فما
صرتُ صاحب رأى فى أمور الدولة المهمة ، بكونى رئيس أركان الحرية العامة

بعد إعلان الدستور ، حتى اقترحت الاتفاق مع الإمام في أول فرصة سانحة . ولما كُلفت قمع الثورة العامة التي قامت في أواخر سنة ١٣٢٦ هـ من جراء عدم تصويب رأيي ، بادرت إلى تنفيذ ما أرى في مسألة الاتفاق مع الإمام ، بمجرد استرداد الأقسام المنتقلة إلى يد العساكر الإمامية من الولاية . ولكن ظهرت أمام فكري هذه مقاومة عنيفة سرية مشوبة بالنفاق ، أثارها بعض المنفعين بالنفاق والشقاق ، من معتادي الجرم من زمن قديم ، وبتدخل مرا كز جمعية الاتحاد والترقي بصنعاء والحديدة تدخل شديدا ، فكان الخالفون يسعون لاستغلال الباب العالي والمركز العام لجمعية الاتحاد والترقي بسلانيك من جهة ، وإخراج بعض الأمراء العسكريين المشهورين باليمن من سلك الطاعة من جهة أخرى ، فيطبعون في مطبعة الدولة رسائل في معنى « ليس إصلاح اليمن في الاتفاق والاستمالة ، وإنما هو في القضاء على الفقهاء والسادات » ، ثم يوزعونها سرا على الضباط الذين أتيت بهم من الوطن الأصلي لإيقاظ أولئك الخالفين من الحصار . وفي خلال ذلك كان ختم الجمعية المركزية للاتحاد والترقي بصنعاء أمانة بيد أحد العلماء السنيين ، فتجراً مفتى ألى قد اشتهر هناك بالعلم والفضل ، واتسع نفوذه في تعز ، حتى أقام الشوافع على . ولكن ما إن استدعيت بعض السادات وعلماء الزيدية ، وأبدت لهم رأيي في هذا الباب ، حتى قبلوه بلا تردد ، على الرحب والسعة . غير أن تجرّي الأمور لم يسمح بوقت كاف لاقتطاف الثمرات الإدارية والسياسية لهذا الاتفاق الذي أبرمته ، بما ذكرت من المشكلات . ومما لا شك فيه أنه لولا مشروع هذا الاتفاق ، لكان نصيب كل من باليمن باسم الترك إما السيف وإما ربة الأسر ، أيام الحرب الإيطالية . فليكن الشأن السيامي ما يكون ، فقد ترتبت على ذلك الاتفاق فائدة دينية خالدة ، وذلك أن الإمام يحيى أصدر في الأسبوع الأول من إمضائه ، فتوى بأن سب الشيخين كفر ، وأن كل من يتجرأ عليه يجب قتله — كان سب الشيخين أمراً معتادا لدوام الخصام من أربعين سنة .

هكذا استطاع مشروع جندى بسيط حر التفكير محب للخير ، رفع أكبر سبب من أسباب الاختلاف المذهبي وإزالته ، برغم مقاومة علمائنا .

أذكر مثالا آخر في هذا الشأن . وهو أنه لما سحبت الحلفاء جيوشها من مضيق البحر الأبيض في الحرب الكبرى ، عينت قيادة الجيش الثانى ، المقرر إرساله لمحاربة الروس ، الذين استولوا على أرضروم ، وظهر استعدادهم للاستيلاء على الأناضول ، على أن يُعهد إلى قيادة الجبهة كلها عند ما يتم حشد هذا الجيش ، بجوار ديار بكر . فبينما كانت الكتائب الأولى من هذا الجيش الذى يحتاج تجمعه لأكثر من شهرين ، تقترب من تلك الجهات ، قامت ثورة فى « درسيم » . ولما كنت لا أزال بإستانبول مع القسم الأعظم للجيش ، لم يكن لى حق الأمر والقيادة ، ومع ذلك طلبت وزاره الحربية رأى فى خصوص قمعها ، فنصحت مرتين باختيار جهة الاستمالة ، والتجنب لاتخاذ التدابير الشديدة . ولكن قائد الجيش الثالث ألح ، فشرعت فى الأعمال التنكيلية بالفرقة الثالثة عشرة ، وهى أول ما وصل من فرق الجيش الثانى ؛ فاعتصم كل من يقدر على حمل السلاح من أهالى درسيم الشرقية المصابة بالمهجوم بالجبال ، وشرع يدافع عن نفسه . سارع جيشنا إلى ضبط المدن ، وإجلاء النساء والأطفال والضعفاء منها ، ووصلت فى أثناء ذلك إلى ديار بكر ، واجتمعت مع أنور باشا القادم من تفتيش الجيش الثالث . فلما سألتى رأى عن الفرقة الثالثة عشرة المذكورة : هل يجب أن تكون تابعة للجيش الثانى أو للجيش الثالث ؟ استصوبت بقاءها تابعة للجيش الثالث ، على أساس أن تكمل ما شرعت فيه من أمر القمع . فما كاد يحصل وهيب باشا على هذا الإذن منى حتى أخلى « درسيم » ، التى حوّلها بثورة الأشقياء ، وضم الفرقة إلى جيشه وشرع فى الهجوم ، طامعا فى الانفراد بفخر الفتح ، قبل انتقال القيادة العامة إلى تمام اجتماع الجيش الثانى . بيد أنه لم يمض غير أيام قليلة حتى اضطر إلى الرجعة مهزوما مقهورا . وقد أوقعه أهالى درسيم فى مشا كل لا تحصى ، بهجاتهم المتكررة على جنبات

جيشه ، وقبلوا موظفين كثيرين من الروس . وفي خلال ذلك كان بعض المنتسبين
لحزب الإئتلاف والحرية مشغولين بالتوسط بين الروس وأهالي درسيم ، في أمر
الصداقة وتوزيع هدايا الروس على الرؤساء . فكان موقف جبهتنا في أشد الحرج .
لقد انكسر جيشنا في الشمال ، وشرع يتراجع نحو الغرب ، وجيشنا في الجنوب
لم يتجمع بعد ، وبينهما منطقة درسيم مشتعلة بنار الانتقام ، من جراء ما اتخذ معها من
الشدائد التي لم تهدأ بعد ! صرت أمام ضرورة ملحة للقيام بهجوم مضاد بالجيش
الثاني ناقص التكوين ، لوقف الروس عن تعقب الجيش الثالث . فما كان من الروس
إلا أن سحبوا جيشهم من أمام الجيش الثالث المنهزم شر هزيمة ، وحولوا هجماتهم
على الجيش الثاني . ولما كان الجيش الثاني معتمدا على جبال « كارپر » التي تسكنها
عشيرة علوية ، والتي يُتصور أن تكون مركزا لخطنا الدفاعي ، لزم إجلاء الأهالي
عن أراضيهم مؤقتا . ولهذا المناسبة طلب رئيسهم وهو رجل في التسعين من عمره
يدعى « كوجوك آغا » الاجتماع معي ، ليعرض عليّ بعض رغبات خاصة بعشيرته .
فاستقبلته باحترام ، وحذت طلباته ، وأفهمته في أثناء المحادثة أن قيام أهالي درسيم
بهذا العصيان لدولتهم في أثناء محنتها ، أمر لا يتفق والحماية الدينية ؛ ثم استفهمت
منه : هل هو مستعد للتوسط بيني وبينهم ، لإرجاعهم إلى الحق ، فأجاب بالموافقة .
وأرسلت أيضا أحمد بك يوزباشي أركان الحرب لاستكشاف بعض المواقع هناك ،
مع محمد بك خاتون أوغلي (ابن أخى إسماعيل باشا القورد — ذئب) وهو
أميرالاي بالمعاش ، ومن أسرة محترمة هناك ؛ فانضم الدرسيميون إلينا ، بسعى أولئك
الثلاثة ، وطرّدوا من كان معهم من الروس والمخالفين والخوّنة ، بل قاموا بهجمات
على الروس .

يجوز أن يكون لإعادتي النساء والصبيان والشيخوخ الذين أجلاوا عن درسيم في
بداية الحركة ، تأثير كبير في اجتذاب القلوب ، ولكن دعوتي التي وجهتها إليهم
وقت الضرورة ، كانت باسم الدين ، وكان المسارعان إلى الاستجابة بلا عوض

مادى شخصين ، يدعى أحدهما السيد حسين ، والآخر السيد رضا ، جامعين رئاسة المذهب والقبيلة ، ومعهما مصطفى بك بن شاه إسماعيل بك ؛ وقد وقع السيد حسين شهيدا في إحدى هجراته على الروس . ومهما قيل فيهم فإنى أجد نفسى مدينا بالترحم عليهم من صميم قلبى . فإن انضمام درسيم إلينا فى ذلك الوقت الحرج ، أنقذ كلا الجيشين من الهزيمة المحتومة ، وأنقذ الأناضول من استيلاء الروس عليها . وإسراع شجعان درسيم إلى إنقاذ ألوف الأسر الإسلامية من القتل العام ، عندما انقض عليهم الأرمن بهجاتهم الوحشية ، فى أثناء انسحاب الجيش الروسى ، عندما ظهرت الشيوعية فى روسيا ، يمكن أن يذكر ضمن حسنات ذلك الائتلاف . كان سكان درسيم أيضا من غلاة الشيعة ، ومن قسمها الجاهل . ولكننا لما تحدثنا معهم عن الجهة الإسلامية الجامعة ، انفقوا معنا . فلو سنحت الظروف وتأسست إدارة سليمة بدرسيم بعد انتهاء الحرب الكبرى ، وأرشدتهم رؤسائهم ، لأمكن جلبهم إلى طريق الحق ، وتحويلهم عنصرا نافعا للدولة .

(٩٧) ص ١٨٥ : إقفال باب الاجتهاد كلمة تدور فى الأفواه فى المذاهب السنية ، وعدم ظهور مجتهد منذ عهد الأئمة الأربعة مؤيد لهذه الرواية . والعجم لا يزالون يلقبون علماءهم الكبار بالمجتهدين . والزيدون يشترطون الاجتهاد فى اختيار أئمتهم ؛ فقد أنبأنى بعض علمائنا الأفاضل ذوى الآراء الصائبة ، الذين رجعت إليهم فى هذا الشأن ، بأن باب الاجتهاد أقفل من تلقاء نفسه ، لعدم ظهور من يكتمل فيه شروط الاجتهاد . وإذا ظهر هذا الرجل ، فباب الاجتهاد مفتوح أمامه على مصراعيه ! ولكن على أى أمر يُحمل عدم ظهور مجتهد عند المسلمين فى ألف عام ؟ وعند الشيعة الاجتهاد والمجتهدون ! لقد ورد فى صفحة ٣٤٩ من كتاب « تليفق المذاهب » ، الذى ألّفه الشيخ محمد رشيد رضا الحسينى من علماء مصر ، وترجمه الشيخ أحمد حمدى الأقسقى من أفاضل علمائنا ، أن باب الاجتهاد أقفل سياسيا ، وبهذا صدق ما ذهب إليه فى هذا الباب .

(٩٨) ١٨٨ ص : سمعت أخيراً أن الإمام قال إنه لم يُقتل بأمر منه ، وإنما قتل بخيانة بعض الغلاة . وهذه الرواية مؤيَّدة بورع الإمام وأصالته .

(٩٩) ص ١٩٢ كانت القوات التي استخدمتها الدولة العثمانية في محاربة الشيعة ، الجيش الإنكشارى وفرق اللوند (Levantino) التي يقودها أمراء الأناضول والروميلي . وكانت هيئات قيادة هذه القوات على الأقل — إن لم يكن كل أفرادها — من البكتاشيين .

وهذا دليل على أن البكتاشية لم تكن في ذلك العصر خارجة عن السنية . وإن ظهرت آثار التمرد في جيش السلطان سليم الأوّل حين حروبه مع الإيرانيين ، فإن المحرضين لها كانوا قضاة عسكر الدولة ، وندماء السلطان ! .

فهرس الكتاب

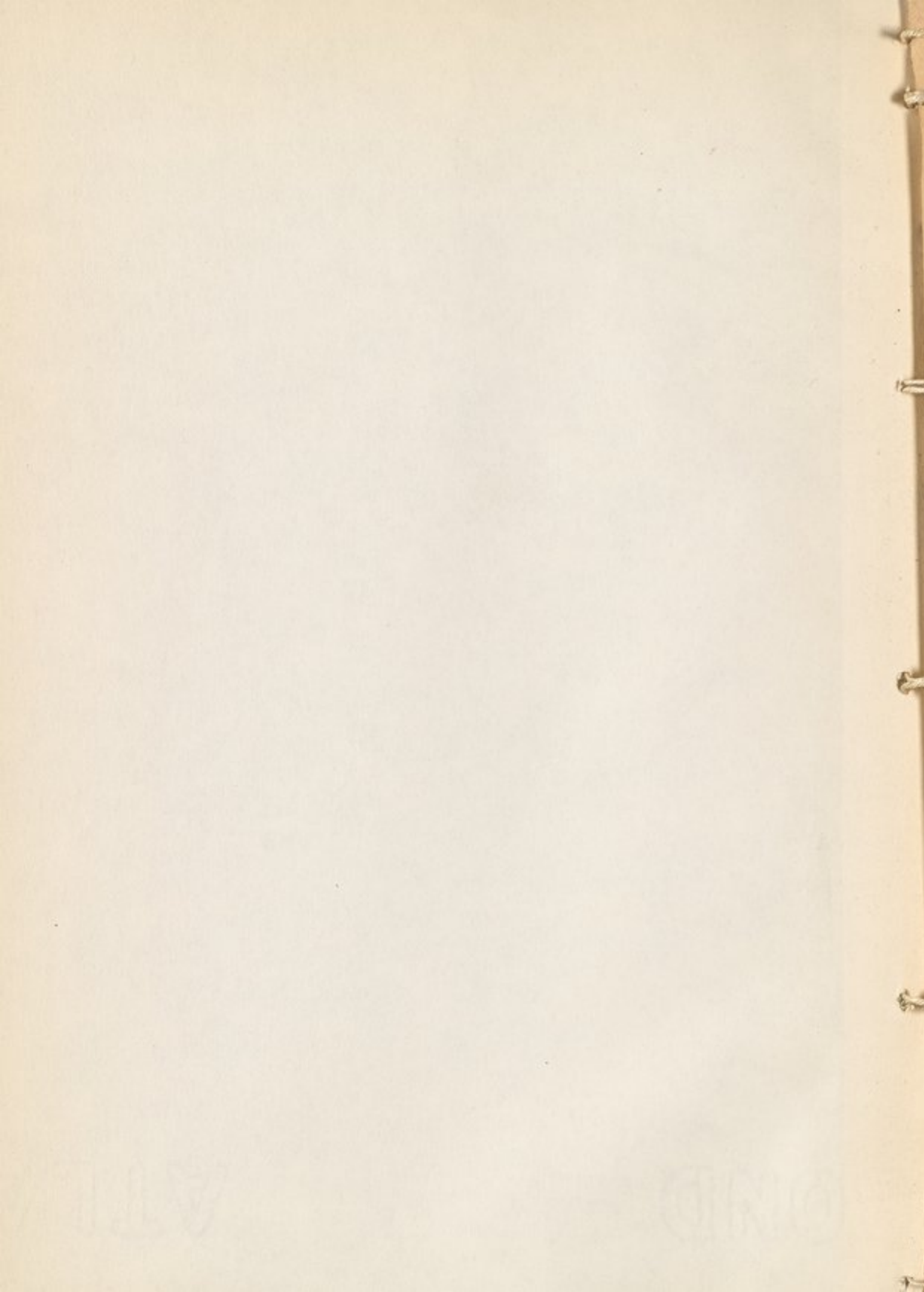
ص	ص
٦١	مقدمة الفهرس
٦٧	١ مقدمة المؤلف
٧١	٣ منهج التأليف
٧٦	٤ اسطراد
٧٩	١٠ موضوع الكتاب
٨٣	١٢ الباب الأول
٨٦	العقائد — آمنت بالله
٨٩	عقيدة فلاسفة اليونان في الله
٩١	١٤ طرق المعرفة
٩٢	١٥ مثال لإيضاح مسألة الخلقة
٩٤	١٨ رأى لاپلاس في المسبب الأول
٩٥	٢١ إثبات الوجود المطلق
٩٧	٢٢ إعتراض الماديين
٩٩	٢٩ ظهور ذوى الأرواح في الكواكب
١٠١	٣٠ عقيدة الحكماء في الله
	٣٣ آراء الماديين في الله
	٣٦ بحث نظريات الإلحاديين
	٤١ نظرية الأتوم
	٤٥ الماديون عندنا
	٥١ نظرية الموناد
	٥٦
١٠٤	أسباب التكاليف والواجبات
١٠٥	فوائد الصلاة والصوم
١٠٦	فوائد الحج والزكاة
١٠٧	حكمة الحج وزياره النبي
	عناية الدين الإسلامى بتربية
١٠٩	الأخلاق

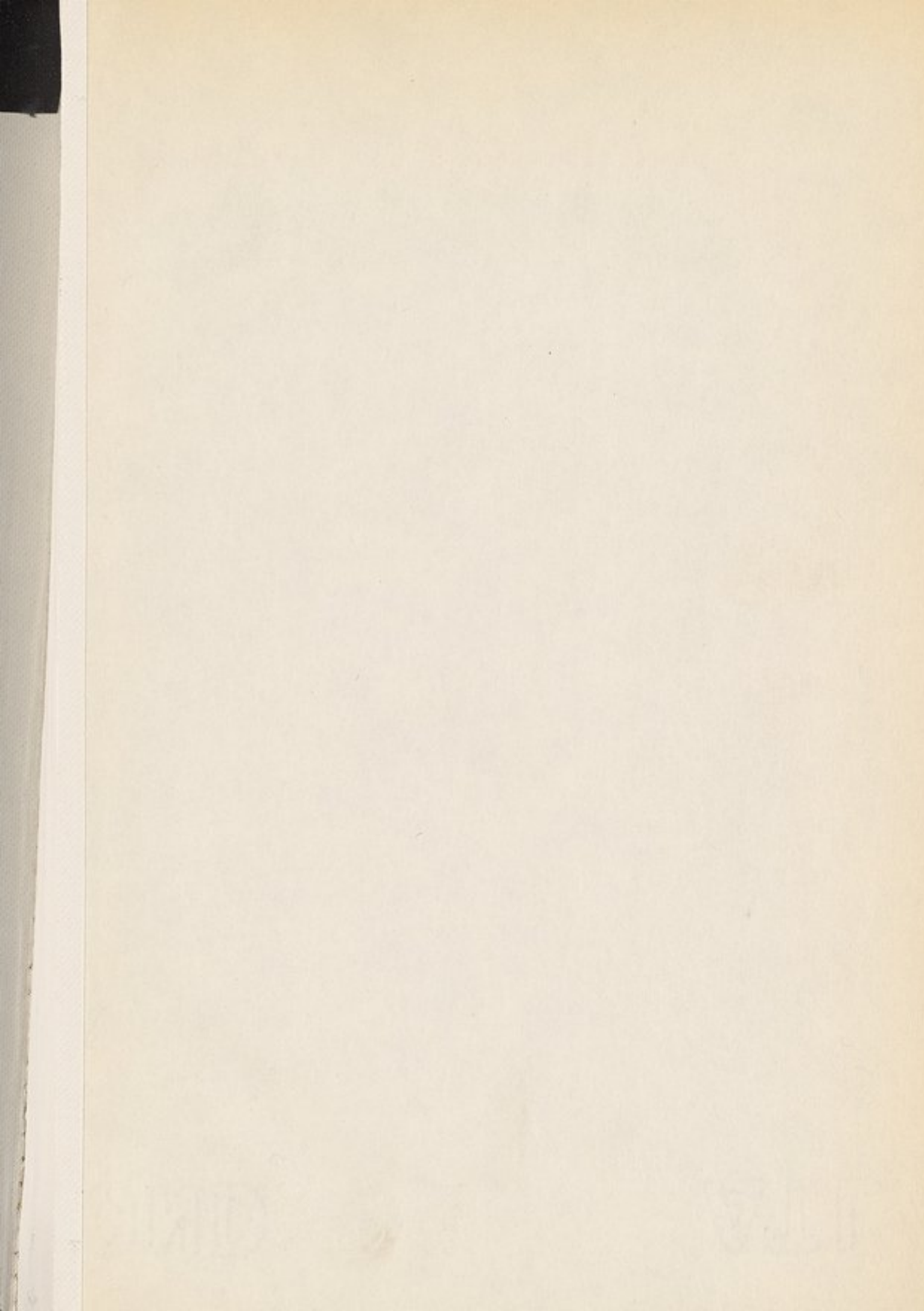
ص	فصل خاص
١٥٤ آراء علماء الغرب في القرآن	مقارنة بين الإسلام وسائر الأديان
١٥٦ ليس الإسلام مانعاً للرقى	رجحان الإسلام
١٥٧ تأسيس الأمرة في الإسلام	الباب الثالث
١٥٩ الإسلام لا يروج الحرب	الجواب عن الاعتراضات
١٥٩ نظام الحكم في الإسلام	المنكرة
١٦١ مسألة الربا	فلسفة شوبنهاور ونييتشه
١٦٥ القرآن لا يروج الحرب	استطراد
١٦٩ } الطعن في الإسلام	معاقبة العلماء
لما دية ثوابه الأخرى	أوهام الجهال
فصل خاص	أوهام الخواص
النتائج المحصلة من التمهيدات	معجزات الأنبياء
١٧١ } التي ذكرت في المباحث المتقدمة	رأى المؤلف في المعراج
١٧٨ تلخيص التلخيص	رأيه في الأحاديث النبوية
الباب الرابع	رأيه في الشروح والخواشئ
الاختلافات المذهبية	الاعتراضات الموجهة على القرآن
خاتمة	ما هي السماء الدنيا ؟
كلمة أخيرة	

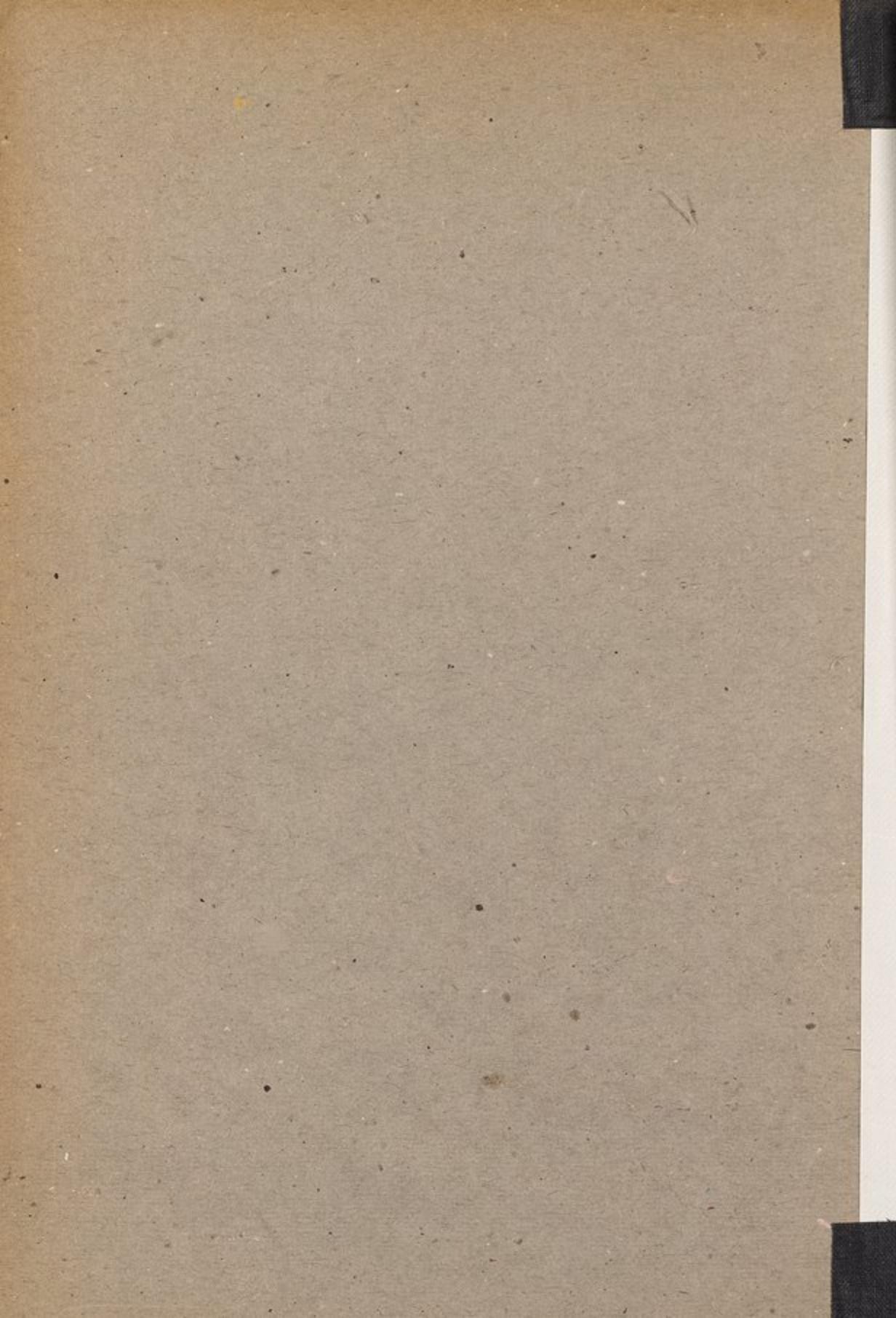
خطأ وصواب

بالرغم مما بذلنا من الجهد لإخراج هذا الكتاب مصححاً وقع بعض أغلاط مطبعة ، رأينا إثباته هنا ليرجع إليه من يريد تصحيحه من القراء .

صفحة	سطر	خطأ	صواب
١٣	١٩	تستند على	تستند إلى
١٥	٩	زونكريس	زويكسيس Zoexis
١٧	٦	المشهورات	المشهورات
١٧	١٠	أن تنتهي	أن تنتهي
٢٤	٦	وين هذه الكواكب	وين الكواكب
٣٩	١٣	Praursais	Praussais
٤٣	١٠	(١٠٢١٠)	(١٠٢١)
٤٤	٤	٢٠	٢٠°
٥٥	١٥	الثقاة	الثقل
٧١	١٧	بتنقل	ينقل
٨٠	٣	عتد	عند
٨١	١	انتصاره	انتصاره
١١٠	١٠	الجراثية	الجزائية
١١١	٤	أحثار	أختار
١١٣	٢١	*	* مكان النجمة سطر ٣ في صفحة ١١٤
١٢٧	١٤	يرون أن في ظهور العوالم	لا يرون أن في ظهور العوالم
١٦٤	٦	Ueber. mensch	Ueber mensch
١٧٤	١٣	لتعلم	ليتعلم
١٧٨	١٣	دينين	دينين
١٨٥	٢	أم المصاب	أم المصاب
١٩٠	٤	المشر	المبشرة
١٩٣	٢٣	أني لله	أني الله
١٩٤	٢	أسباب	أسباب
٢٠١	٢	الفرضيات	الفرضيات
٢٠٣	١٣	الجيلاتين	الجيلاتين
٢١٢	١٣	ص ٦٢	ص ٦٣







Princeton University Library



32101 084731254